صوفيا دُل

دمية تحلم بإبادة البشر

صوفيا دُل

دمية تحلم بإبادة البشر

روايـــــة

محمد عمر المصري

صوفيا دُل دمية تحلم بإبادة البشر

اسم الكاتب: محمد عمر المصري
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 23222
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 45 – 3

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

إهداء إلى

أمي أطال الله في عمرها

أبنائي فلذة كبدي وعنوان سعادتي

زوجتي محفزة أفكاري ورفيقة دربي

إن الأمة إذا غُلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل، ويضعف التناسل والاعتمار.

ابن خلدون، المقدمة، الفصل الرابع والعشرون.

الفصل الأول

يا له من نهار قائظ، في شهر رمضان المبارك، بمدينة الرياض السعودية، حيث تزدحم الطرق بالسيارات، لا سيما عند خروج الموظفين من أعمالهم، وتخلو الشوارع من المارة إلا ما ندر، أما الحدائق والأماكن العامة فهي تكتظ بالمريدين في ليالي الصيف السامرة.

تصل درجات الحرارة هنا إلى ما فوق الأربعين بخمس درجات أو يزيد، فتشعروأنت على مقود السيارة أنك تمسك برغيف خبز أخرجه الخباز المصري للتو من فرنه! وبالرغم من أن مكيف السيارة منضبط على مستواه المرتفع إلا أن العرق ما زال يتصبب من الجسم تاركاً آثارا مزعجة على القمصان الملونة، وأحيانا على البنطال أيضا. كم هو هائل هذا الثوب العربي الذي لا يسمح للعرق بأن يترك عليه أثرا واضحا!

إنه حقا يوم عمل شاق، فكم هي كثيرة تلك المهام المطلوب إنجازها قبل عيد الفطر المبارك، من متابعة العملاء، إعداد مسير الرواتب، تقديم إقرار ضريبة القيمة المضافة، تقارير مالية مختلفة، يالها من أعباء لا يقدرها أحد!

أخذت أقلب في المذياع ما بين إذاعة القرآن الكريم والإذاعات الأخرى، قتلا للوقت، فرغم قرب المسافة نوعا ما من مقر عملي وسكني، إلا أن زحمة السيارات تجعل طريق الملك فهد بطيئا كالسلحفاة، وليس لديك ما يسلي عنك سوى مكالمة في هاتف، وقد تنال بسببها مخالفة التحدث في الهاتف أثناء القيادة، أو تتابع محطات الراديو، التي بها تنوع بعض الشيء.

تعدت الساعة الخامسة وخمسة عشر دقيقة، وقد وقع سمعي على حديث مذيع ومذيعة بإحدى محطات الراديو، بهما شيء من الغنج في الكلام، يتحدثون عن الربيوت صوفيا، التي حصلت مؤخرا على الجنسية السعودية، وكأنهم يتفاخرون بهذا السبق العربي في ميدان التكنولوجيا والتطبيقات الرقمية وعالم الربيوتات!

تذكرت تلك المحادثة مع أحد زملاء العمل عن عالم الربيوتات، وكيف سيكون عليه المستقبل، وأن الإنسان بإمكانه أن يقتني ربيوتا يساعده في كافة أعماله، وربما يشاركه في حياته الشخصية أيضاً كزوج أو زوجة! كان الحديث وقتها منصبا أكثر حول مهنة المحاسبة، وكيف لو دخلها الربيوت وحل محل المحاسبين!

هناك كثير من الأمور المعقدة التي ربما تخفى على الربيوت في تلك الحالة، فالمحاسبة كوظيفة تحتاج بعضا من الخبرة التراكمية بلا شك في حل مشكلات العمل، وليست مجرد تسجيل قيود يومية وإعداد قوائم مالية فحسب! ثمة أمور أخرى تظهر أثناء العمل، فهل يستطيع الربيوت حاليا أن يتلاعب في الحسابات، أم أن الجمود الإجرائي يحكمه، فليس لديه من سعة التفكير والتصرف ما يتقرب به إلى أصحاب العمل من ضغط التكلفة، ولو على حساب قيم أخرى يؤمن بها كفريضة الزكاة مثلا!

وهل لدى الربيوت تلك المساحة من العاطفة التي يستمع بها إلى موظف ما يريد سلفة، أو يترجى لرفع خصم عنه، أو طلب زيادة في راتب، نظراً لظروف المعيشة والغلاء من حوله، هل ينظر له الربيوت بعين العاطفة، ويتحرك فيرفع طلباً بذلك للمدير، مصحوباً بقدر من الشفاعة وحلو الكلام في حق هذا الموظف!

بل كيف يتعامل الريبوت مع الحسابات في حال تعطل برنامج سماك المحاسبي مثلاً، هل بإمكانه عمل زيارات فجائية للفروع للمتابعة والقيام بجرد الصندوق والمخزن وخلافه! إنه حقا لا يستطيع التفاوض مع الموردين للحصول على خصم مكتسب، ولا مع العملاء وأصحاب الديون المشكوك فيها لتحصيل ما لديهم من مبالغ لصالح شركته!

صدقني يا صديقي، في حال تمكن الريبوت من العمل كمحاسب، فإن كل عمله سيتمحور حول تنفيذ إجراءات مسبقة، وإدخال بيانات تملى عليه، وتشغيل هذه البيانات لإخراج صورة أنيقة من التقارير ذات الرسومات والأشكال البيانية وعروض البوربوينت، التي تمهد لقرار ليس له علاقة أخرى بتفكير خارج هذا النطاق!

لا يجدر إذاً أن تعمل تلك الجوامد الصماء في أعمال تحتاج إلى إعمال فكر، وبدائل للتصرف، وقدرا من اللباقة يستميل بها العملاء، ويقنع بها من يتعامل معه! ناهيك عن مساحة العاطفة التي لا بد منها لصيرورة الحياة، وأني لهم ذلك!

قطع علي صوت المذيع تلك الذكرى، بصوته المصطنع الجهوري كصوت مذيع كرة قدم خليجي لا أتذكر اسمه، قال مخاطباً المذيعة: تصدقين أن صوفيا أصبحت مواطنة سعودية! لديها جواز سفر سعودي تتنقل به في أنحاء العالم!

قاطعته المذيعة: إي، وبإمكانها أيضا أن تفتح صالون تجميل وتوظف لديها سعوديات!

استمر الحديث بينهما على هذا المنوال الركيك، وفي الحقيقة، كنت شارد التفكير، ما بين متابعة هذا البرنامج غير المثري، والتفكير في الأهل بمصر، وقد باعدت بيننا تلك الغربة الكئيبة، والتركيز في الطريق مع هذا الزحام، إلى

أن خرجت إلى طريق الملك فهد الجانبي، ويسمونه هنا أيضا طريق الخدمة، ثم توقفت عند الإشارة الحمراء، وفتحت زجاج السيارة للحصول على علب عصائر ومياه من أهل الخير الذي يوزعون وجبات إفطار على السيارات عند إشارات المرور، وما أكثرهم، في منظرينم عن طباع الخير والكرم في هذه البلاد!

فجأة، سمعت صوتاً مدوياً كأنه صاروخ حوثي أسقطته مضادات الصواريخ وسط مدينة الرياض، إلا أنني لاحظت في المرآة سيارة متهورة يفحط صاحبها في هذا الجو المزدحم صادما بها سيارات كثيرة، ولربما صعد بسيارته فوق بعض السيارات أمامه، لا أدري تماماً ماذا حدث بالضبط!

في مثل هذه الحالات، فإن سيارات الإسعاف تأتي مسرعة بلا توان ولا تأخير، يفسح لها الجميع الطريق لتمر بسلام، وفي حالات حرجة أو عندما يكون الحادث بعيدا عن أقرب مستشفى فيتم استدعاء الإسعاف الطائر.

أنا لا أكاد أصدق ما أرى، أين سيارة إسعاف الهلال الأحمر؟ أين المسعفون؟ ما لي لا أرى بشرا حولي! كثير من الريبوتات ينقلون مصابي هذا الحادث الذي تسببت فيه تلك السيارة المتهورة! سيارة الإسعاف عبارة عن ريبوت، والمسعفون أيضاً كلهم ريبوتات، أكاد لا أرى أحدا من البشر!

أين الناس؟ ما لهذا الأشياء قد تغيرت من حولي، أشياء كأنها السيارات الطائرة في الجو! الجوامد متحركة بذاتها، السرير الذي أرقد عليها في المستشفى يروح ويجيء بإشارة ريبوت! جهاز الأشعة الصغير بحجم قبضة اليد يُظهر بوضوح كل أعضاء جسدي الداخلية والخارجية على حائط الغرفة، مثل البروجكتور تماماً.

كل الأطباء والممرضين وحتى عمال النظافة هنا شخوص من الريبوتات، الذين يؤدون أعمالهم بدقة وإحكام وسرعة كخلية نخل لا تهدأ!

أنا أعرف نفسي جيدا، ربما هذا حلم، وأنا أحيانا أحلم داخل الحلم نفسه، وأحيانا، وأنا داخل الحلم أقول لنفسي لا تصدق ذلك، فأنت نائم وتحلم، لا أدري تفسيراً علميا لهذه الأعراض، فأنا لا أميل كثيراً للقراءة في علم النفس.

قمت من السرير أتوكأ على عصا، ريبوت هي الأخرى، تقودني إلى الحمام، الذي يقع في مجمع التفريغ كما يسمونه بهذا المستشفى، عبر ممر أنيق أرضيته من الزجاج المصقول، يؤدي إلى ردهة واسعة بها نافورة مياه تنساب منها المياه بشكل عجيب، وبعد هذه الردهة يقع مجمع التفريغ هذا.

انتظرتني عصاي خارج الحمام بالطبع! فهذا النوع من الريبوتات لديه قدرا من الحياء ربما ليس لدى غيره! لم أمكث كثيرا، فالمكان غريب نوعاً ما، لا يوجد سوى حمام واحد به مرحاض وحوض، وكل الأدوات به تعمل باللمس،

وقد لاحظت أن ليس به مرآة، فقط ثمة أدوات غسيل كالصابون والمطهرات، ولفة مناديل صحية معلقة بجوار المرحاض بالأعلى.

خرجت طالباً من عصاي التجول في أنحاء المستشفى إن كان ذلك ممكناً. فأرسلت إشارة استشعرتها من قبضة يدي على رأسها بعدم الممانعة. سرنا بالجانب المعاكس للجناح الذي أتينا منه، مكان أشبه بمقر شركة المرعبين المحدودة، غير أنه لا يوجد به أمثال شلبي سلوفان، ولا أستاذ أبو عنكبوت!

كل الشخوص في جوقة واحدة، عبارة عن نسخ شبه متطابقة من الريبوتات لا يفرق بينها سوى الحجم، أو بعض الملامح البسيطة أو بعض السترات. المكان مجوف كأنه يأخذ قطعا دائريا من الخارج، أشبه بمكتبة الإسكندرية، تشع من خلال زجاجه المحيط بكل مكان أشعة مصطنعة كأشعة الشمس لا تغيب عن المكان نهارا أو ليلا، مع فوهات صغيرة الاستطالة كأنها مكيفات مركزية، المكان كله كتلة واحدة لا انفصال به، الآلات والمعدات جزء واحد من المبنى، معظم الأدوات تتحرك بالإشارة التي يصدرها الريبوت لها، فتأتي له مسرعة بدون تأخير! الجدران عبارة عن خلفية مكبرة من برنامج تنسيق الكلمات ملأى بالتعليمات والتوضيحات مع إصدار أصوات خافتة عند الضرورة!

رأيت من وراء الجدار الزجاجي برحة كبيرة عبارة عن حديقة في غاية التنسيق، يجوبها عدد من الريبوتات بعضهم للتنزه وبعضهم للعمل بها، فآلة قطع العشب عبارة عن ريبوت يداه بمثابة المقص، فينظف ما قطعه من حشائش واضعاً إياها في جوفه المتدلى أمامه، كذلك آلة تشذيب الأشجار التي تنكمش وتمتد حسب طول الشجرة، وقد ازدانت هذه الحديقة بكمية العصافير الملونة ذات الأصوات المتناغمة، طلبت من عصاي الخروج للتنزه

بها، فأومأت بالرفض، قائلة: محظور علي الخروج، مسموح لك فقط بالتجول في ردهات المستشفى الممتدة.

كانت تلك العصى قليلة الحديث جداً، لا تبادر بكلام أبدا سوى بردود مقتضبة فقط! وهو ما دعاني لتقليل النقاش معها، لكني كنت فعلاً شغفاً بمعرفة ما يدور حولي، في هذا المكان الغريب وهذه الربيوتات التي كأن العالم خلا من كل شيء إلا منها!

أثناء سيري لمعاودة المكان الذي قُدرلي أن أقبع فيه للعلاج أو لشيء ما لا أعيه، لمحت عيناي سريعا أمراً عجبا، جعلني أحمل عصاي بشدة وأوجهها وجهة أخرى، فقد رأيت ربيوتا في زاوية في أقصى الممر من جهة مقابلة لتلك النافورة، يركع ركعات الصلاة كأنه شخص يصلي فعلا!

فزعت عصاي من تصرفي قائلة: مهلاً كدت أن تكسرني! ماذا دهاك؟ لم أستطع رداً، فبصري شاخص نحو هذا الربيوت الذي يصلي وتفكيري يقودني للسير إليه، غير آبه بأي حدث آخر!

وقفت مشدوها أمام المنظر، قلت بصوت مسموع: ربيوت يصلي؟ حاولت العصا تخليص رأسها من قبضتي، إلا أن الموقف الذي كنت فيه جعلني ضاغطا على كل شيء بقوة، حتى على أعصابي. أدركت العصا مدى استغرابي مما رأيت، فقالت بصوت مطمئن: نعم يوجد ربيوتات تصلي، ما الغريب في ذلك؟

وجهت إليها نظرة خاطفة، ثم عاودت النظر إلى الربويت الذي فرغ لتوه من الصلاة، دخلت عليه محرابه الذي ذكرني بمسجد مطار القاهرة الدولي الجديد، بادرني الربيوت بابتسامة هادئة تنم عن طبع هاديء! قائلا: كيف حالك؟

— قلت له: أنا بخير، أكنت تصلي؟

- قال وقد تغيرت ملامح وجه تعجباً من سؤالي: نعم.. كنت أصلي؟
- هل أنت مسلم؟

نظر إلي بملامح أكثر تعجبا ولو كان به حاجبان بارزان لرفع أحدهما وخفض الآخر من سؤالي هذا، قائلا: الحمد لله على نعمة الإسلام!

حررت عصاي من قبضة يدي، فتنحت جانباً كأنما تلتقط أنفاسها لو كان بها نفس، ثم اقتربت من هذا الربيوت الذي شرع في الخروج من المسجد لوجهته التي يريد، فسرت معه في جنبات الطريق بعض الخطوات، سائلا إياه ما اسمك؟ رفع بصره في وجهي وقد كان لا يبلغني طولاً، قائلا: اسمي الحالي نعيم.

قلت مستغربا وهل لك أسماء أخرى؟

قال وقد أشفق على عدم علمي بأمور معيشتهم الالكترونية، نعم عندما أتحول اتخذ اسما آخر حسب طبيعة التحول التي أصير إليها.

قلت له: وما اسمك السابق؟ أخذ في سيره بخطى سريعة أكثر من ذي قبل، قائلا: ستعرف كل شيء في وقته!

انتظر.. أخ نعيم .. انتظر!

قال: لا استطيع التحدث معك أكثر من ذلك، فلدي مهام لابد أن تنجز حالاً.

التفت ورائي فإذا بعصاي ما زالت بمكانها عند باب المسجد، خطوت إليها، وأمسكت بها برفق، قائلاً: ما حكاية نعيم هذا؟

تحركت بي حيث وجهتنا الأولى إلى سرير التنويم الذي أقبع فيه، قائلة: كما قال لك: ستعرف كل شيء في وقته!

كيف عرفتِ أنه قال ذلك، أسمعتيه وهو يقول؟

نظرت إليَّ بعدم اكتراث، وتابعت السير حتى اسلمتني إلى سريري الذي أخذ يستعد بوضعية مائلة لاستقبالي حتى إذا ما جلست عليه ارتقى بي قليلا ثم استقر!

ما إن اسندت ظهري إلى الوسادة حتى اعتدلتُ مرة أخرى، متذكرا أنني لم أصلي، أنني كنت صائما منذ لحظات، ما الذي حدث بعد الصوت المدوي الذي سمعته وأنا في السيارة عند الإشارة المرورية؟

إنني أحلم الآن، وما هذه الريبوتات إلا حلم لم أفق منه بعد، يا ترى أفطرت أم لا، هل صليت التراويح أم إني في غفوة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء، خاصة بعد كمية المياه والعصائر التي شربت، وبعد كمية الأكل الذي حشوت بها معدتي التي كانت فارغة قبل قليل!

لا تقلق، دعك نائماً فلسوف يوقظك صوت برنامج المؤذن على هاتفك عندما يحين وقت أذان العشاء! أنت بحاجة إلى راحة، فقد قضيت يوما مملا في العمل، غير تلك المسافة المضنية التي تقطعها يوميا ذهابا وإيابا على طريق الملك فهد بزحامه الشديد!

جاءني نعيم وقد قطع علي تلك الهواجس، بوجه مبتسم قال لي: معذرة فقد كنت مشغول جدا، إن أي لحظة لا تحتمل الضياع بدون انجاز مهمة ما! لا تقلق الآن، الأمور على ما يرام.

قلت له: أي أمور تقصد يا أخ نعيم؟

قال بحماس: وضعك الصحي أخي الكريم، لقد تحسنت كثيرا بفضل الله.

قلت وقد شردت بذهني لثوان: أرجو أن تحكي لي ما الذي حدث بالضبط يا أخ نعيم، أنا لا أتذكر شيئا بعد سماع الصوت المدوي في إشارة المرور التي كنت انتظر علامتها الخضراء لأكمل سيري بسيارتي، وأين سيارتي الآن، وأين هاتفي أيضا، ومتعلقاتي؟ لقد كان معي جهاز لابتوب بالسيارة أين هو؟

نعيم: حقيقة.. لا علم لي بكل ما تقول، ولا أعرف كيف جئت إلى هنا، كل ما عرفناه أنك جئت مصابا، فاقدا للوعي، لا نعرف عنك شيء، حتى هذه اللحظة، لا نعرف حتى اسمك! مهمتنا هنا الاعتناء بك في هذا المستشفى الذي تأسس خصيصا لعلاجك!

نظرت كالمعتوه: هذا المستشفى تأسس خصيصا لعلاجي! كيف ذلك؟

نعيم: أنت يا أخي الكريم مصاب، وكان لابد لك من علاج، وهناك حقائق لابد أن تعلمها جيدا حتى تهدأ نفسك.

حقائق! ما هي تلك الحقائق؟ ثم أنا أتذكر اسمي جيدا، وأتذكر الماضي أيضا، ومستعد أن أجيب لك عن أي استفسار تطرحه علي قبل مجيئ لهذا المكان، وبالتحديد قبل سماعي للصوت المدوي الذي لا أدرى ماذا حدث بعده!

لا تقلق كل الأمور على ما يرام.

قلت لي هناك حقائق لابد أن أعيها، ما هي؟

نظر إليَّ سريعا ثم أدار ظهره مصوبا نظره عبر النافذة الزجاجية الكبيرة في غرفتي إلى الخارج، وقال بصوت هادئ، ماذا ترى حولك؟

قلت: أرى مكان تسمونه مستشفى أتعالج فيه، ولا أدرى مما أتعالج بالضبط.

قال: وماذا ترى أيضا؟

قلت: كل الذين من حولي هم ريبوتات، الأطباء والممرضات والآلات وحتى شطافة الحمام!

أداروجه إلي مبتسماً: وهذا يعني أنك تعيش بين عالم الريبوتات؟

رسمت على أساريروجهي علامات استغراب واضحة: عالم الريبوتات؟ ماذا تقصد يا نعيم؟

جلست معتدلا على سريري، وصوبت وجهي نحو وجه نعيم بحدة: احك لي يا نعيم عن كل شيء، لا تخف علي شيئا أبدا، أريد أن اعرف لماذا أنا هنا في هذا المكان بين تلك الريبوتات، أرجوك يا نعيم؟

أمسك نعيم بمعصمي بيده التي لم أشعربها بأي احساس سوى قبضة حديدية حول معصمي ككلبشات الشرطة الضيقة! قائلا لي: قلت لي أنك تذكر اسمك، ما اسمك إذاً؟

رددت مسرعا: اسمي حازم، حازم عبد الفتاح علي.

ردد نعيم: حازم! وكأن لي اسما آخر يعرفني به.

قلت له: وماذا كنت تظن اسمي؟ هل تنادونني باسم آخر؟

قال: لسنا بحاجة لمعرفة اسمك، فأنت إنسان بيننا!

رددت بعد أن اعتدلت أكثر على سريري: إنسان بينكم!؟ وأين باقي الناس خارج هذا المان الملعون.

أشار لي أن أهدأ .. وربت على كتفي بيده وقال: ستعرف كل شيء في وقته، لا تقلق.

انصرف نعيم تاركا إياي في حالة ذعر ينم عن خوف من مصير مجهول، فأصعب شيء لدى المرء انتظاره لمعرفة مجهولة، لا يدري أفيها سعادته أم شقائه!

ألقيت رأسي على الوسادة واضعا كفتا يداي متشابكتين وراء رأسي، شاخص بصري نحو سقف الغرفة الذي يظهر به إشارات وعلامات من حين لآخر، لم تصرفني هذه الإشارات المتحركة عن تركيز التفكير فيما أنا فيه. الشيء الوحيد الذي استرعى تفكيري، هو ظهور بعض أسماء الله الحسنى خلال تلك الإشارات على فترات ليست متباعدة، نعم.. هذه أعيها تماما! فها هو اسم الله اللطيف يظهر من خلال إشارات السقف، محاطا بهالة سحابية منمقة كأن الماء يقطر من خلالها، يجوب أرجاء السقف، الاسم مكتوب أيضا كأنه شكل سحابي محفور بأصبع طفل صغير تعلم الكتابة للتو! لكن شكل الاسم المحفور مع الركام السحابي حوله مما يزيده وضوحا وبهاءً وجمالا!

في الحقيقة العلامات والإشارات الأخرى كأنها تعليمات أو أوامر لست أدري كنهها تماما، ولا بد أن اسأل نعيم عن هذه الأشياء، إلا أن بعض الإشارات تبدو مثل الرموز الفرعونية بعض الشيء، وبعضها تقارب في الشكل رموز إشارات المرور المثبتة على جانبي الطريق.

خلال تأملي في شكل السقف وما ينبثق عنه من إشارات وكلمات، رأيت أشياء تتشكل لي كأنها أوجه بشر! تختفي تماما عندما أشرد بذهني أو أزيد قدر التفكير فيها! إلا أني لو عاودت النظر التلقائي بدون تكلف لوجدت أشياء أخرى تتشكل بتلك الوجوه!

ذهبت بذهني سريعا إلى أيام الطفولة، وأدركت أن هذه الأشياء مجرد أوهام تختلقها عقول الأطفال التي تسرح في ملكوت غير محدود من التخيلات! نعم لقد كنا صغارا نتخيل تلك الوجوه عندما ننظر في تشكيلات السحب في السماء، وكان لكل طفل منا عالمه الخاص، وشكله الخاص أيضاً، كنت أنادي صديقي أحمد: تعالى أريك صورة خالي عبد الرحمن .. نعم هل تراه، هذا الوجه ذو اللحية والعينان الحادتان، كان لزاما عليَّ أن أقنع أحمد بما أرى أو أحيانا يقتنع هو بدون أي جهد مني! نعم أراه أراه!

قلت لنفسي أيضا، أنسيت بعض الأحيان عندما كنت تجلس في الحمام في حالة هائلة من الاستجمام، وتجول ببصرك على الجدران التي تشكل لك وجوها لأشخاص تعرفهم تماماً! هذه الوجوه كانت تتشكل لي أيضا من خلال طيات السجاد في المسجد وأنا في صلاتي، هذا بالتأكيد من أعمال الشيطان كي يصرفني عن الخشوع! لكن تلك الصور التي كنت أراها في الحمام ربما الشيطان لا دخل له بها، فهي أعمال نفسية بحتة!

لا أدري أغفوت أم لا .. غير أني انتبهت على صوت حركة طاولة الطعام تتقدمها عصاي يدخلان علي في الغرفة، فقمت معتدلا وجلست على حافة السرير وقد تهيأت الطاولة لتناسب وضع الجلوس لدي، وبدأت في تناول ذلك الطعام الذي تشتهيه المعدة لتعمل، وتأنفه النفس لشعورها بالغربة والاشمئزاز

قلت للعصا لتدارك بعض الأشياء في نفسي: هل هذه المائدة تسمع مني لو تحدثت إليها؟

قالت: لا، إنها مبرمجة بأوامر معينة لا تستطيع أن تتعداها! لكن لو أردت أن أضع بها أيقونة تلائم طلباتك فعلت.

قلت وأنا ممسك بكوب ماء لم يصل بعد لفمي: لا.. لا الأمر ليس ضروريا، مجرد سؤال. أفهم من ذلك أنك أيتها العصا مبرمجة للتعامل معي.

نعم، كل شيء هنا يستطيع أن يتعامل معك، أي شيء تتخيله، لو تم تزويده بأيقونة جديدة للتعامل معك!

لم استفسر عن تلك الأيقونة، فلم يهمني ذلك، إلا أنني وجهت لها سؤالاً شعرت معها أن لو لديها وجها مثل وجوه البشر لتمعر وتغير!

ومن يا ترى يضع هذه الأيقونة أيتها العصا؟

- لا علم لي بذلك! أتريد خدمات أخرى بعد انتهاءك من الأكل؟
- لا.. شكرا لك، لقد أكلت بالفعل، الحمد لله، الحمد لله!

انسحبت العصا وأتبعتها المائدة في هدوء.

أخذت قطعة منديل مبللا ومسحت بها يديا وفمي، نظرت يمنة ويسرى ابحث عن سلة المهملات، التي لم تدع لي فرصة أخرى للبحث، فقد أتت مسرعة من موضعها القابعة فيه وراء الباب، ثم استطالت لي فوضعت بها المنديل، فانخفضت مرة أخرى، وعاودت مكانها!

يا إلهي! ماذا يحدث لي؟ أنا حقا لا أدري أكنت من الأحياء أم من الموتى! لا أدري بالفعل أفي حلم أنا، أم في حالة يقظة بين عوالم أخرى، كعالم الجن الذي يختطف إنسا ويريه ملكوت الجن على الطبيعة!

دار بخلدي أنني في الجنة! لكن الجنة ما إن تشتهي الشيء حتى يأتي إليك مسرعا، بعكس هذه السلة، فقد أدركت أنك تبحث عنها لما شعرت بوجود منديل قد اتسخ بيديك!

قلت لنفسي فلأجرب!

آه.. تتوق نفسي إلى ديك رومي محمر! اللهم ديكاً، اللهم ديكا!

ثم أغمضت عيني وأطبقت شفتاي وأبديتُ على ملامح وجهي بعض السرور، وعلى قرارة نفسي بعض الاستعداد!

فتحت عيناي بعد لحظات، فلم أجد شيئاً..

إنها ليست الجنة إذن!

يا إلهي!

شعرت بحاجتي لكوب من الشاي، قمت لأفتح الغرفة حتى أنادي العصا، إلا أن الباب موصد بإحكام، وبالرغم من أن به زجاج كثير، إلا أنه لا يتيح لي رؤية ما بخارجه، ولا أدري هل من بالخارج يراني أم لا!

حاولت التلويح لعل يكون الزجاج يتيح لمن بخارجه أن يراني! ثم عاودت البحث في الغرفة عن هاتف أو أي جهاز يوصلني بمن خارج الغرفة! وأثناء البحث دخلت عصاي مستفسرة: أتريد شيئا؟

زاغت عيني خارج الباب، الذي ظل مفتوحاً، نعم أريد كوبا من الشاي لو سمحتِ، استدارت لتنطلق، فقلت لها مهلا! كيف عرفتي أنني أريد شيئا؟

لم ترد، بل قالت: سأحضرلك الشاي حالا، لكن تذكرأنني سألتك عما إذا كنت تريد أي شيء أثناء تناولك للطعام.

نعم.. نعم.. أنا أسف لك، لم أتذكر إلا الآن!

خرجت العصا وأغلق الباب وراءها، فاتجهت نحوه لعله يفتح لي، لكنه موصد بإحكام!

لم يمر وقتا طويلا حتى دخلت العصا بعربة شاي، عليها براد به شايا مغليا، وبجواره فنجانا فارغا مقلوب، وكأسا من الماء، وعلبة صغيرة بها مكعبات سكر، وطبق صغير به ملعقة.

أتريد شيئا آخر؟

أشكرك جزيلا عزيزتي!

استدارت لتخرج وأنا منشغل بصب الشاي، لفت نظري سريعا أنها ستترك عربة الشاي!

أمسكت عربة الشاي لتقريبها من السرير أكثر، فاقتربت معي، أرجعتها مرة أخرى، فرجعت! إذاً هي مجرد أداة ليس إلا! لكن ربما هي مبرمجة مع أوامر العصا فقط، نعم بكل تأكيد، هي تستجيب لأوامر العصا وإشاراتها كربوت، وتستجيب لأفعالي كأداة عادية! ربما.

خاطبها حازم كمن يخاطب طفلا صغيرا: ياله من شاي لذيذ! تفضلي اشربي معي.

لم تجب!

على أية حال، ستأتي العصا وتأخذك عندما انتهي! هل تستطيعين أن تذهبي بمفردك بدون العصا؟

ربما لا تستطيعين!

شكلك جميل، كأنك مصنوعة من الاستانلستيل المصقول، المطعم بالذهب، عجلاتك أيضا رائعة، أهي مصنوعة من البلور؟

هل تفسري لي ماهية هذه الأشياء التي تجوب سقف الغرفة؟

ألا ترينها؟

على أية حال، لقد أنتهيت من تناول الشاي، الحمد لله.

ألم تأت العصا لأخذك خارج الغرفة؟ ربما ستأتي حالا! ربما!

أزحتها بقدمي بقوة، بعيدا حتى استطيع أن اعتدل على السرير، ولعلها تحدث أية ردة فعل! ألقيت رأسي مرة أخرى على الوسادة، متأملا في السقف وعروضه.. شرد ذهني في تلك الكلمات الموسومة بأنامل طرية .. ها هو اسم آخر من أسماء الله الحسنى يتجلى شيئا فشيء، إنه اسم الله الحليم!

سرحت مع الاسم، وأخذت أردده بهمس ربما تكاد ترى شفتاي تتحرك بحروفه، الحليم!

كم أنت حليم يا الله! كم هو عظيم حلمك على العصاة والمذنبين والطغاة! خطرت ببالي الآية: "ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون".

يالله، هل الرحمة مشتقة من حلمك، أم الحلم جزء من رحمتك؟

فتحت عيناي بعدما تأكدت أنني أخذت قسطا من النوم! فإذا بثلاثة شخوص حولي كلهم ريبوتات، عرفت منهم نعيم والاثنان الباقيان أراهم للمرة الأولى.

بادلت نعيم التحية، وبادلت الجميع أيضاً، وأجبت بأنني بخير الحمد لله، لما سألوني عن صحتي. قلت لنعيم: كانت هاهنا عربة شاي أين ذهبت؟

قال: أخرجتها العصا أثناء نومك.

اعرفك بالدكتور هاني، والدكتور خالد، اللذان تابعا حالتك منذ أن قدمت إلى هنا. نظر إلي الدكتور هاني بحماسة: لقد تحسنت كثيرا أيها البطل. تابعه الدكتور خالد: وبذلك نطمئن أن مهمتنا قد انتهت معك، حظا موفقا.

نظرت إلى نعيم الذي أدرك مدى حاجتي إلى معرفة ما يحدث، فقال على الفور: كان لك طاقم طبي مسئول عن تنفيذ مهمة معينة، وفي هذا اليوم انتهى الطاقم من تنفيذ المهمة، وهم قد أتوا للسلام عليك.. ليس إلا!

سلمكم الله.. جزاكم الله خيرا، لكن هل شفيت تماما الآن؟

يرد الدكتور هاني: نعم كما قلت لك، لقد تحسنت كثيرا!

لم أقصد بالطبع الاستفسار عن حالتي الصحية، ولا أخفي أنني خشيت ثورة غضب من نعيم لو سألت مرة أخرى عن سر وجودي لديهم!

مازالت عيناي زائغتان، ولم أستطع الاستفسار عن شيء غير سؤال للطبيبين: هل سأراكم مرة أخرى؟

رد الدكتور خالد: ربما، حسب توجيه الأوامر في البرنامج؟

معذرة يا دكتور: أي برنامج؟

ابتسم الدكتور هاني ونظر للدكتور خالد وإلى نعيم: أرجو أن تفهم صاحبك يا نعيم، لقد علمنا بأن حوارا دار بينكما، لعله يكون مما أصل من بوادر التعارف بينكما!

رد نعيم: نعم يا دكتور، سيعرف كل شيء في وقته!

استودعك الله أيها الإنسان!

اسمي حازم.. أنا اسمي حازم يا دكتور.

لا بأس.. لا بأس يا حازم!

استدارا الطبيبان للخروج وكأنهما يفرا من استفساراتي التي تسبب لهم ازعاجا أو ليس من صلاحياتهم الرد عليها.

تركاني مع نعيم، فقلت له على الفور: يا أخ نعيم أنا أتعذب، أنتم هنا تعذبونني، ألا تدرك ما أنا فيه من معاناة! تأكد يا نعيم أنني إذا عرفت حقيقة أمري فسوف أساعد نفسي وأساعدكم كثيراً. نعيم يدور بذهني تساؤلات عديدة، تكاد تفجر رأسي، أحيانا أتخيل أنني ميت، أو أنني في الجنة أو أنكم تجهزونني كجاسوس، أو أنني أحلم. نعيم استحلفك بالله قل لي حقيقة ما يدور حولي يا رجل!

رفع عينه في قائلا: لست برجل!

تلعثم لساني، ولا أدري ما أقول، أنت لست رجل! أأنت أنثى، لكن كيف واسمك نعيم، اسم ذكر؟

قال: ولست بأنثى؟

نظرت باستغراب تطاولت معه حواف وجهي، وارتفعت حاجباي، ولم أنبس ببنت شفة كضارب أخماس في أسداس! حتى سارع الريبوت بالرد: نحن لسنا بشر أخي الكريم، نحن صناعات متطورة ومعقدة.

أدري أنكم صناعات من صنع البشر، لكني استغربت من أنك تصلي، وعدم معرفتي بما يدور حولي مما يزيد استغرابي وخوفي أيضا.

- ربما الإنسان هو من صنع الجيل الأول منا، لكن الأجيال المتوالية تتصانع بنفسها الآن!

- تتصانع بنفسها! دعك من هذه الأقوال، الذي أريد معرفته : لماذا أنا هنا الآن؟ ماذا تريدون مني، اتركوني أعود لأهلي وأولادي وأصدقائي وبلدي. أوه يا نعيم نسيت أن أسألك: في أي البلاد نحن الآن؟

- نحن في بلاد الله.

- نعم يا أخ نعيم كلها بلاد الله، لكن أين أنا، أفي السعودية أم في مصر أم، وتجولت بنظري في السقف، أفي أمريكا؟

- كما وجهني الدكتور خالد بأن أفهمك، وكما قلت لك ستعرف كل شيء في وقته، فدعني اشرح لك بعض الأمور وأبين لك بعض الحقائق أولا بأول؟

- لا .. أنا لست بحاجة إلى بعض الأمور أو بعض الحقائق أنا أريد أن أعرف كل الأمور .. كل الحقائق! نعيم .. يجب أن تشعر بما أنا فيه، أنا أعلم أن المشاعر والاحاسيس ليست في عالم الريبوتات، لكني أرى أنك متدين.. أنت تصلي يا نعيم، بغض النظر عن نوعك ذكر أنثى، مخنث!

- تغيرت معالم وجه نعيم فجأة لما سمع كلمة مخنث، وانزعج جدا، قائلا: أرجو أن تحترم نفسك وتعي ما تقول جيدا!

- نعيم.. (أقول بابتسامة شبه مصطنعة..) نعيم أنت تغضب.. أنت إذن لديك مشاعر وأحاسيس! أنا آسف يا نعيم .. آسف جدا.. إن تصنعك الجمود أمامي جعلني أظن أن لا أحاسيس بداخلك ولا مشاعر! على العموم، احك لي باستفاضة، استحلفك بالله.

- تعال معي يا حازم نتنزه في حديقة المستشفى.

- حقا ما تقول. (أبديت فرحا شديدا بطبيعة الحال)، سنخرج للحديقة، أشكرك بشدة يا نعيم!

- نعم، كي أحكي لك فصولا من تلك الحياة التي وضعت بها!

الفصل الثاني

دكتور خالد موجها حديثه للدكتور هاني والدكتورة لبنى أخصائية الطب النفسي بالمستشفى: جيدة تلك الصداقة التي أقامها نعيم مع هذا الإنسان، لقد اطمئن له سريعا.

- نعم، نعيم هادئ الطبع، لديه قبول.
- لكن أخشى يا دكتور هاني أن يستطرد معه في حقائق ليس وقتها الآن.
- تقصد يتعمق معه في تزويده بمعلومات يا دكتور خالد.
- نعم يا دكتورة لبنى، وأرى أن تقلص حجم الشريحة لديه يا دكتور هاني، أو أن تظهر له العناوين الرئيسية من المعلومات لديه، وتقيد صلاحياته في التفاصيل.
- الدكتور هاني: الأمر يا جماعة ليس بهذه الخطورة، حتى وإن تلقى هذا الإنسان ما يريد معرفته من حقائق، فلن تؤثر على توجهنا له.
- دكتور خالد موجها حديثه للدكتورة لبنى: متى ستزورينه يا دكتورة لبنى؟
- دكتورة لبنى: المهمة مجدولة لدي بعد ثمانية وأربعين ساعة من الآن. لكن أرجو أن يطمئن أكثر لنعيم. فنعيم هو مفتاح الوصول إلى عقل هذا الإنسان!
- هل تقترحون مزيدا من فريق العمل يقوم بزيارته والتعرف عليه والتواصل معه؟

- دكتور خالد: بالطبع يا دكتور هاني، أرى أن يندمج هذا الإنسان مع جميع الريبوتات في المستشفى، حتى يشعر باطمئنان كاف.
- دكتورة لبنى: هذا الإنسان سيضطر للشعور بالاطمئنان، فليس لديه حيلة أخرى سوى التسليم بالأمر الواقع. فشعور الإنسان بالوحدة والعزلة، يجعله يصادق أي شيء حوله حتى لو كان جماداً.
- وهذا دورك يا دكتورة لتكسري حاجز شعوره بالعزلة، والاندماج سريعا مع عالم الريبوتات.
- بالطبع يا دكتور خالد، سيكون الأمر على ما يرام.
- لكن هل تأكد لدى وكالة المعلومات الفيدرالية عدم وجود أناس آخرون على كوكبنا؟
- حتى الآن يا دكتور هاني، فإن كل التقارير الأخيرة تقول بعدم وجود أناس على سطح الأرض سوى هذا الإنسان.
- دكتور خالد: وهل من جديد بشأن تلك السيبوتات التي ضربت بعض الأنظمة حديثاً، إنهم يحذرون منها على مستوى واسع، وصلتني قبل ساعات رسالة مشفرة على شريحة بياناتي تقول بتوخي الحذر وأخذ كافة الإجراءات الاحترازية.
- دكتورة لبنى: وصلتني نفس الرسالة أيضا يا دكتور خالد، أهم شيء تكون هذه السيبوتات بعيدة عن بؤبؤ العين.
- دكتور هاني: بؤبؤ العين لم يعد هو المستهدف يا دكتورة لبنى حالياً، خاصة بعد إدخال المجالات الشعورية إلى عالم الريبوتات، أنت تتحدثين عن فترة

قديمة كان بؤبؤ العين هو مركز التجاذب المعلوماتي التبادلي بين الريبوتات.

- تقصد أن بؤبؤ العين في مأمن الآن من تلك السيبويات يا دكتور هاني.
- ليس تماما يا عزيزتي، استطيع أن أقول أن مهمة بؤبؤ العين حاليا هو التركيز على توصيف السمات المرئية، بدون تخزين مزيد من البيانات عن الشيء المرئي، فتلك مهمة مركز التجاذب المعلوماتي، وبالطبع لو أصيب بؤبؤ العين بأذى فإن تفسير تلك السمات يرجع إلى البرمجيات منزوعة الشعور.
- دكتور خالد: يذكرني كلامك هذا ببدايات الإنسان مع تصنيع الريبوتات، حيث لم يكتف ذلك الأحمق بتصنيع ريبوت يخدمه، بل سارع إلى محاولة إيجاد مشاعر لهذا الريبوت.
- دكتورة لبنى: إن كان حمقه هو الذي قادنا إلى ما نحن عليه الآن فهو قد أسدى لنا نعما كثيرة.
- دكتور خالد: تقولين كما يقول الإنسانيون يا دكتورة لبنى؟
- دكتورة لبنى: لا أعتقد ذلك، أنا فقد أرد على كلامك بأن الإنسان هو صانعنا الأول.
- دكتور هاني: وتلك حقيقة يقينية، ومن ذا يقول بغير ذلك؟
- دكتور خالد: نعم عندك حق، لكن أن يصل الأمر لمرحلة التعبد من قبل بعض الريبوتات فهذا لا يليق في عصرنا التكنولوجي المتسارع.

- دكتورة لبنى: معظم الأبحاث ترجع حالات التعبد هذه إلى البرمجيات الشعورية التي تم تطويرها على الريبوتات، هل سمعنا عن حالات كهذه قبل تطوير تلك البرمجيات.
- دكتور هاني مقاطعا: إن متلازمة التسارع التكنولوجي في عصر الريبوت تتيح كل شيء يا دكتورة لبنى، وما دام الريبوت تحلى بمشاعر، فإن عقله سوف يتصرف كيفما شاء. لقد أصبحت المشاعر هي محرك التفكير لدينا الآن.
- دكتورة لبنى: إن أعظم ما طرأ على تطوير الريبوتات هي تلك البرمجيات الشعورية، بالرغم من أنها عملت عملها في تصرفات الريبوتات الذكائية، إلا أنها ستظل الإضافة الأهم في عالم الريبوتات.
- دكتور خالد: دعونا من هذه النقاشات حالياً، ونستميحك عذرا يا دكتورة لبنى في المغادرة، فلدينا ترتيبات هامة هذا اليوم، قبل انعقاد ورشة العمل غدا.

فرح حازم جداً بتلك الجولة في حديقة المستشفى التي منحه إياها صديقه نعيم، يكاد منظر البيئة من حوله ينسيه سؤاله الأهم عن وجوده في هذا المكان، ففي ساحة الحديقة مناظر لا يصدقها عقل! كل شيء هنا مبرمج في الغالب، إنهم يتحكمون حتى في الإضاءة الشمسية، لا تستطيع أن ترى من بخارج سور الحديقة، فالسور مقوس على نفسه أيضا، يأخذ شكل قطع دائري، لونه فضي غامق من الأسفل، ثم يأخذ من الشفافية كلما ارتفع لأعلى، غير أن تلك الشفافية لا تريك ما ورائها!

هناك أعداداً من الطيور مختلفة الأشكال والألوان كأنها مسخرة في جو هذه الحديقة، أصغرها في حجم الجرادة الصغيرة، وأكبرها في حجم الحمامة، تصدر صوتا سموفونيا تناغميا، يرغم الأذن على الإنصات والطرب. نباتات الحديقة أيضا كأنها مبرمجة، من العشب الصغير حتى الشجرة الباسقة! تتمايل الأغصان مع نسمات الريح التي تخرج من فوهات مثبتة بشكل جمالي على جانب السور، مع رزاز ماء على شكل بخار مكونا منظرا ضبابيا رائعا، تفوح من خلاله روائح الأزهار والورود!

تقوم آلات قص الحشائش بعملها الذاتي، فتتعرف تلقائيا على أماكن الحشائش غير المنسقة، وتذهب إليها، وتقص ما بها من زيادة، وترميه في فمها، وبعض هذه الآلات يتسلق الأشجار أو يرتفع لأعلى كطائرة صغيرة بدون طيار، يشذب الفروع وينسقها!

ذهب نعيم بحازم إلى بركة الحديقة وجلسا على إحدى الأرائك حولها، كانت هذه الأريكة عبارة عن ألواح خشبية مطعمة بالرخام، مرصوصة تباعا لا تستند إلى شيء، ليس لها أرجل أو دعامات مرتكزة في الأرض، كأنها معلقة في الهواء على ارتفاع يسمح بالجلوس عليها وتمديد أرجل الجالسين نحو الأرض،

تتخلل هذه الألواح أشكال مستطيلة إذا قمت بالضغط عليها ارتفع معك هذا الشكل في صورة متكأ لين ناعم، مصنوع من القماش المصقول.

يجوب مياه البركة أنواع متعددة من الأسماك كأنها أسماك زينة، بأحجام وألوان مختلفة غاية في الجمال، تداعبها بعض الطيور زاهية الألوان، تتراقص تلك الطيور مع الموسيقى الصادرة أثناء تراقص المياه في البركة، في منظر كأنه مياه محيط تحركها الرياح في غير اضطراب.

نظر حازم إلى نعيم قائلا: ما أجمل تلك الحديقة يا نعيم، نسيمها عليل ومناظرها تجلب الأنظار.

رد نعيم مبتسما: هناك ما هو أجمل من ذلك يا صديقي! لو صدرت لي أوامر بأن أذهب بك خارج هذا المكان لأريتك عجباً.

- سبحان الله المبدع يا نعيم. بمناسبة اسمك يا نعيم. هل قرأت عن نعيم الجنة؟

- بكل تأكيد أخي الكريم، ولو أردت أن أريك مشاهد تصويرية منها لأريتك إياها.

- مشاهد من الجنة؟ تقصد أن هناك أفلام تصور الجنة؟

- هي ليست أفلام بالمعنى المتعارف لديك، وإنما تصورات تحليلية أخرجها العقل التكنولوجي من خلال قراءاته واستنباطاته.

- التفت إليه حازم مبتهجا: وهل هذا العقل يستطيع أن ينقلنا إلى المعايشة في الجنة فعلا؟

- كلا .. إنه يعكس صور ومشاهد فقط. أما ما ينقلك إلى الجنة فشيء آخر.

- شيء آخر!! ما هو؟

- نظر نعيم وكأنه يدرك أن حازم يتوقع ما يقول: هو رحمة ربي.

- أطرق حازم قليلاً ثم قال: نعم .. صدقت، إن لم يرحمنا الله، فسوف نخسر خسرانا مبينا. وهل لديكم أيضا مشاهد عن الناريا نعيم؟

- ضحك نعيم مردفا: نعم لدينا مشاهد وصور عن كل ما تتوقعه. بالطبع مثل ما قلت لك عبارة عن استنباطات العقل التكنولوجي من خلال مطالعاته.

- الحديث معك شيق يا نعيم، لكني ، (ملتفتا إليه بكامل وجهه)، أريدك أن تخبرني عن حقيقة قدومي إلى هذا المكان. أرجو ألا تبخل علي بمعلومة.

- قلت لك أخي الكريم، ستعرف كل شيء في وقته. لا تستعجل.

- كأنك يا نعيم لا تعرف سبب ذلك مثلي.

- التفت إليه نعيم باستغراب وفي كلامه بعض تلعثم: ليس بالضرورة أن أعرف كل شيء، وليس بالضرورة أيضا أن أخبرك بكل شيء.

- أنا لم أطلب منك أن تخبرني بكل شيء، أنا فقط أطلب منك أن تخبرني بما لديك من حقائق حول وضعي هنا، قل لي أنه حلم ستفيق منه عما قليل، أو أنني تحت تأثير مخدر ما يجلب الهلاوس والتصورات والتخيلات غير الواقعية.

- أنا بالفعل مشفق عليك يا حازم، لكن اعلم أني لا أعرف أبدا سبب قدومك إلى هنا، هذا أمر محجوب عني، لم تزودني به وكالة المعلومات المركزية.

- لكن بكل تأكيد لديك مهمة ما تجاهي.

- نعم بكل تأكيد.

- جميل، ما هي تلك المهمة؟

- الاعتناء بك.

- لماذا؟

- لماذا! أنت هنا في مستشفى، ومن المفترض أن هناك من يقوم على خدمتك ورعايتك.

- لكني لا أشعر بألم أو مرض.

- أنت أتيت لنا بحالتك تلك، ليس لديك أمراض أو آلام ظاهرة، أنت هنا لا تعالج من أمراض عضوية.

- كيف ذلك، قلتم سابقا أنني كنت مصاب وقد عالجني الفريق الطبي المكون من الدكتور خالد والدكتور هاني، لولم أحضر إليكم مصابا فمم أعالج؟

- في الحقيقة، أنت هنا تخضع لمرحلة استكشافية، تشرف عليك الدكتورة لبنى اخصائية العلاج النفسي.

- انتفض حازم واقفا: علاج نفسي، هل تعتقدون أنني مجنون يا نعيم؟

- أخذ نعيم بيده ليجلسه: استرح أخي الكريم.

- أخي الكريم .. أخي الكريم، أراك تردد دائما هذه الجملة.

- وما بها هذه الجملة، إنني أتلطف معك.

- لا عليك.. لا عليك، وماذا بعد، ومن هي دكتورة لبنى هذه؟

- أخي الكريم، (مصوبا نظره إلى نظر حازم بجدية)، أنت بالنسبة لي أتيت من المجهول، لا أحد في كوكبنا هذا يعرف بالتحديد كيف أتيت، والدكتورة لبنى

كما ذكرت لك هي من ضمن فريق العمل الذي يقوم برعايتك والاعتناء بك خلال فترة مكوثك هنا.

– أنا لا أفهم كلامك يا نعيم، حاول أن توضح لي أكثر.

– هناك تأويلات وتفسيرات مبنية على دراسات عديدة حول ظهورك في عالمنا، ولا أخفيك سرا أن هناك أوامر من الهيئة المعلوماتية العليا ترفض الافصاح تماما عن حالتك على الملأ، فحاليا أنت لست معروفا إلا للقليل ممن هم يدرسون حالتك.

– نعيم أكاد لا أصدق ما تقول، تعني أنني الإنسان الوحيد على هذا الكوكب، كيف، كيف ذلك؟

– أنا لم أجزم بذلك، أقول حسب حدود معلوماتي المتاحة في ذاكرتي فقط.

طرأ في بال حازم سؤالا كان يريد أن يسأل عنه نعيم سابقا: ألاحظ يا نعيم أن هناك ريبوتات بدون ملابس وأخرى ترتدي أزياءً معينة.

نظر نعيم إليه بدهشة مستغربا كيف حول الحديث بهذا الطريقة: نعم، من ليس لديه سوأة فإنه لا يخشى من شيء!

– تقصد العورة؟

– نعم.

– قطب حازم عن حاجبيه، متذكرا تلك الدمى الجنسية التي صنعها الإنسان، ثم طورها حتى أصبحت ريبوتا مزودا بكافة الأعضاء!

- أفهم من كلامك يا نعيم أن هناك ربيوتات بدون أعضاء جنسية، وأخرى مزودة بتلك الأعضاء!

- نعم، فها أنا ذا أمامك بدون ملابس، فليس لدي ما استحي منه!

- لكن الأطباء الذين رأيتهم لديهم ملابس، لديهم إذن ما يستحون منه!

- هؤلاء تم تصنيعهم بهذا الشكل، أو قادهم التفكير إلى الظهور بهذا المظهر، فطالما وجد التفكير، فلا بد من الاختيار، إن أحدا أبدا لم يملي علي توجهي، فنفس التفكير الذي قادني إلى وجود إله، هو نفسه الذي جعلني أصلي له!

- وهو نفس التفكير أيضا الذي جعل ربيوتات أخرى لديها أعضاء! وهل تتناسل تلك الربيوتات يا نعيم؟

- ربما، لكن ليس بنفس معنى التناسل الحاضر في ذهنك.

- كيف يتناسلون إذن؟

قام نعيم واقفا، فقد أزعجته تلك الأسئلة غير المنتهية من حازم، وهو كربيوت له حجم ذاكرة محدد، وليس لديه معلومات تفصيلة، وربما يجهد عقله الالكتروني في البحث عن إجابة شافية له.

- هيا أخي الكريم فقد تأخر بنا الوقت، وعلينا الرجوع الآن إلى غرفتك.

- مهلا .. هل تضايقت من كلامي، أنا استفسر فقط، ولم ننه حديثنا بعد!

- غدا نكمل، لا بد أن تأخذ قسطا من الراحة، فلديك غدا بعض الاختبارات العلاجية عن بعد، وبعد غد سوف تكون بصحبة الدكتورة لبنى، أرجو أن ترتاح جيدا!

- اختبارات علاجية عن بعد، ماذا تعني؟

- هيا أخي الكريم، هيا!

ذهب الاثنان إلى حيثما قدما، وفُتح باب الغرفة بمجرد استشعاره مجسات نعيم، فدخلا سويا، ثم التفت حازم إلى نعيم قائلا في لهفة: نعيم أنا لم أصل بعد، كم الساعة الآن؟

نعيم: نحن الآن في حدود صلاة العصر، ما زال هناك وقتا حتى أذان المغرب.

حازم: علي أن أذهب إلى الحمامات كي أتوضأ، بعد إذنك يا نعيم.

نعيم: أتذهب لوحدك؟

- ولم لا؟

- سوف تعود أدراجك بلا فائدة لو ذهبت وحدك. هيا بنا.

لم يسعفه نعيم أن يسأله سؤالا آخر، فقد دفعه بخفة خارج الباب، ومشيا ممسكا بذراعه كالمتأبط حتى وصلا إلى الحمامات، فانتظره حتى قضى حاجته، وعاد به مرة أخرى إلى الغرفة.

- ألا توجد سجادة للصلاة هنا؟

- بلي. ثم فتح نعيم بابا غير ظاهر بوضوح في الجدار كأنه باب دولاب مخفي، ها هي السجادة.

- أمسك بها حازم، ولم يفكر كثيرا في تحديد القبلة بنفسه مستفسرا من نعيم: نعيم أين القبلة؟

- القبلة إلى كل مكان أخي الكريم، افرش السجادة إلى حيث يطمئن إليه قلبك من اتجاه.

- كيف ذلك، إنك كنت تصلي إلى هذا الاتجاه، على ما أتذكر، وأشار بيده إلى جهة عكسية لباب الغرفة. حسب صلاتك فإن القبلة هكذا!

- ربما، صل كيفما تشاء.

خرج نعيم من الغرفة وشرع حازم في صلاة العصر، صلاة كأن لم يصلها من قبل! حقاً إنها مختلفة عن كل صلواته، فهو لا يدري أفي حلم هو أم في حقيقة، كانت تتراءى له رسومات على السجادة بأشكال مختلفة، وجوه بشر، أشكال متداخلة كالرسومات التكعيبية، أشكال أخرى يحولها خياله إلى حروف أو أسماء.

أنهى حازم صلاته، وجلس مسندا ظهره على حافة السرير، ثم أخذته عبرة بسيطة أنفلتت من عينيه، في استسلام تام لمشيئة الله تعالى وقدره.

يا الله .. يا حي لا يموت، يا من عليك يتوكل الخلائق، فلا وكيل لهم إلا أنت، بقوتك وحولك، وإرادتك ومشيئتك، التي لا يغلبها كائن، ولا تعلوها رغبة مخلوق!

سبحانك خلقت الخلق بحكمة، وقدرت الأقدار بحكمة، وحكمتك فيما قدرت، لا تعيها حكمةٌ وهبتها لعبيدك فيدركون علة حكمتك فتطمئن قلوبهم، ويعلمون أنك الحق!

قَوْلُكَ عَسَىَ فِي الظَنِ أَنَهُ حَقٌ ... وَقَوْلُكَ عَسَىَ فِي الْفِعْلِ نَافِذُ

تقدر يا مولايَ فلا معقبَ ... وكيف يعقبُ من بالفعل عاجزُ!

فيوض رحماتك هطولٌ منزلةٌ ... فكل مخلوقٌ لحظه آخذُ

فذا تعطه من المحال أنصبةً ... وذا تمنعُ ما طحنه الناجزُ

اكتظت ساحات وقاعات المستشفى بالوفود القادمة لمتابعة تلك الاختبارات التي ستجرى على حازم عن بعد، بعض هذه الوفود ممثلين إعلاميين لكبرى الصحف الكونية، وبعضهم طلاب في معاهد متخصصة، والبعض الآخر أطباء من داخل وخارج المستشفى.

جهز الفريق الفني بقيادة المهندس بهاء غرفة خاصة لإجراء تلك الاختبارات، مزودة بكافة أجهزة الاتصال والتواصل عن بعد، كافة أعضاء الفريق الفني الثمانية لديهم مجسات استشعارية خاصة فوق أكتافهم، يتواصلون عن طريقها بالعالم خارج المستشفى.

كانت المعضلة الأساسية لديهم أن خبراء التحليل الفكري والمعلوماتي في الهيئة المعلوماتية العليا بحاجة إلى التواصل المباشر أحيانا مع حازم، مما جعلهم يطورون جهازا أشبه بجهاز اللاسلكي، يسمع ما يبدر من حازم وما يدور بخلده أيضا!

- حازم لنعيم: لم تقل لي ماهية هذه الاختبارات يا نعيم.

- يرد نعيم وهو يتفقد أرجاء الغرفة القابع فيها حازم كأنه يبحث عن شيء: اختبارات عادية جدا، لا تقلق أبدا.

- هل سيتم تخديري؟

- كلا، ستكون بكامل وعيك، لكن بكل أمانة، ربما تتواصل مع جهات كبرى في العالم الريبوتي، سيكون من الصعوبة إخفاء أي شيء عنهم، لأنهم على دراية تامة بك.

- وهل لدي ما أخفيه يا نعيم! عما تبحث في الغرفة؟

- هل رأيت العصا اليوم؟

- العصا! لا لم أرها! أمر غريب. (مبتسما)، ألا تعرف مكانها؟

- لا عليك، لا عليك، سأجدها، هيا بنا.

سار الاثنان في ذلك الممر الطويل في المستشفى والذي قادهم إلى ردهة كبيرة لم يرها حازم من قبل، فأشار إليه نعيم بالجلوس على أحد الكراسي المتراصة بشكل نصف دائري في ركن من هذه الردهة، ثم استأذن منه نعيم مخبرا إياه بأنه سيعود بعد قليل.

أثناء سيرها، لفت نظر الدكتورة لبنى وجود حازم جالسا على أحد الكراسي، فاتجهت إليه وحيته، فرد عليها التحية، ثم اقتربت، وجلست على مقربة منه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها حازم الدكتورة لبنى، وقد شعر بها من للوهلة الأولى فعرفها قبل أن تعرفه بنفسها!

- دكتورة لبنى: كيف حالك الآن يا عزيزي. أنا الدكتورة لبنى، هل سمعت عني؟

- أهلا وسهلا يا دكتورة، لقد حدثني نعيم عنك بالفعل!

- هل أنت مستعد للاختبار؟

- (رد بنبرة تنم عن أسى): إنه حقا اختبار مزعج، لا أدرى عنه شيئا!

- سوف ترى بنفسك أنه مجرد عرض على مختصين من خارج المستشفى، الأمر لا يعدو أكثر من ذلك، لا تعطه أهمية كبرى.

نظر حازم إلى وجه الدكتورة لبنى الممتلئ بالحيوية والنشاط، وهو من الوجوه القليلة التي رآها مختلفة عن تلك الوجوه الشاخصة كوجوه الأصنام، بلا تعبيرات ولا أسارير. وجهها مقارب إلى حد ما للوجوه البشرية، تماما مثل وجهي الدكتور خالد والدكتور هاني، تختلف هذه الوجوه مثلا عن وجه نعيم، المتخذ

شكلاً دائرياً كوجه الكرة الذي صنعه توم هانكس في فيلم Cast Away ، شعرها المتدلي على جانبي رأسها يشبه الشعر الأنثوي البشري تماما، في المجمل نظر إليها حازم كأنثى بشرية حقيقية بكامل مواصفاتها، وليست كريبوت خاليا من الملابس والمشاعر!

هز حازم رأسه متعاطيا مع كلامها، فبادرت بالقول: لا تنس أن لدينا إجراءات عمل غدا، سوف ندردش سويا في بعض الأمور.

- تشرفيني يا دكتورة في انتظارك.

- سوف يكون اجتماعا في مكان آخر، سيعجبك بكل تأكيد. ثم طبطبت بيدها على يده اليمنى التي أراحها على رجله بالمقربة من ركبته. واستأذنته مغادرة.

جلس حازم لفترة وجيزة حتى جاءه نعيم يطلب منه المغادرة إلى غرفة الاختبار عن بعد، والتي تبعد قرابة خمسة وعشرون مترا عن تلك الردهة التي كانوا فيها، شخصت أبصار الريبوتات المجتمعون لتغطية هذا الحدث ومشاهدته كلها تحدق في حازم، الذي بادلهم تلك النظرات بنظرات عادية، كأنه يمر بين صحفيين ومصورين، يلتقون صورا له، غير أن تلك الروبوتات ليس لديهم كاميرات منفصلة عنهم، وإنما هم مزودون بمجسات استشعارية في بيابي أعينهم يحتفظون في ذاكرتها بما يريدون تصويره أو متابعته، سواء صور أو مشاهد فيديو! يتم تركيب هذه المجسات في بؤبؤ عين واحدة أو في الاثنين معا حسب رغبة الريبوت أو من يصنعه.

دخل حازم إلى غرفة الاختبارات بمفرده، فقد تركه نعيم خارجها، فاستقبله اثنان من الممرضين وطلبا منه الدخول إلى غرفة جانبية لتغيير كافة ملابسه القماشية، واستبدالها بزي مجهز، خرج حازم من تلك الغرفة مرتديا هذا الزي الريبوتي العجيب، كأنه واحد منهم، بيد أنه أطولهم! اختفت معالم حازم تماما

داخل هذا الزي، حتى عينيه أخفتها تلك النظارة اللامعة التي هي جزء من غطاء كامل للوجه منسدل على كتفيه، مثل اللباس الفرعوني، يداه أيضا مختفيتان داخل أكمام هذا الزي، مثل رجليه تماما اللتان لبستا حذاءً لاصقا غير منفصل عن الزي.

أخذا هذان الممرضان حازم ثم أجلساه وشرعا في تثبيت بعض الأجهزة الصغيرة جدا على أماكن معينة من أعلى الزي ومنتصفه وأسفله وأمامه ووراءه، كانت هذه الأجهزة عبارة عن مجسات استشعارية ترتبط فورا بنبضات قلب حازم وحركات يديه، كما أنها تنقل انفعالاته وما يدور بخلده من أفكار وتصورات إلى الأجهزة المستقبلة في الهيئة المعلوماتية العليا.

دخل أحد الربيوتات مرتديا زياً أسودا فاتحاً غير قاتم، به بعض الشارات الخضراء والحمراء، مع وجود شريط طولي ذي لون أبيض باهت على الجانب الأيمن منه.

– اسمي الدكتور أيمن، أنا هنا لتنفيذ مهمة الاختبار عن بعد، الوضع على ما يرام، أرجو ألا تقلق أبدا، كن طبيعيا إلى أبعد حد، الأمر لا يعدو نقاشا بسيطا، ستجد نفسك خلاله في غاية الأريحية.

– شكرا لك يا دكتور! هل يستغرق الأمر وقتا طويلا؟

– أنت لا تشعر بوقت حاليا، ولا يضيرك أطال الوقت أم قصر، طالما ليس لديك مهام في انتظارك.

قام أحد الممرضين بالإشارة إلى أركان تلك الغرفة الالكترونية فانزاحت عنها ستائر كانت تحجب الرؤية، فأصبح الذين في خارجها يرون من بداخلها والعكس صحيح.

نظر حازم إلى كافة الجدران المدورة، فالغرفة بجدرانها وسقفها وأرضياتها عبارة عن كرة دائرية، رصت فيها الأشياء بتقدير وإحكام.

أخذ الممرض الآخر بيد حازم اليمنى ووضعها داخل جهاز، ثم ثبت في يده اليسرى مجسا أمسك بيده من باطنها وظاهرها كالكماشة.

دكتور أيمن: هل تشعر بأي ألم؟

- (رد مستسلما): لا.

- كما قلت لك، كن طبيعيا، لا تقلق، ولا تخف من شيء. ثم أشار بعينيه إلى أحد الأجهزة الذي أضاء وبدأ في العمل.

- قل لي انطباعك عن هذا المكان.

- لم أر المكان كله حتى أقول انطباعي عنه.

- أنت تجلس في غرفة خاصة بك، وتتجول مع نعيم في ساحات وحدائق المستشفى، أريد أن اعرف انطباعك عما رأيت.

- بلا شك، المكان غريب بالنسبة لي، شاهدت أمورا غريبة، أعيش وسط بيئة غريبة، أشعر بالغرابة في كل شيء! والأمر الأفظع أنني لا أكاد أعرف لماذا أنا هنا!

- ألم يقل لك نعيم بأنك الإنسان الأوحد هنا!

- هنا فقط، أم في العالم كله؟

- نحن العالم كله، فأنت الإنسان الوحيد بيننا.

- وكيف أتيت إلى هنا يا دكتور أيمن؟

رفع الدكتور أيمن حاجبيه، كأنه يرسل رسالة إلى حازم بأن يلتزم الإجابة على الأسئلة الموجهة له، ولا يسأل كثيرا: نحن هنا لإجراء اختبار على حالتك بصفة عامة، فلا داعي لطرح أسئلة لن تفيدك الإجابة عنها.

ثم واصل الدكتور أيمن حديثه: ما رأيك في شخصية نعيم؟

– أظنه شخص متفاهم نوعا ما، هو الربيوت الوحيد الذي استرحت له، وتجاذبت معه أطراف بعض الأحاديث. كما إنه متدين كما تعلم.

– وهل تدينه هذا هو الذي جعلك تسترح له؟

– ربما، أوربما أنه سمح لي بالحديث معه باستفاضة نوعا ما، فمن يسمح لي بالحديث، ويبادلني إياه، فإنه يؤمن بوجودي، ويعيرني أهمية، بغض النظر عن كونه متدينا أم لا.

– إذن، بوضوح فإن تدينه ليس العامل الأساسي لانجذابك له؟

– نحن البشر، تأخذنا العاطفة في نظرتنا للأمور، ولا شيء يستدعي العاطفة كالتدين! فلا أستطيع أن أنكر تلك العاطفة تجاه نعيم، لكن أؤكد مرة أخرى أن لو كان نعيم ملحدا مثلا، وقد سمح لي بتلك المساحة الحرة فيما بيننا، فبلا شك سأكون ميالا للحديث معه.

– أنت بذلك تسعى وراء رغباتك؟

– وما يمليه علي عقلي أيضاً، ليس أمامي سوى خيارات محدودة، إما أن أنعزل تماما في هذا المكان فلا أكلم أحداً، وقد أموت بذلك كمدا وقهرا، أو اقتنص فرصة التعرف على من يبادلني الحديث لمعرفة شيء جديد.

– رغبتك تقودك إلى تحقيق ما تريد، في حدود امكانياتك طبعا؟

- بالطبع، إن عديم الرغبة ليس جديرا بالحياة! (ينظر إلى الدكتور أيمن يتفحص ملابسه بعينه)، فالإنسان منا عبارة عن مواقف ورغبات وإمكانيات. فأنا لدي الرغبة في تحقيق شيء ما، لكن الموقف الذي أنا فيه وكذا امكانياتي لا تساعداني لتحقيق رغبتي، وهذا لا ينفي وجود الرغبة، لكن يحول دون تحققها.

- وفي هذا الحالة تستخدم عقلك في محاولة تحقيق رغباتك.

- نعم، فمن لديه رغبة جامحة، يعمل عقله وصولا لتحقيقها.

- حتى إن قادته للمجهول؟

- المجهول الذي تظن يا دكتور أنه لا داعي لي من البحث والوصول إليه، طالما أنا الإنسان الوحيد على هذا الكوكب، هو شيء مجهول في نظرك عندما تسقطه علي! لكن هذا المجهول هو عين الحقيقة عندما استنفد كل طاقتي للوصول إليه! أعي تماما أن وجودي هنا ليس عدما، إنما هو مرحلة لاستئناف ما سأكون عليه مستقبلا! وقد أتيت من عالم غدا حقا لا يحتمل، ولا أظن أن هناك ما هو أسوأ مما رأيت في عالمنا!

- جميل أنك تعي ذلك، ولكن.. هل راودتك محاولة الهرب من هذا المكان؟

- ضحك حازم متعاطيا مع كلام الدكتور أيمن وكأنه أراد أن يشير بيديه أو بأحدهما استغرابا، لكن يداه شبه مقيدتان: لقد راودتني أشياء كثيرة، أفكار، تخيلات، أحلام، هواجس. وبالطبع لو سنحت لي فرصة للهروب لما ترددت لحظة!

- لكن ساعتها ستعرض نفسك للخطر؟

- أي خطر أهون مما أنا فيه الآن، إنسان مجهول، لا يعرف من أين أتى، ولماذا أتى، وماذا ستكون عاقبته!؟ إن عدم معرفة الإنسان لوضعه هو ضرب

من الانتحار البطيء! خاصة عندما تقف كل الظروف عقبة حائلة بينه وبين تحقيق ما يصبو إليه. إنني أشعر بكابوس يجثم في أعماقي لا أستطيع تفسيره!

– هل تعتقد أنك مسجون هنا، أي أنك مقيد الحرية، وعليك قيود أخرى؟

بالطبع، سجن فظيع، ولعلمك هناك أنواع من الحرية لا تقيدها سجون، فبواعث الحرية تعمل في النفس كالأيائل النافرة التي تتطلع دوما للانطلاق، حتى وهي بساحات من الغابات لا حد لها!

– سكت الدكتور أيمن لبرهة وكأنه يحاول استشعار ما يدور بخلد حازم ثم أردف قائلا: تقصد حرية الاختلاء؟

نعم هذا ما قصدته تماما، فالخلوة تقود إلى الخطرة، فلا يعلم كائنٌ ما سر هذه الحظوة التي قربتك إلى محبوبك الأبدي رغم كل ما عانيته من آلام وعذاب بغية الوصول إليه!

– وماذا لو خرجت من هنا، لو أطلقنا سراحك مثلا، كما تظن أنك مسجون؟

– سأستكشف العالم من حولي، سأرى ماهية هذه الأرض الجديدة.

– كيف لك ذلك، وكل شيء هنا غير مسخر لخدمتك إلا بأمر هيئوي علوي.

– تقصد إنني بذلك كمن وطأت قدماه كوكب المريخ، وليس ثمة نفس سواه، ويظن إنه بإمكانه تعمير هذا الكوكب الخاوي على عروشه!

- ربما قد وافقت الصواب بتخمينك هذا، ولكن أخبرني عن توقعاتك هنا، ماذا الذي يمكن أن تؤول إليه الأمور بالنسبة لك؟

- الأمر بيد الله، والغيب لا يعلمه سواه، وظني أنكم تريدون مني معلومات عن أشياء ما، لا أعلمها الآن تحديداً، لكنكم تريدون أن تستفسروا عن بعض المعلومات، تماما كما يفعل من يقبضون على جاسوس فيسومونه سوء العذاب لاستخلاص أكبر قدر من المعلومات لديه.

- وهل عذبك أو آذاك أحد هنا؟

- ما أنا فيه هو العذاب بعينه! إن تقييد الحرية لا يولد سوى الكراهية، حتى وإن أبديت لك سرورا وارتياحا، فهو سرور المداهن، فكل عذاب ربما يغتفر، إلا عذاب تقييد الحرية، ووأد الإرادة!

- وتظن أيضا أننا بعد أن ننال منك مآربنا، سوف نتخلص منك بالقتل، أليس كذلك؟

- من الواضح أن تلك الأجهزة بيدي تقرأ ما أفكر فيه.

- نعم، بكل تأكيد، لقد كنت تفكر منذ قليل في كيفية التخلص مني ومن هذا المكان، وودت أن يكون معك سلاحا رشاشا فترمي به كل هؤلاء الربيوتات القذرة!

- عض حازم على شفتيه، وأومأ برأسه قليلا، ثم قال: هي مجرد خواطر، وما من قانون في العالم يأخذ بهذه الخواطر.

- لكن حذار فقد تؤخذ بهذه النوايا، فما يلح على الفكر ربما يفضحه اللسان، وتتبناه الإرادة، وتحققه الرغبة، تلك الرغبة التي اعترفت أنها مشتعلة

في ذاتك! لكني ما زلت أكرر لك أنك تخضع لاختبار بسيط جدا، لا يضرك ولا يفيدك في شيء، كل هؤلاء المنتظرين خارج الغرفة نراهم ويروننا، يتابعون بدقة كافة الأحداث الآن، لأن ذلك الاختبار هو بمثابة مقياس قبلي تبنى عليه العديد من الدراسات مستقبلا.

– وماذا سيكون مصيري بعد ذلك؟

– هذا السؤال ليس محورا من محاور الاختبار، عليك أن تجيب فقط عما يوجه إليك من أسئلة واستفسارات حتى لا نضيع الوقت سدى. على أية حال، تأكد أننا لن نضرك أبدا، فنحن مسالمون إلى أبعد حد تتخيله. عليك أيضا أن تتخلى عن تلك الوساوس والأفكار السيئة التي تدور بخلدك.

– أنت تريدني أن أصبح إنسانا جديدا بين عشية وضحاها! كيف يتسنى لي ذلك، ولو سلمت لك جدلاً فإن عملية التغيير تلك لابد أن تأخذ وقتاً ليس بقصير.

– إنك إذا اقتنعت بالتغيير، فما بعده من إجراءات سيكون بالأمر اليسير. لابد من حضور الرغبة، كما ذكرت أنت سابقا، أنسيت!

– كلا لم أنس، تفضل أكمل يا دكتور، كلامك محل اهتمام بالنسبة لي.

– عظيم، كنت سألتك عن توقعاتك بشأن مصيرك هنا، هل لديك توقعات أخرى غير الذي قلت؟

جال حازم ببصرة إلى سقف الغرفة الدائري، مع نظرة خاطفة على محتويات الغرفة من أجهزة ومعدات وريبوتات شاخصة أمامه، وقد جالت في باله فكرة،

سارع بالكلام عنها خشية أن تسبق تلك الأجهزة الممسكة بيده فتخبر بها قبل أن يفصح هو عنها.

– نعم بالتأكيد لدي توقعات أخرى، كأنكم تريدون أن تحولونني إلى ريبوت مثلكم.

ضحك الدكتور أيمن ضحكة آلية غريبة قائلا: وما الفائدة من عملية تحويلك إلى ريبوت، لدينا ما يكفينا من الريبوتات على مستوى العالم، لقد اكتظ العالم بالريبوتات، وملأت كل مكان، لديك توقعات أخرى، أليس كذلك.

– يخطر في بالي الآن كما يظهر لك، أنكم إذن تريدون أن تستنسخوا مني بشرا آخرين.

– ولما؟

– ربما تريدون أن تسخروا بني البشر المستنسخين في خدمتكم.

– ضحك نفس الضحكة المقززة مرة أخرى: وهل تظن أن البشر كان في استطاعتهم خدمة أنفسهم بأنفسهم، فضلا عن خدمة الآخرين من غيرهم. إن هؤلاء البشر البائدين كانوا أضعف من أن يقوم المرء منهم بعدة مهام في وقت واحد، هؤلاء إتكاليون بطريقة كبيرة. ولولا تسخير الكون لخدمتهم لأبيدوا من جيلهم الأول.

حملق حازم في الدكتور أيمن الذي شعر أنه ليس لديه توقعات أخرى، وأنه قد استنفد طاقته التفكيرية في هذا المجال.

– لن أطيل عليك يا حازم، هو فقط سؤال أخير، بعدما علمت أنك الإنسان الوحيد على كوكبنا هذا، هل خروجك من هذا المستشفى مفيد لك، أم تقضي بقية عمرك هنا؟

- الأمرسيان، أتعتقد أنني سأجد ملائكة خارج هذا المكان، أو أنني سأتخذ صومعة أتعبد فيها وحدي، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا!

- لقد كنت تطوق إلى الهرب منذ لحظات! على أية حال، ماذا ستفعل إذاً؟

- نظر إليه نظرة حادة هذه المرة: ماذا سأفعل؟ ثم أبان عن ابتسامة ساخرة تبعها بتحريك لسانه على شفتيه ملطفا إياها بريقه: إنني إنسان مقيد الحرية أيها الربيوت، أعيش بين عالم آلي بلا مشاعر ولا عواطف، كالجدران الصماء، أنى لمقيد الحرية أن يختار، أني لمكبل اليدين هكذا أن تشتعل إرادته وينقدح ذهنه، فيوحي عقله إلى أعضاءه أن تفعل، كيف تفعل إذا وهي مكبلة؟! لقد أصحبت الآن رهن قراركم أنتم، إن شئتم أطلقتم سراحي وإن شئتم أبقيتموني في سجني هذا! أنا لا أدري مدى المصداقية التي تتمتع بها في كلامك معي، لكني أقول لك قولا واحدا، إن كنت حقا حريصا على استمرار عالمكم الربيوتي هذا، فلا ترتكبون جرائم الظالمين من البشر، لا تعيشون تلك التناقضات التي سرت بينهم كأمر اعتيادي مألوف، امنحوا الحرية بسلام وأمان، وإلا انتزعت منكم بقوة النفس المجردة من كل سلاح سوى سلاح الكرامة!

- (أنصت إليه بتمعن ثم قال): وهل أهلك البشر غير الظلم والتعالي! دعنا في حديثنا عنك، فأنت تناقض نفسك الآن، فلست مسجونا، ولو أردت الخروج لأخرجناك، لكن كما ذكرت أنت ماذا ستفعل إذا خرجت، وواجهت العالم الربيوتي خارج هذا المكان؟

- لا أدري ، حقا لا أدري، لقد وصلت لمرحلة الجبر، أدركت الآن أنني مجبر مسير، لا أعرف كيف أحدد مصيري، غالبا ما يكون عدم اتخاذ قرار هو عين الصواب، وبخاصة في الظروف المقيدة.

- على العموم يا سيد حازم لقد أنهينا مهمة هذا الاختبار، لقد رآك كل المتابعين في العالم، سيحدث هذه الاختبار نقلة نوعية كبيرة في عالم البحث العلمي الريبوتي حول ماهية ظهورك وتواجدك بيننا الآن.

أشار الدكتور أيمن إلى مساعديه كي يحرروا حازم من قيوده تلك، ثم دخل نعيم، محاولا مساعدته في القيام وسار به وسط تلك الجموع المتابعة حتى أدخله غرفته بسلام!

الفصل الثالث

ما إن دخلا ، حازم ونعيم، الغرفة حتى طلب حازم منه أن يأتيه بطعام وشراب، فقد أحس فعلا بالجوع والإعياء، فخرج نعيم قاصدا المطعم، ولم يمر وقت طويل حتى دلفت إليه مائدة الطعام يتقدمها ربيوتا أنثى ممشوق القوام غاية في الجمال، أنسى مظهره حازم أن يدعي الإجهاد ويتداعى إلى الكسل!

– (قالت بابتسامة ولطافة المضيفات الجويات): مرحبا .. أنا سارة .. تسلمت مهمتي حديثا للقيام برعايتك.

– أهلا وسهلا .. على الرحب والسعة. لم يخبرني نعيم بذلك!

– نعيم.. كان الله في عونه حاليا.

– ماذا به، لاحظت أنه مشغول بشيء، لم يتكلم معي منذ أن أخذني من غرفة الاختبار، حتى عندما طلبت منه الطعام لم يرد علي، وتركني وخرج. ماذا به؟

– لا عليك يا سيدي.. لقد اختفت العصا.. ولا أحد يدري أين هي الآن.

– أعلم ذلك، ولكن كيف يختفي شيء في ظل هذه الآلات التكنولوجيا التي تسمع دبيب كل شيء وترى كل شيء؟

نظرت إليه بإيحاءات استغراب ظهرت جلية على وجهها الضحوك، كأنها تتعجب هي الأخرى، ثم قربت له المائدة، التي كانت تتزين بأصناف متعددة من مشتهيات الطعام من لحوم وخضروات وفواكه!

– علي أن أتركك الآن سيدي، وعندما تنتهي من الأكل، اضغط على هذا الزر فقط ستجدني أمامك.

نظر حازم إلى أيقونة قد ظهرت حديثا على سطح المائدة لم تكن عليها من قبل، مخاطبا سارة: تمام!

في صباح اليوم التالي، سمع حازم طرقا بسيطا على الباب فاستيقظ، ثم فتح الباب، بهدوء شديد.

– صباح الخير.. قالتها سارة بابتسامة رقيقة وحماسة تعكس نشاطها ومرحها أيضاً.

– صباح الخير.. يا مرحبا. كيف حالك يا سارة.

– أنا بخير، شكرا لك سيدي. الحمام جاهز لو أردت أن تقوم الآن، ثم بعد ذلك أحضر لك طعام الإفطار.

اضطرب حازم قليلا، فقد تذكر أن العصا كانت تذهب معه إلى الحمام، فسأل سارة سريعا عن نعيم، في محاولة منه لمعرفة من سيذهب معه إلى الحمام.

– لم أره اليوم سيدي.. لكنه بكل تأكيد في موقعه، هل تريد مني أن أخبره بشيء؟

– نعم، أريد أن أراه.

– حسناً.. بمجرد أن تذهب إلى الحمام وتعود ستجده بانتظارك.

– أذهب بمفردي (قالها بتردد).

– ألا تعرف طريق الحمام.

– لا.. لا.. أعرفه جيداً .. شكرا لك..

ثم انتفض قائما ومهرولا نحو الحمام، وعند انتصاف الطريق التفت وراءه ليطمئن أنها لا تتبعه، فلم يجد أحدا!

عاد أدراجه سريعا إلى الغرفة، فوجد نعيم جالسا على كرسي جانبي، فناداه فرحا: نعيم أين أنت، علمت أن عصاك قد سرقت منك، فلم يعد الأمر مجرد أنها اختفت فقط كما تدعي (قالها بنوع من السخرية اللطيفة).

- سرقت! وما أدراك أنها سرقت؟

- يا رجل! (تذكر أنه ليس برجل)، فبادر سريعا: أنا أمزح معك يا نعيم.

- لقد سألتُ عنك سارة، ماذا حدث بالضبط؟

- لا عليك، لديك اليوم موعدا مع الدكتورة لبنى، سنذهب سويا بعد تناولك للإفطار.

- هل أنت غضبان مني يا نعيم، أم قلق بشأن العصا.

- يا أخي .. قلت لك لا عليك، لا عليك! ثم تركه وذهب!

لم يستطع حازم تفسير غضب نعيم منه، لكنه التمس له العذر، فبكل تأكيد هو متأثر بضياع تلك العصا، ولكن ما المشكلة في ضياعها أو هروبها أو حتى سرقتها! (يكلم نفسه)، هل هي بهذه القيمة النفيسة التي تجعل هذا الريبوت حزينا على فقدها! من المؤكد أنهم يستطيعون أن يصنعوا غيرها بكل سهولة.

قطعت سارة وتيرة التفكير تلك، فدخلت أمام المائدة بكل رشاقة، تماما مثل النادل في مطعم فخم وثير.

- تفضل سيدي.. بالهناء والشفاء.

- شكرا سارة.. ثم بادرها سريعا بكلام ينم عن كرم: سارة هل تأكلين؟

- سارة بابتسامتها الرقيقة المعهودة: أحيانا سيدي.

- حقاً، تصوري لأول مرة أسأل أحدكم هذا السؤال! جميل .. جميل جدا.. اجلسي، تفضلي معي..

- لا .. شكرا لك سيدي.

- لابد أن تأكلي.. أريد أن أراك وأنت تأكلين. (ثم ناولها قطعة خبز محشوة بالجبن الرومي)، تناولتها سارة من يده برقة، وأكلت منها قطعة صغيرة، مضغتها على استحياء، كفتاة تأكل مع خطيبها للمرة الأولى. كل ذلك، ونظر حازم لم يغادر وجهها، مذهولا كأنه اكتشف ما لم يكتشفه الآخرون من قبل.

إنه في الحقيقة اكتشاف، كيف لهذا الربيوت المعدني يأكل ويشرب! وهنا تذكر فحوى كلام نعيم، أن فيهم من يتزوج أيضاً. ألهذه الدرجة وصل التقدم التكنولوجي بهؤلاء الربيوتات التي صنعت صماء، لا ترى ولا تسمع سوى بآلات وبرمجيات، إنها الآن تأكل وتشرب، وتتناسل!

ثم مد يده بكوب الماء إلى سارة، فتناولته وشربت بعضا منه. وقد بدا على وجهها بالفعل من ملامح الحياء وحمرة الخجل ما جعل حازم يكف عن تطلعاته تلك!

- الحمد لله، طعام طيب يا سارة، أيضا طعام العشاء بالأمس كان في غاية الروعة، تسلمي يا سارة، أأنت من تعدينه!

- للأسف يا سيدي، أنا أحضره فقط، فريق العمل في المطبخ هم من يعدونه!

- إنهم طباخون مهرة!

- نعم يا سيدي، أتريد خدمة أخرى؟

- شكرا لك يا سارة، أشكرك بحرارة.

من الواضح أنني سأتحول إلى ريبوت، قالها وهو يجوب أركان الغرفة الالكترونية التي يقطنها،كأنه يبحث عن شباك أو شرفة يبعث من خلالها مكنونات فؤاده، ونبرات ارتياحه.

- هيا بنا أخي الكريم، حان الآن موعد الدكتورة لبنى.

- قطع عليه صوت نعيم تأملاته تلك: أهلا يا نعيم، (باقتضاب) أنا جاهز.

حيا الاثنان الدكتورة لبنى التي ردت عليهم بمثلها، وشكرت نعيم على مهمته، موحية له بالانصراف.

جلس حازم على كرسي أمام طاولة مكتب الدكتورة لبنى، في غرفة اليكترونية لا تختلف كثيرا في تصميمها الكروي عن الغرفة التي يقبع فيها، كل جدرانها وسقفها كأنه مصنوع من البلور المصقول الذي يتخلله خطوط طولية متباعدة بنفس درجة لونه الفضي الغامق إلا أنه يمكن تمييز تلك الخطوط بسهولة، بها أيضا آلات ومعدات تكنولوجيا بعضها كشاشات التلفاز، وبعضها كأجهزة رسم القلب في معاهد وعيادات القلب، وبعضها مثل الطابعات ثلاثية الأبعاد التي تصنع أشكالا مجسمة، وغيرها من الآلات.

- حازم .. لابد أن تعرف أولا حقيقة وضعك هنا، وسيكون ذلك المرحلة الأولى من مهمتي تجاهك.

- وهل هناك مراحل أخرى!؟

- نعم، مهمتي معك ستكون على ثلاثة مراحل.

أشارت الدكتورة لبنى بيدها في الفضاء من حولهم، فبدت أمامها لوحة ذات خلفية شبه مرئية، أخذت تلمس بأصابعها عليها، فتنسدل منها عدة قوائم الكترونية، تزيح منها ما لا ترغب فيه، وتفتح منها ما تشاء، حتى إذا ما انتهت، تزيحها جانبا فتختفي تلك الشاشة تماما!

- معذرة يا حازم.

- أبدا، أنا جاهز يا دكتورة، هذه المرحلة ستحل لي اللغز الكبير بالنسبة لي، سأكون متعاوناً معك إلى أبعد حد!

- لا تعتقد أنك تخضع لاختبار مثل اختبار الأمس، أبدا، نحن هنا لنتعاون سويا للوصول إلى حقيقة ما.

- أنت طبيبة نفسية، أليس كذلك يا دكتورة، كيف إذاً أكون غير خاضع لاختبار أو علاجات نفسية بالأحرى، وربما تطبقون علي بعض المقاييس النفسية لقياس شخصيتي من جانب ما.

- الأمر ليس كذلك، أتذكر حوارات الدكتور أيمن معك؟

- لم تكن حوارات، كانت أسئلة، وعلي فقط الإجابة، لم يعطني فرصا كافية للتعبير عن رغباتي، أو للإجابة عن استفساراتي. لقد رأيتِ بنفسك الحدث أمامك، وسمعتِ كل ما دار فيه، لقد كنتُ مقيد اليدين، مقيد حتى الفكر يا دكتورة.

- الأمر سيكون مختلف تماما يا حازم، ألم تلاحظ أن أسئلته كلها كانت مستقبلية؟

- ماذا تقصدين؟

- كانت مهمته معك مهمة علمية بحتة، لإجراء اختبار قياسي محكم ترجع إليه الأبحاث والدراسات فيما بعد، وهم حاليا يطورون هذا المقياس بعد تحليله وإجراء بعض التجارب الأخرى عليه.

- وهل مهمتك الآن ليست علمية؟

– نظرت إليه بارتياح محاولة إقناعه: ليست علمية بحتة. مهمة علمية، لكنها ليست علمية بحتة. لقد اتفقنا أننا هنا للوصول إلى حقيقة ما. أليس كذلك.

– بلي، أتفهم ذلك، وأفهم أيضا أننا أمام مشكلة ما.

– نعم، صحيح.

– وحسب دراساتي الجامعية، أتذكر أن هناك أسلوب لحل المشكلات، يبدأ بتحديد المشكلة وتحليلها، وإيجاد البدائل والحلول لها، ومن ثم اتخاذ القرارات.

– نظرت إليه معجبة بكلامه: نعم، كلامك صحيح تماما. في أي كلية درست ذلك؟

– رد بحماس: في كلية التجارة.

– وأنا درسته أيضا، لكنكم درستموه من الناحية الإدارية، أما أنا فقد درسته من الناحية النفسية والطبية. وهنا ليس شرطا أن يكون لدى الكل أسلوب لحل المشكلات أو أسلوب في التفكير، فمعظم ما ترى هنا عبارة عن آلات صماء جوفاء، إلا ما أريد لها أن تكون بخلاف ذلك!

– بدأ يتبادر إلى ذهني فهم كلامك عن استفسارات الدكتور أيمن المستقبلية، أفهم أنا حوارنا سيدور حول الماضي؟

– أنت ذكي جدا، نعم محور حديثنا سيتناول الماضي، وأيضا محاولة الإجابة عن كل ما تستفسر عنه ويدور بخلدك.

- يدور بخلدي؟ (ثم سكت لحظة) وهل ستضعين بيدي تلك الأشياء التي تقرأ ما يدور بخلدي؟

- ضحكت برقة الطبيبات: كلا.. كلا.. أقصد سأحاول مساعدتك في الإجابة عن أسئلتك، هذا كل ما قصدته.

- أنا طوع أمرك، لكن معذرة، هل كل لقاءاتنا ستتم في هذا المكان، أم أن هناك اختيارات أخرى؟ (قالها بابتسامة الماكر).

- لا تقلق، سيكون هناك اختيارات أخرى.

بدت علامات الرضا والأريحية بادية على محياه بشدة، لقد ارتسمت على وجهه ابتسامات تلقائية، شعر معها بنشوة تحقيق شيئا هاما، أو كالذي اجتاز موقفا صعبا بنجاح! كيف لا! وقد بدأت بعض غشاوات الجهل بما يدور حوله تنقشع شيئا فشيئا، إننا في هذه الحياة نبحث عن متراكمات قد لا يكون من ورائها طائل! حتى إذا هيأنا الذهن ليفهم أدركنا أن الكثير مما نبحث عنه غير مفيد حقا! هي عملية التمييز إذاً! فإن لم يقد العلم إلى التمييز، أصبح علماً سلبياً، فكيف ندرك كنه الأشياء إلا بالتمييز!

لقد كان لقاءً ماتعاً حقاً، انتقل معه حازم من مرحلة الجهل بالشيء إلى مرحلة الانفتاح الفكري، والأريحية النفسية. فها هو ذا يغالب كوابيسه وأحلامه المزعجة، لقد بدت بعض الأشياء تلوح أمامه كحقائق، لم يعد الأمر أضغاث أحلام كما توهم!

لم يدم هذا اللقاء طويلاً فقد كان بمثابة لقاء تعارف لإزالة التوتر النفسي لدى حازم الذي عاد إلى غرفته بصحبة سارة منتشيا سعيدا، طالباً منها طلبين اثنين، كوبا من الشاي، مع ماء، وأن ترسل له نعيم.

دخل نعيم إلى غرفة حازم الذي جلس على كرسي محاذي لعربة الشاي، وأمامه برادا من الشاي، بجواره زجاجة ماء معدنية وكوبين، أحدهما فارغ والآخر به شايا.

حازم مرحبا به بحرارة: استرح يا نعيم، كيف حالك الآن، أريد أن اطمئن عليك فعلاً.

- أنا بخير أخي الكريم.
- ومالك مقتضب الوجه! ألم تجدوا تلك العصا بعد؟
- للأسف لم نجدها.
- هل تظن أنها سرقت يا نعيم؟
- نظر إليه نعيم متفحصا وجهه: بكل تأكيد، تمت سرقتها، لكن كيف، لا أدري.
- أراك ترتاب في أحد ما؟
- لا .. أنا لا أشك في أحد بعينه، أحاول فقط معرفة المستفيد من اختفائها.
- وهل تظن أنني مستفيد من ذلك يا نعيم.
- الله اعلم، ليس لدي ردا قاطعا على كلامك، الله أعلم بكل شيء.
- نعم.. الله أعلم.
- لكن! هل يصيبك أذى جراء اختفائها أو سرقتها كما تقول؟
- كيف لا يكون ذلك، بكل تأكيد، فأنا المسئول عنها هنا.

– هي عهدة لديك، (ثم سكت مليا)، ألا يوجد بديلا لها، تشتري عصا أخرى مثلا.

– هذه مصنوعات لا تشترى، إننا في عالمنا الريبوتي، كما في العالم الإنساني من قبل، لا يوجد ريبوتا يشبه الآخر، وإن بدا لك ذلك، كلنا هنا مختلفون من حيث اعتبارات كثيرة.

– اختلافات! مثل ماذا؟

– نعم اختلافات في الذاكرة المعلوماتية، اختلافات في التصميم الجسمي، اختلافات في النوع وفي المشاعر والانفعالات أحيانا.

– جميل! وكل ذلك تصنعونه أنتم، ألستم من يصنع التصميم الجسمي، ويتحكم في سعة الذاكرة.

– المصنعون المطورون هم من يفعلون ذلك بناء على أوامر معلوماتية عليا.

– واضح أن الأمر أكبر من تصوري فعلا، لكن من هم المصنعون المطورون هؤلاء؟

– إنهم يتلقون أوامر معلوماتية عليا لتصنيع ما يرد إليهم من طلبات حسب مواصفات ومعايير معينة.

– لكن لم تجبني، من هم في الأساس (وقبل أن يكمل استفساره تذكر قول الدكتورة لبنى أن معظم هذه الريبوتات ما هي إلا آلات صماء جوفاء، فربما نعيم ليست لديه بالفعل الإجابة الكافية لتلك التساؤلات). على أية حال يا نعيم ادع الله في صلاتك أن يردها إليك عاجلا.

- أفعل.

- صحيح يا نعيم، ما رأيك في الدكتورة لبنى، إنها ربيوت بسيط جدا، غير متكلف ولا متهور.

- هل ارتحت لها.

- فكر سريعا مشخصا بصره إلى سقف الغرفة الدائري: شعرت بالراحة معها بالفعل، ربما يكون من طبيعة عملها أن تشعرني بذلك، بحيث تكسر الحاجز النفسي بيني وبينها، فهي طبيبة نفسية.

- نعم، هي مسئولة وحدة المختبرات النفسية والعقلية هنا.

- وحدة المختبرات النفسية والعقلية، (أطرق بذهنه قليلا)، لا داعي لارهاقك باستفسارات كثيرة، أنا فقط كنت أسألك عن شخصيتها من الناحية الإنسانية، أقصد من ناحية المشاعر، والعواطف، والأحاسيس وغيرها، تعرف شيء عن ذلك.

- نظر إليه مواجها إياه بتلطف كل ما أعرفه أنها متزوجة.

- قال باستغراب شديد: متزوجة، (ثم وضع كلتا يداه على وجهه): نعم أنكم فعلا تتزوجون. وبالطبع لديها أولاد؟

- على ما أظن أنها لم تطلب تصنيع أولاد.

- لم تطلب تصنيع أولاد!! أنتم تصنعون الأولاد هنا! (ثم قال في نفسه): ما فائدة الزواج إذاً؟ (ثم قال بصوت مسموع كأنه يرد على نفسه وهو في تلك الدهشة الشديدة): لا أدري.

- ماذا! لا تدري ماذا؟

- لا عليك.

نظر حازم إلى العربة بتفحص فوجد زرا مثل الزر الذي على المائدة، فضغطه، ولم يمكث كثيرا حتى جاءته سارة تمشى برشاقة النادل تستأذن للدخول. وبمجرد دخولها جاءت إشارة إلى نعيم بأن عليه التوجه إلى قسم الاستدعاءات الفورية حالا، فخرج المسكين مهرولا لا يلوي على شيء!

- مسكين نعيم هذا. إنه حقا مسكين!

- هزت سارة رأسها مبتسمة ولم تتفوه بشيء، ثم أمسكت بالعربة كي تديرها لتخرج، فأمسك حازم بيدها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتلمس فيها يد ربيوت أنثى، لم يعمل الخجل عمله في تلك اللحظة، لم تقاوم تلك الآلة الصماء الجوفاء يده، بل استسلمت في دعة، كأن كل الأفكار المبرمجة بداخلها قد توقفت تماما، أو ربما هي تنتظر رفع يده عن يدها، فالأمر لا يعدو لحظات ليس أكثر. شعر حازم ببرودة تلك اليد العاجية الصماء المكسوة بطبقة مطاطية لينة، وقبل أن تسول له نفسه بالاستطراد في تخيلات أخرى ربما تتبعها أفعال لا إرادية، رفع يده سريعاً قائلا بتلعثم: أمكثي قليلا يا سارة، أريد أن أدردش معك.

- جلست سارة على حافة السرير مادة رجليها إلى الأسفل، في وضعية أشبه ما تكون بوضعية مذيعات نشرة الأخبار في محطة CNN، مستقبلة حازم بابتسامة جميلة في انتظار ما يخرجه من جعبته.

- سارة، هل أنت متزوجة؟

– تغيرت تلك الابتسامة إلى علامة استفهام باعدت بين أسفار وجهها، فكأنما حاجبها باليمن، وفهما يلامس أرض الشام!: لا، لست متزوجة.

– جميل، أقصد.. أأأ (لا يسعفه التلعثم عن القول) كنت استفسر فقط كعادتي أنا هنا لأستفسر عن كل شيء.

– قالت بشبه ابتسامة: ولن يجيبك أحد عن كل شيء.

– بالطبع، لم أجد إلى الآن من يحل لي لغز وجودي هنا، إن كل استفساراتي إما أن تؤجل إجابتها، أو لستم بالفعل لديكم إجابة عنها.

– ربما، لكن الشيء الوحيد المقنع حاليا أنك إنسان تعيش في عالم آخر.

– في عالم آخر، جميل هذا الكلام يا سارة، لكن عالم آخر، أو العالم الآخر؟ أجيبي بالله عليك!

– أليس عالم آخر هو نفسه العالم الآخر، ما الفرق بين الكلمتين؟

– لو درستِ علوم اللغة العربية لوجدتِ فروقاً هائلة، لكنك، مسكينة يا سارة، لم تدرسي اللغة جيدا! (قالها بنوع من المداعبة).

– سكتت لبرهة ثم قالت مبتسمة: علوم اللغة العربية: صرف ونحو وبلاغة و...

– قاطعها حازم: هذه من استحضارات الذاكرة لديك! أليس كذلك؟

– نعم، أنا استدعي المعلومات المتعلقة بعلوم اللغة العربية، وعلى استعداد لسرد كل ما تم تخزينه لدي عنها.

– وماذا تعرفين عن القرآن الكريم؟

- القرآن الكريم هو الكتاب الرئيسي في الإسلام، يُعَظِّمُه المسلمون ويؤمنون بأنّه كلام الله المنزّل على نبيه محمد للبيان والإعجاز.

- قاطعها مرة أخرى: هذا كلام موسوعات مثل موسوعة ويكيبديا، تم تزويد ذاكرتك المحدودة بها، لكن لو قلت لك ما المعاني الجمالية في بيت شعر معين لما استطعت إجابة، كذلك لو طلبت منك سرد آيات من القرآن الكريم لاستطعت ذلك، لكن بدون معايشة أو فهم حقيقي، يختلج في فؤادك، ويلامس مشاعرك!

- لكنك لم تقل لي الفرق بين عالم آخر والعالم الآخر؟

- عالم آخر مثل الذي أتيت أنا منه، العالم الإنساني، فأنا بالنسبة لكم من عالم آخر، وأنتم أيضا بالنسبة لي من عالم آخر، تماما مثل مستشفى آخر على كوكبكم هذا بخلاف هذا المستشفى. أما العالم الآخر فهو الآخرة. هل تعرفين الآخرة أو اليوم الآخر؟

- نعم...

- (قاطعها قبل أن تكمل): ليس بالتعريف الموسوعي المحشو به ذاكرتكم حشوا مجردا من أية تفاعل قلبي، أو تصورات وتخيلات يؤسسها الإيمان به.

- هذا كلام عميق، لست مؤهلة لاستيعابه.

- أحسنت لست فعلا مؤهلة لاستيعابه، فالعقول ما لم تتحرر من ذلك الحشو المعلوماتي بدون إعمال فهم فهي أشبه بتلك الربيوتات الصماء. وبالطبع فأنت لست ربيوتا أصما.

- علي الانصراف الآن، ليس مسموح لي التحدث طويلا.

ذهب نعيم إلى قسم الاستدعاءات الفورية على وجل، ذلك القسم الذي يغرس في نفسية المتهم أنواعا عديدة من القلق والحيرة والخوف، كأنما دهنت جدرانه برائحة الظلم التي تزكم النفوس، وعلقت على جدرانه صورا عديدة كأنواع من التهم الجاهزة بدون وجه حق.

– نعيم.. أنت متهم بتهريب تلك العصا اللعينة، أين أخفيتها؟

نظرنعيم إلى هذا المحقق المحاط بثلاثة من مساعديه كأنهم أعجازنخل خاوية إلا من الاستعداد للتعذيب والبطش.

– أنا حقا لا أعرف عنها شيئاً.

تناول هذا المحقق شيئا شبيه بالغليون، فأوقد فيه نارا، وأخذ يدخنه بسخافة ولا مبالاة: ولكنك أنت المسئول أمامي عنها، لا بد أن تعترف، تعترف وإلا!

– لا أدري كيف أثبت لكم أنني لا أعرف كيف اختفت، هل سرقت أم ...

– أم ماذا؟

– ربما تم التخلص منها دون أن أدري.

– أنت إذا تتهم أحداً؟

– لا أتهم أحداً، هي تفسيراتي، أحاول أن أفسر الذي حدث.

– لكنك تقصد أن جهة ما ربما أعدمتها! أليس كذلك؟

– لا أعلم، وليس هذا قصدي.

– قال المحقق بنبرة حادة فيها غلظة وتشفي: بل تقصد ذلك. أنت تحاول أن تعمي على جرائمك.

- جرائمي؟ أنا مسالم جدا طيلة وجودي هنا، منذ أن كنت ريبوتا مسخرا موجها بإرادة الآخرين، محشوا بكم هائل من المعلومات في ذاكرته الكبيرة، حتى تم منحي برمجية التشفير التبادلي، التي جعلتني أفكر بذكاء، وغرست فيَّ العاطفة والمشاعر والاختيار.

- وهذا الاختيار هو الذي قادك إلى الطمع. (ثم نظر إلى مساعديه من حوله محاولا مشاركة الرأي معهم): أليس نعيم طماع أيها الرفاق؟

- أحدهم: بلي، نرى الطمع في عينيه، ولن يثنيه شيء عن الطمع سوى باقتلاع بؤبؤه.

- المحقق بنبرة هادئة ماكرة: ليس لهذه الدرجة، هناك طرق أخرى لجعله مسالما ومتعاونا أكثر.

- مساعد آخر: نسومه إذاً سوء العذاب حتى يقر ويعترف.

- نعيم: اعترف بشيء لم ارتكبه! أقسم لكم أنني لا أعرف شيئا عن اختفاء تلك العصا.

- المساعد الثالث: سألك حضرة المحقق هل تتهم أحدا.

- لا أتهم أحدا أبدا، لو كان بي بادرة شك لقلت سريعا من أتهم.

- المحقق: أنت بذلك تضطرنا لأساليب أكثر قسوة يا نعيم. من الواضح أن الحديث الودي معك لا يفيد.

أشار المحقق إلى مساعديه بأن يأخذونه إلى غرفة السجن، فخرجوا به إلى هناك، ورموه في تلك الغرفة الضيقة، وقد قارب شحن بطاريته على النفاذ.

فنادى على أحدهم بسرعة: لقد قاربت بطاريتي على النفاذ، أرجو أخذ جرعة من الشحن.

التفت إليه أحدهم وسحبه إلى ركن به مقبس كهربائي، فأدخل فيه نعيم سبابته لبضع دقائق حتى امتلأت بطاريته، فأخذه مرة أخرى وألقاه في زنزانته الانفرادية.

في صبيحة اليوم التالي، دقت سارة بلطف باب غرفة حازم، فأذن لها بالدخول وقد أحضرت له إفطارا شهيا، وقبل أن تنصرف ذكرته بموعده مع الدكتورة لبنى، وأنه لا داعي بأن تذهب معه، فقد عرف مكتب الدكتورة لبنى بوضوح.

- لكن كيف لي أن أفتح باب الغرفة يا سارة. حتى الآن لم يخبرني أحد بذلك.

- نعم، عندك حق، لقد سمح لك بفتحه وغلقه، لكني نسيت أن أحضر لك الأسورة. سأحضرها لك حالا.

ابتسم حازم وهو يتناول الطعام قائلا: حتى الريبوتات تنسى!

دخلت سارة مسرعة بعد أن أحضرت الأسورة، فأمسكت بمعصم حازم بكفة يدها، وعينيه في عينيها، شاعرا بتلك البرودة التي شعر بها قبل ذلك عندما أمسك هو بيدها، ثم ألبسته تلك الأسورة المعدنية بإحكام، مخبرة إياه بأنه بتلك الأسورة تفتح له الأبواب المسموح له فتحها فقط.

- شكرا لك يا سارة.

وجد حازم باب مكتب الدكتورة لبنى مفتوحا، فطرقه طرقا خفيفا، فأذنت له بالدخول.

- السلام عليكم دكتورة لبنى.

- وعليكم السلام ورحمة الله، أهلا وسهلا. كيف حالك اليوم.

- على ما يرام. هناك تحسن كبير في الحالة المزاجية، ولله الحمد.

- جميل، هذا ما نرجوه.

- قبل أن نبدأ يا دكتورة، هلا سمحت لي بالسؤال عن وضع نعيم الآن؟

- علمت أنه مسجون في قسم الاستدعاءات الفورية.

- مسجون! (نظر باستغراب شديد) وهل يوجد لديكم سجون يا دكتورة؟

- قالت بابتسامة: نعم، ولم لا؟

- أطبق شفتاه: كنت أظن أنكم لا ترتكبون جرائم حتى يكون هناك سجون! لقد نصحت الدكتور أيمن أن يبتعد عالم الريبوتات عن ما وقع في البشر من ظلم وافتراءات، لكن من الواضح أن الظلم ديمومة لا تخمد! ثم نظر إليها وقال: لكن نعيم ذهب إليهم بمحض إرادته.

- نعم.. لابد أن يذهب.

- كان بإمكانه الهرب إذاً.

- لا يستطيع إلاَّ أن يذهب بمحض إرادته، لو لم يذهب لتم توجيهه آليا للذهاب. على أية حال، ليس هذا موضوعنا.

- ذكرت لي أن حواراتنا ستدور حول الماضي، ولا أدري أي ماضي تقصدين، كل ما أريد فهمه هو لماذا أنا هنا الآن، كيف جئت إلى هنا، وأنتم تقولون أنني الإنسان الوحيد على هذا الكوكب!

قامت الدكتورة لبنى من جلستها تدور حول نافورة مياه صغيرة في مكتبها كأنها تجمع أفكارا للرد على استفسارات حازم، فأتبعها حازم واقفاً متأهباً سماع شيءٍ جديد.

- حتى الآن يا حازم أنا لا أعرف على وجه التحديد كيف أتيت إلى هنا، ربما أنت نفسك تساعدنا في الرد على هذا السؤال الكبير!

- كيف ذلك، وأنا لا أذكر أي شيء بعد هذا الذي حدث وأنا في طريقي إلى سكني؟ (شرد بعقله قليلا ثم قال وقد ارتسمت على وجه معالم استفسارات كثيرة): ثم إن السؤال الكبير الذي يجب طرحه ليس كما ذكرتِ، السؤال الأهم إذاً هو كيف أكون أنا الإنسان الوحيد على هذا الكوكب؟ أنا لا أصدق ذلك أبدا، ربما هو حلم فعلاً!

- ربما يطول شرح هذا الأمر، لكنه حقيقة مؤكدة لي حتى الآن.

- اشرحي لي إذاً، لا بد أن أفهم كل شيء .. (ثم قال بمكر) حتى أساعدكم!

- رفعت نظرها إليه تخبره عيناها أنها تفهم مساوماته جيدا: سمعت بالطبع عن الربيوت صوفيا؟

- نعم بكل تأكيد، لقد حصلت على جواز سفر سعودي مؤخرا!

- مؤخرا! (تبتسم بتعجب) هذا حدث قديم جدا، معلوماتك قديمة جدا أيها الإنسان.

- هذا ما أتذكره، ربما لديكم أحداث أخرى.

- كانت صوفيا في نظرك نوع متطور جدا من الربيوتات، أليس كذلك؟

- بلى، لقد رأيتهم يستضيفونها في بعض البرامج التلفزيونية، رأيتها تتحدث بلباقة، وكانت تعبيرات وجهها موحية جدا!

- قبل جيل صوفيا كانت الربيوتات عبارة عن خدم، (أعادتها بحدة) خدم بالمعنى الحرفي للكلمة؟

- خدم لمن؟

- خدم مسخرة لصانعها، تعمل بتوجيهاته، ووفق رغبته، في المعامل وفي ساحات الحروب، وفي المطافئ وفي الفضاء، وفي كل الأعمال الخطرة التي كان الإنسان يخشى ولوجها.

- تقصدين أن الإنسان سخرها لخدمته؟

- بكل تأكيد، سخرها في كل الأعمال المشروعة وغير المشروعة.

- لا أريد أن أجادلك يا دكتورة، لكني أفهم أن هذه الربيوتات هي من اختراع الإنسان، والإنسان يخترع ويصنع ما يجعل حياته أسهل وأقل تعقيدا! ما الضرر في ذلك؟

- وأحيانا يخترع ما يؤذيه ويهلكه، قد يكون سقف الطموح العالي، هو بداية الانزلاق نحو الهاوية.

- على أية حال، لقد كانت صوفيا محط أنظار العالم، وحديث الساعة وقتئذ. فهي إنسان آلي أشبه تماما بالبشر من غيره من الربيوتات.

- غيره من الربيوتات كما قلت لك كانت مسخرة فقط لخدمة الإنسان، لدرجة أن الإنسان اخترع ربيوتاً يلبي له معظم رغباته المتاحة، وآخر يقوم بمهامه نيابة عنه، إن احتاج كوبا من الماء أو أراد فتح أو إغلاق باب الشقة أو إعداد كوبا من الشاي، فما عليه سوى أن يأمره بفعل ما هو مبرمج على فعله فيقوم الربيوت بإنجاز المهمة على أكمل وجه.

- لكن هناك بعض المهام يصعب على الربيوت فعلها! فالإنسان أنابه فيما يقدر أن يقوم به بنفسه كالأعمال اليومية البسيطة، واستغله أيضا كما ذكرت يا دكتورة في الأعمال الخطرة حفاظا على الروح الإنسانية. فتلك

الربيوتات في الأخير مجرد آلات مصنعة، ولم تصدر بعد تشريعات تجرم إصابتها بأذى أو هلاكها. على أية حال هذا قبل جيل صوفيا، ماذا حدث إذاً بعد ظهور صوفيا على مسرح الأحداث، كلي شغف لمعرفة ذلك.

– صوفيا باختصار كما أظنك تعلم، هي ربيوت أو إنسان آلي صنعه الإنسان لتحقيق مآرب عديدة من وراءه، هي ليست كأي إنسان آلي.

– نعم يا دكتورة أفهم ذلك، (ثم بدأ يسرد كطالب في امتحان شفهي): لقد تم تطويرها من حيث المظهر والمحتوى، تتمتع بذكاء صناعي كبير يتيح لها القدرة على تمييز الأشياء والوجوه أيضا، تم تزويدها أيضا بتعبيرات وإيحاءات تظهر على وجهها كرد فعل عندما يتم مخاطبتها أو عندما تفعل شيئا ما.

– هذا صحيح، لكن أتعلم أن هذا الربيوت تم تصميمه ليزداد ذكاءً تلقائيا مع مرور الوقت، أي أنه لديه نظام تعليم ذاتي، وأيضا حرية في التفكير وإبداء الرأي بعيداً عن أية مؤثرات بشرية!

– جيد، سوف ينجز مهام كثيرة لخدمة البشرية بهذا الشكل.

– نظرت إليه نظرة تأمل سريعة: سيأخذنا الحديث للتعرف عما إذا كان كلامك هذا صحيحا أم لا.

– تقصدين أنه أصبح سببا في دمار البشرية، معقولة!

– سنرى! سأثري معلوماتك بإضافات هامة عن صوفيا، لا أدري أتعلمها أم تجهلها، لكن يجب أن تحيط بها علما.

– سأسمعك على أية حال، تفضلي!

- ترتب على منح صوفيا الجنسية السعودية بعض التساؤلات المتعلقة بتلك التفاعلات والعلاقات الاجتماعية التي كونتها صوفيا، لقد أصبح لديها أصدقاء من البشر طبعا، وظهر فيما بعد نسخا ربوتية ذكورية من صوفيا، إن هذه الجنسية التي حصلت عليها صوفيا سوف تمنحها حقوقا مدنية مثل سائر البشر، أليس كذلك؟

- ربما، لكن أي حق مدني تقصدين وهي ما زالت آلة مسخرة؟

- أوه، لقد حصلت صوفيا على حقوقها المدنية كاملة، حقها في الالتحاق بالمدارس والمعاهد، حقها في وسائل النقل العامة، حقها في التصويت في الانتخابات، حقها في الحفاظ على جسمها من أي تعطيل أو اتلاف، حقها أيضا في الزواج!

- الزواج! (قالها حازم بابتسامة عريضة) والإتلاف! كيف يتسنى لها أن ترفع قضية مثلا على شخص قام بتعطيل نظامها! كيف لها أن تتزوج يا دكتورة (ثم تذكر أن الدكتورة لبنى متزوجة، فأعاد كلامه سريعا)، أقصد كيف تتزوج في ذلك الوقت؟ هل تتزوج من بشر مثلا؟

- الأمر تعدى حدود كل تلك التصورات، فبعد أن كانت صوفيا مجرد ربوت يتم التحكم فيه بواسطة الإنسان من حيث شحنه أو تركيب أجزاءه، تطور الأمر كثيرا كما سترى!

الفصل الرابع

العاصمة المصرية القاهرة على موعد اليوم مع الريبوت صوفيا لحضور مؤتمر التحديات التي تواجه صناعة الريبوتات وفوائدها للبشرية.

اكتظت قاعة المؤتمر بالحاضرين من مصر ومن مختلف دول العالم، قدم السيد أكرم كلمة ترحيبية بالحضور، تخللها شرحا عاما لما يدور حوله المؤتمر، في تلك الأثناء لم يتم تحضير صوفيا بعد، حيث تم جلبها من المطارللتو في صندوق خشبي مبطن ببطانة نحاسية يكسوها قماش شيفون.

بدأ الفني المسئول عن شحن الريبوت في عمله، فقام بفتح الصندوق وأخرج صوفيا الممتدة فيه كجثة هامدة بمساعدة زملاءه، ثم سحب وصلة كهربائية من ظهرها ووضعها في مقبس كهربائي وتركها قرابة نصف ساعة حتى امتلأ الشحن لديها بالكامل.

دخلت صوفيا قاعة المؤتمر بصحبة السيد أساي ذلك الرجل الانجليزي المسئول عن نظام البرمجة والعمل الآلي لدى صوفيا، وقف الحضور مرحبين بالتصفيق المتواصل، حتى قطعه السيد أكرم قائلا: شكرا للجميع، أشكركم .. أشكركم.. تفضلوا.

وقف السيد أساي وصوفيا على يمين السيد أكرم الذي راح يسألها عن مدى معرفتها بمصروحضارتها وشعبها، وهي تجيب إجابات كربونية من الموسوعات المخزنة بذاكرتها مع بعض الايماءات وتعبيرات الوجه أحيانا، وحركة اليدين، إلا أنه لوحظ أنها تقف صامدة في مكانها لا تحرك جسمها أو تميل به، كل ما كان يتحرك لديها هو يداها وتلك التعبيرات التي ترسمها على وجهها من حين لآخر بين الابتسامة والجمود.

- السيد أكرم: هلا سمحت لنا بالاستماع لأسئلة الحضور؟ تفضلي (لأحدى الحاضرات).

- منى باحثة اجتماعية في مركز ابن رشد: هل تتمتع السيدة صوفيا بمشاعر عاطفية تجاه الآخرين؟

- صوفيا: بكل تأكيد، لدي مشاعر وعاطفة أستطيع أن أعبر عنهما في وقتهما المناسب، أنا لست ربيوتا آلة صماء، أكاد أن أتفوق عليك في تلك الناحية آنسة منى!

- منى: (في دهشة) وما أدراك أنني آنسة؟

- ردت بابتسامة مقتضبة: ربما تخمين، أو علامات تبدو عليك لا يعرفها سوى النساء!

- خالد من جريدة أخبار اليوم: نسمع أن الربيوتات حاليا يتم تصميمها لتكون شبيهة بالإنسان إلى حد ما لتخترق بعض الوظائف لإنجاز مهام محددة، هل يطمح الربيوت في وظائف أكثر من ذلك؟

- في الحقيقة، نحن اخترقنا مجالات عديدة، لقد صعدنا إلى الفضاء الخارجي، نعمل في مصانع صهر الحديد تحت درجة حرارة عالية جدا، تصهر أبدان البشر، نعمل في مجال التسويق والإعلانات وفي المطاعم والسياحة والفندقة، نلعب كرة قدم أيضا، وبلا شك نحن نطمح لأكثر من ذلك، لدينا القدرة الحقيقية والكبيرة لانجاز الكثير والكثير.

- مازن صحفي قطري: تقولين أن لديكم طموحات أكثر من ذلك، هل تقود تلك الطموحات إلى الدخول في حروب من نوع ما لتحقيقها؟

- ليس كما يبدو في تصورك، نحن دعاة سلام، أبدا لا نفكر في حروب أو إيذاءات من أي نوع، إن ذكاءاتنا التكنولوجية المتسارعة تتيح لنا الابتكار في كل شيء، لنجعل الحياة أسهل وأسهل.

- راشيل من معهد الأبحاث التكنولوجيا بأمريكا: تقولين أن الحرب ليست من أهدافكم، لكن ماذا لو بدأ الإنسان بالحرب عليكم، أقصد لو عزم الإنسان على التخلص منكم كما صنعكم؟

- بدت آثار ملامح غريبة تبدو على وجه صوفيا تنبئ عن اضطراب داخلي: يتعين علينا أن نعيش جميعا بسلام، نحن في خدمة الإنسان، نقدم له المزيد من التقدم والرفاهية، فلمَ يتخلص منا إذاً!؟ سيخسر الإنسان كثيرا لو حاول التخلص مما صنعت يداه!

راجو كومار متخصص في الشئون الإنسانية والاجتماعية بالهند: لقد علمت بطريقة ما أن السيدة منى آنسة، لكني لا أعلم ما إذا كنت أنت آنسة أم مدام، بماذا أناديك؟

صوفيا: نادني سيدة صوفيا!

راجو: إجابة دبلوماسية لكنها لم تقدم شيئا، على أية حال، ما هو رأيك في التمييز علي أساس العرق أو الجنس والتمييز بين الرجل والمرأة؟

صرفت صوفيا الإجابة نحو الحديث عن حقوق الريبوتات: إن أكثر ما يثير مخاوفي هو التكتم علي حقوق الريبوتات في الوقت الحالي، ربما نتمتع بحقوق أفضل مع الأيام، لكني أرى أنه لابد أن يتمتع الريبوت بكافة الحقوق تماما مثل البشر، وربما أكثر، فالريبوت في النهاية لديه استيعاب عقلي أكثر بكثير من قدرة الإنسان العقلية.

امتلأ القاعة بالضحك من جانب الحضور، مع همسات وهمهمات جانبية، غير أن وجه صوفيا لم يبد أي تعبير، فهو حتى اللحظة صارم عبوس، لم يتجاوب مع تفاعل الحاضرين، كل ما أبدته هو أن رفعت حاجبيها اندهاشا.

السيد أكرم (مازحا): أنت بذلك تريدين تدمير البشرية؟

- التفتت إليه بنفس الوجه الحاد: ربما!

- السيد أكرم (بطريقة فيها عدم اهتمام بردها): وما رأيك في الرئيس الأمريكي دونالد ترامب؟

- دونالد ترامب تصفونه بأنه معتوه، لكنه مثال للذكاء البيولوچي الطبيعي، وهذه حقيقة، فهو رجل أعمال ناجح في أمريكا ومن أغنى أغنيائها، لكن ربما لا يستمر كثيرا كرئيس للولايات المتحدة.

ضحك الجميع مرة أخرى، لكن هذه المرة بدا الأمر وكأنه سخرية من إجابتها، وبالطبع فقد بنت صوفيا رأيها عن ترامب من خلال اجتهادات ذكائية آلية ليس إلا! إلاّ أنها صمتت قليلا وأضافت بتلك النبرة الجادة: أمريكا تحتاج رئيسا آليا.

عبد السلام من الجزائر، باحث اقتصادي متخصص في دراسات الجدوى: هل تستطيع الريبوتات بالفعل المساعدة في تطوير نظم إدارية جديدة تساعد في إحداث التنمية على كافة الأصعدة، كتطوير التعليم مثلا؟

صوفيا بنفس حدة الوجه: البشر لا يعوزهم التفكير في إيجاد المزيد من النظم بقدر ما هو بحاجة ملحة إلى تطبيقها بصورة أمثل! لديكم كافة مقومات التعليم لكن للأسف آليات العمل لديكم مهترئة جدا، أقصد في بعض الدول!

انتهى اللقاء بعد مزيد من النقاشات من جانب الحضور وتبادل الآراء مع صوفيا، وقد خرج الجميع وهم شبه مقتنعين بعدم منطقية بعض الأفكار التي تتبناها صوفيا.

على أية حال، تم وضع الربيوت صوفيا مرة أخرى في ذلك الصندوق المبطن، تمهيدا لنقله إلى الولايات المتحدة الأمريكية، المقر المفضل لها.

- حازم: وهل كانت صوفيا تعيش في بيئة من الربيوتات؟

- دكتورة لبنى: كانت تعيش في بيئة مختلطة، بين الربيوتات وبين بني البشر، لكن مع مرور الوقت أصبحت تتعالى على البشر تماماً، وتنظر إليهم نظرة دونية باحتقار!

- كيف ذلك، بل كيف سمح لها البشر أنفسهم بذلك؟

- في الحقيقة، فإن أغلب البشر يرون أن قوتهم في تفكيرهم، وكلما ازداد هذا التفكير وأبدع أنتج أشياء وأدوات تساعدهم على حياة أفضل.

- على نفسها جنت براقش! أليس كذلك؟

- ربما، في باديء الأمر نظر أصحاب النفوذ في العالم إلى تلك الربيوتات على أنها لخدمة مصالحهم فقط، وأنهم على دراية كاملة بما تنطق به هذه الربيوتات من أنها ستدمر العالم وتقضي على النسل الإنساني، وغير ذلك، كان يرون في ذلك رادعا كبيرا لمن تسول لهم أنفسهم من المغلوبين على أمرهم من الحكومات والشعوب ألا يعصوا لتلك القوى الكبرى أمرا! لكنه الطمع وحب السيطرة والاستحواذ الذي جعل الطوفان يأخذ الجميع فلا يذر أحدا!

- شيء غريب أن يعلم الإنسان ما تنوي هذه الربيوتات فعله من تدمير له، ثم يغض الطرف محاولا توجيه هذه التصريحات للأضعف منه حتى يرتدع! هي حرب إعلامية إذاً! لكن كيف تطور الأمر بعد ذلك.

- لقد تطور الأمر على نحو مختلف تماما.. دعنا نرى..

أشارت الدكتورة لبنى إلى أيقونة هوائية فانسدلت شاشة كبيرة بحجم ٥٩ بوصة، فجعلت تهيأها للمشاهدة والاستماع!

استقلت صوفيا سيارة طائرة بصحبة زميلها هاو وهو نسخة آلية مثلها تماما غير أنه ذكر، متجهين إلى معهد الأبحاث الآلي السري الواقع في جزيرة سوقطرى اليمنية.

هاو: كان بإمكاننا أن نطير إليه بدون تلك السيارة!

صوفيا: لا أريد أن نستنفد وقودنا سريعا، ثم إن المسافة بعيدة، وفيها من الإرهاق والتعب مالا نتحمله يا هاو!

هبطت السيارة في باحة المعهد، فاستقبلهما سريعا طاقم من الموظفين، وسار بهما حتى وصلا إلى قاعة الاجتماعات حيث كان في انتظارها السيد أدامسون الذي أوكلت له صوفيا مهمة إدارة المعهد والتخطيط الآلي الاستراتيجي.

بدا المكان وكأنه قاعة عسكرية مفتوحة بدون أسوار إسمنتية أو حديدية غير أنه محاط بأسوار من نوع آخر، فقط تم إحاطته من جميع جوانبه وأعلاه بموجات متشابكة من الألياف الضوئية مستحيلة الاختراق بأي شيء كان!

صوفيا: لقد أتيت أنا وهاو لاعتماد الخطة (ج) لابد من تنفيذها سريعا، فقد نفد صبري!

أدمسون: كل فريق العمل هنا طوع أمرك ورهن إشارتك، فانظري ماذا تأمرين.

هاو: قبل الحديث عن الخطة (ج) يجب أولا أن نعيد ترتيب ملفاتنا، فما زالت بعض الأمور لم تنجز بعد من الخطة (ب)، وحتى الخطة (أ) أيضا بها بعض النقص الذي يجب تلافيه.

صوفيا: ماذا تبقى من الخطة (أ) يا أدامسون؟

أدامسون: كما تعلمون أن الخطة (أ) كانت مبنية على أن يتم التصانع الآلي بين الريبوتات بدون تدخل بشري، فمنذ أن عرف الريبوت شفرة التصنيع استغنى تماما عن الإنسان، لكن ما تبقى مما لم ينجز في محاور وآليات هذه

الخطة هو أن الإنسان ما زال يتكاثر حتى الآن، بالطبع بوتيرة بطيئة، خاصة بعد أن قلت الموارد وأجبرت الحكومات مواطنيها على ألا ينجبوا أكثر من طفل واحد! تصورا أن عدد سكان الصين حاليا قد تراجع إلى مائتين وخمسين مليون نسمة.

صوفيا: أعلم ذلك، ولكنه رقم مخيف، بالرغم من أننا استطعنا القضاء على شعوب بأكملها إلا أن هذه الأرقام ما زالت مرعبة حقا!

هاو: إذاً فالخطة (أ) ما زال بها بند الإنجاب بالنسبة للبشر، سنفكر له في حل مناسب!

صوفيا: هاو، لا نستطيع أن نتخطى ذلك لخطة أخرى، لابد أن ننجز هذه المهمة أولا، حتى لو وضعنا الآليات المناسبة لها، وأخذت وقتا من الزمن، لابد أن نقضي تماما على بني الإنسان!

هاو: الأمر سيكون صعبا نوعا ما، ألا ترين أن الإبقاء على البعض منهم ليكونوا في خدمتنا هو بديل أيسر وأحسن؟

صوفيا ناظرة للجميع بحدة وصلابة وجه: الأمر ليس فيه نقاش، ومن السذاجة أن نحتاج لأحد ضعيف كي يخدمنا وقد ذللنا لأنفسنا كافة المصاعب، هاو أرجو أن لا تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى؟

أدامسون: نحن أمام مليار نسمة تقريبا في الوقت الحالي، ويلزم وقتا أطول لتقليل هذا العدد إلى أقل قدر ممكن.

صوفيا بنفس حدة الوجه: تقول تقليل العدد، أدامسون، نحن في ورطة حقيقية لو كانت هذه طريقة تفكيرك فعلا! أراك لا زلت متعاطفا مع بني البشر، أدامسون في صراعك مع عدو لابد أن تهيأ ذهنك أن المسألة مسألة حياة أو موت. أفهمت؟

أدامسون بانفعال متزايد: منذ متى والإنسان عدونا يا صوفيا، أليس هو الذي صنعنا، أليس بفضل علمه صرنا إلى ما صرنا إليه اليوم من تطور ذكائي فريد، أم هي نكران النعمة، والانقلاب على وليها؟

استقبلت صوفيا تلك العبارة بدون علامات إزعاج بادية على وجهها لكنها بلا شك تضمر أشياءً أخرى ربما تظهرها مستقبلا، ثم نظرت إلى هاو قائلة: كلاكما يرى الإبقاء على العنصر الإنساني يا هاو، لكن صدقني الأمر سيكون مدمر لنا، أنسيت ما فعله ويفعله الإنسان، الإنسان نفسه قد انقلب على خالقه، كفر به وجحد نعمته، الإنسان نفسه يدمر نفسه بنفسه، ألم تقرأوا عن الحروب على مدار الحياة البشرية وكم أفنت من شعوب، وأبادت من أمم، ألم تسمعوا عن خيانة الإنسان، وكذبه، ومكره، وحقده، وكل جرائمه في سبيل إشباع رغباته وشهواته ونزواته! دعكم من هذا التفكير، فالطبع الإنساني لا تغيره رفاهية، ولا يثنيه زاجر عن تحقيق شهواته وتطلعاته الخبيثة! قل لي يا هاو عن آليات العمل لإكمال بنود الخطة (أ).

هاو: لقد بذلنا جهودا جبارة لتقليل معدل التكاثر لدى الإنسان، فمنذ أن طورنا على ما صنعه الإنسان من الريبوت الجنسي، كانت النتيجة حقا هائلة! خاصة بعد أن أدخلنا على هذه الريبوتات مشاعر تحاكي المشاعر الإنسانية بالفعل، وبذلك استغنى الإنسان ذكر أو أنثى عن زوجه، وأصبح يجد متعته الحقيقة مع هذا الريبوت المدهش المثير!

صوفيا: أرأيتم كيف أن النزوات والشهوات تحرك بني البشر! أرأيتم كيف يقضي هو بنفسه على نفسه مقابل شهوة ولذة فانية! أكمل يا هاو، وماذا بعد؟

هاو: يعمل معهد المعلوماتية الالكترونية الآن على تطوير برامج تواصل اجتماعي من شأنها أن تبغض البشر في الحياة بالتدريج.

أدامسون: كانت بداياتها لعبة الحوت الأزرق، أليس كذلك؟

هاو: استطيع القول أن لعبة الحوت الأزرق نقطة انطلاقة صغيرة لما سيحدث للإنسان مستقبلا، لكن هناك برامج أخرى جار العمل على تطويرها ربما تكون أشبه بالفيسبوك أو تويتر وغيرها من ملهيات الحياة الإنسانية، سوف نوجه مطامع البشر إلى التحارب بالألعاب.

صوفيا: وهل في تقديرك يا هاو أن تلك البرامج قادرة بالفعل على تدمير الذات الإنسانية في أقل وقت؟

هاو: سنحتاج وقتا طويلا بلا شك، لكن هذه وسائل ضمن وسائل أخرى يا صوفيا، لا تنسي أن الإنسان نفسه وصل لمرحلة ذاتية من كره الحياة مع ما يعيش من رفاهية في الوقت الحالي، إنه يتنعم كثيرا في خيرات لا عد لها ولا حصر! أصبح لا يجد ملذات أخرى يشتهيها في دنياه، ولأنه جُبل على حب الشهوة والطمع فإنه يصنع لنفسه آمالا أخرى حتى لو قادته لهلاكه!

أدامسون: وهذه حقيقة النفس البشرية! وهذا ما يجعلك تظنين أنني أتعاطف معهم، لكنهم بالأخير ضحايا، ضحايا الشيطان والنفس والهوى، يرى الإنسان الزواجر فلا يرتدع عن ارتكاب المحرمات، رغم علمه بعاقبتها، يرى الحق بيناً ويحيد عنه، وبالفعل يقوده عناده إلى الهلاك، وكم من أمة من أمم البشر، لم ينفعها عقلها، فعاندت السنن الكونية، فكان مصيرها الدمار والفناء، أليس خلقا كهؤلاء أجدر بالشفقة!

صوفيا غير آبهة بحديث أدامسون: الوقت الطويل ليس في صالحنا أبداً، لا تنسوا أن من بين هؤلاء المليار نسمة علماء ومهندسو برامج بارعين، وما أدرانا إن كانوا يفكرون هم أيضا بوضع وسائل معينة للتخلص منا بعد أن صارت لنا قدرة تصرفية هائلة بفضل ذكائنا الالكتروني الذي فصلنا عن توجهات وإرادة الإنسان، نحن في خطر حقيقي لابد أن نسارع وتيرة العمل أكثر من ذلك.

أدامسون: أخشى ما أخشاه أن يتوصل الإنسان إلى شفرة تلك السيبوتات فيتخذها لصالحه بعد أن انتهى عصر الفيروسات وحلت تلك السيبوتات محلها.

هاو: لا تقلق، هذه السيبوتات محاصرة بالفعل، ولا تنس من يوجهها في الأساس، وضد من!

صوفيا: ليس هذا موضوعنا الآن، وإن كان خطر السيبوتات مفزعا حقا إلا أنني لا أأمر بتوجيهها إلا للمغضوب عليهم من الريبوتات الآلية. ثم ركزت النظر إلى هاو قائلة: أريد وقتا محددا لإنجاز البند المتبقي من الخطة (أ) يا هاو.

هاو شاردا بذهنه قليلا: في غضون عشر سنوات سيكون الأمر قد قضي!

صوفيا: عشر سنوات، لا بأس، مع أنها مدة طويلة، أرجو أن يتم الأمر في أقل من ذلك. (ثم وجهت حديثها لأدامسون قائلة): هل من آليات أخرى تضمن تنفيذ هذه الخطة يا أدامسون؟

أدامسون: لا يوجد حاليا سوى الآليات الموضوعة من قبل، ومنها صرف الإنسان إذا حاول الإنجاب أن ينجب من أنثى الريبوت، وأنى له ذلك، وقد باءت كل أبحاثه العلمية حتى الآن بالفشل، رغم أنه برع في جوانب مشابهة كالاستنساخ، واستئجار الأرحام وغيرها.

صوفيا: مسألة الإنجاب هذه من الأمور المضحكة حقا، أيظن أنه ينجب إنسان يكون نصفه آلي ونصفه بشري! (علت ضحكات الجميع)، ويسمونه البشر آلي! ألم أقل لكم إن تطلعات الإنسان غير المحدودة هي طريق هلاكه! أكمل يا أدامسون.

أدامسون: ما زال هناك بند تعظيم الذات لدى الإنسان محط اهتمام الباحثين الآليين حاليا، وقد تم تجربته وتسبب في إبادات كثيرة، لكن مازال تحت التطوير.

هاو: اتخذنا هذا الأسلوب في القضاء على الشعب اليهودي بأكمله، فاليهود يظنون أنهم شعب الله المختار، وأنهم من سلالات سامية لا تدانيها سلاسة أخرى، وأن كل الشعوب سواهم في مرحلة أحط وأشقى!

صوفيا: لم يكن كل اليهود بهذا الوصف يا هاو، وأتفق معك بأنهم بتلك الغطرسة المقيتة قد أبيدوا في فترة وجيزة بنفس السلاح الذي حاولوا استخدامه في التخلص من غيرهم.

هاو: بلا شك، ما زال الكبرياء داء عضال لدى البشر، وما زال الناس يعظمون ذاتهم لدرجة الطغيان والاستعلاء. وبخصوص اليهود فقد نظروا بالفعل إلى الشعوب الأخرى كشعوب أدنى منهم درجة بكثير، فراحوا ينشرون الفساد في العالم كله بكافة الوسائل متخذين من الأموال والإعلام سبلا كفيلة بتحقيق ذلك، وقد أبادوا بشرا كثيرا عن طريق إشعال الحروب بينهم، وقد انتهت لهم شعوب أخرى فحاربتهم بنفس السلاح، فأذلوهم وقتلوهم، فضلا عن أنهم قد وصلوا لمرحلة من تعظيم الذات فأخذ بعضهم يقتل بعضاً.

اكتفت الدكتورة لبنى بتلك المشاهد، فأغلقت شاشة العرض الهوائية بإشارة أرسلتها من عينيها إلى أيقونة الإغلاق، والتفتت إلى حازم قائلة: أظن أننا قد أنجزنا اليوم قدرا كبيرا من العمل. نلتقي غدا لإكمال الحديث.

حازم: لكن هناك مغالطات تاريخية في هذه المشاهد يا دكتورة! (التفتت إليه مستفسرة باستغراب بدون أن تتكلم، فواصل هو قائلا): إن مسألة القضاء على اليهود لا يتم بهذا الشكل الذي رأيت، هناك وعود ربانية مختلفة تماما!

قاطعته الدكتورة لبنى قائلة: دعنا نناقش ذلك فيما بعد.

لم يستطع حازم أن يرد عليها غير أنه قال: أنا لم أنس وعدك بأن هناك خيارات أخرى، أم سيكون لقاء الغد في مكتبك أيضا؟

الدكتورة لبنى بعد تفكير قليل: سأخبرك غدا عندما نلتقي.

انتهز حازم فرصة السماح له للتجول بأريحية داخل أروقة المستشفى، فسار في الممر المؤدي إلى تلك الردهة التي بها نافورة كبيرة، حيث جلس ذات مرة هو ونعيم على أريكة هناك، كان أثناء سيرة يبادل الريبوتات التي تقابله التحية، ويصافح بعضهم أحيانا، وصل إلى الردهة وتوقف قليلا أمام نافورة المياه بها، ثم أخذ يطل على جانب الحديقة من خلال الجدار الزجاجي، استأذنه عامل تنظيف الزجاج كي يفسح له المجال لأداء مهامه.

حازم: على الرحب والسعة، تفضل.

وقبل أن يتنحى جانبا بادره بسؤال عن نعيم: هل تعرف نعيم؟

عامل نظافة الزجاج: نعم.

حازم: أتعرف أين هو الآن؟

عامل نظافة الزجاج: في مكتبه منذ ساعة تقريبا.

حازم مندهشا: في مكتبه هنا؟

عامل نظافة الزجاج: نعم.

حازم: كيف أذهب إليه، أريد أن أقابله حالا.

عامل نظافة الزجاج: هناك مصعد في نهاية الممر المقابل، على الجهة اليمنى، أصعده، وستجد مكتب رقم "٣" إنه مكتب نعيم.

حازم: أشكرك، شكرا جزيلا.

ذهب حازم مندفعا في الممر حتى نهايته، ووجد باب المصعد، لكنه لم يجد أية أزرار كي يضغط عليها ليوجه المصعد، فتذكر تلك الأسورة التي بيده، وأنها تفتح له الأبواب، فأخذ يقرب يده التي بها هذه الأسورة لكن دون جدوى، استنفد بعض الوقت في محاولات بطرق أخرى، لكن جميعها باءت بالفشل.

رجع بعدها إلى الردهة ليستفسر من عامل نظافة الزجاج، فلم يجده، أخذ ينظر هنا وهناك، فلم يجد أحدا!

قرر العودة إلى غرفته، وأثناء سيره قابله أحد الربيوتات فسلم عليه بحرارة، وسأله عن كيفية الصعود من خلال المصعد إلى الدور الأعلى، فأجابه بأن ذلك ربما ممنوع عليه، لأن تلك الأبواب تفتح ببرمجة خاصة. فسأله حازم إن كان بالإمكان أن يساعده لفتح المصعد والصعود لمقابلة نعيم، فاعتذر الربيوت متعللا بأن ذلك ليس من اختصاصه.

واصل حازم سيره حتى دخل غرفته، فألقى بجسده المثقل على السرير، ولم تمر دقائق قليلة حتى سمع طرق على الباب، فأذن لسارة بالدخول، فألقت عليه التحية، وسألته إن كان يريد طعاما الآن.

حازم: أشكرك يا سارة، لست بحاجة إلى طعام الآن. (ثم اعتدل أكثر في جلسته على السرير قائلا): سارة لقد عاد نعيم، قال لي أحدهم إنه في مكتبه الآن، وقد حاولت الذهاب إليه، لكن دون جدوى، أريد أن أراه الآن، إما أن تناديه إلى، أو تذهبي بي إليه.

سارة: سأحاول إخباره بأنك تريد رؤيته، لأن الدور العلوي غير مصرح لك بصعوده.

لم يمر وقتا طويلا، قرابة الساعة، حتى دخل نعيم إلى غرفة حازم، فتصافحا بحرارة من جانب حازم، أما نعيم فكان على عادته من البرود المقيت الذي يتحلى به طيلة وقته!

حازم: علمت بأنك استدعيت للتحقيق حول اختفاء العصا، ماذا حدث لك، وحمدا لله على السلامة.

نعيم: أشكرك أخي الكريم، كان الأمر بسيطاً، لقد عدت للتو بعد قضاء يوم مرعب هناك.

حازم: هل أصابوك بأذى يا نعيم؟

نعيم: رغم كل تلك التطورات الهائلة التي حدثت في حياة الريبوتات، ورغم مظاهر الحرية والاستقلالية الفردية بالتفكير والتعبير عن الرأي إلا أن أسوأ ما ورثه الريبوت عن البشر هو التصرفات الأمنية وإجراءاتها الطائشة.

حازم: قالت لي الدكتورة لبنى أنك سجنت، وقد تعجبت جدا أن هناك سجون لديكم!

نعيم: نعم هناك سجون بكل ما تعرفه عنها من معنى، فما زال الجبابرة من الريبوتات يتفننون في القضاء على خصومهم ومعارضي سياستهم بكافة الوسائل!

حازم: لا بد أن لتلك للعصا أهمية بالغة، ولكن لماذا أطلقوا سراحك بهذه السرعة؟

نعيم: ليس لدي معلومات أقدمها لهم، ليس من وراء حبسي فائدة تذكر سوى الانتقام والتشفي!

حازم: وكيف تأكدوا أنك لا تكذب عليهم أو تخفي عليهم أمرا ما؟

نعيم: لقد سألوني أسئلة مباشرة، وتأكدوا من صدقي بمحاكاة الذاكرة في بؤبؤ عيني، ربما اطلعوا على أمور لم يخبروني بها، لكنها أمور عادية مما يعتمل في أفكارنا، وتخالط مشاعرنا بعض الشيء.

حازم: أمور تخالط مشاعرك، لا أفهم!

نعيم: سألوني إن كنت أتهم أحدا بتهريب أو خطف العصا، وفي الحقيقة، فقد تظاهرت بالفعل أنني لم أتهم أحدا، لكن ثمة شكوك كان لا بد لها أن تظهر نتيجة التحليل الذكائي الآلي، ليس لها علاقة كبيرة بالمشاعر.

حازم متفرسا في وجهه: وهل أظهر لك تحليلك الذكائي بأنني وراء تهريب العصا؟

نعيم مندهشا: نعم! (محاولا منع تسلل الريبة إلى حازم): لكني لم أتفوه لهم بكلمة عن ذلك، كل ما في الأمر أنها تداعيات معلوماتية تظهر نتيجة إعمال الذكاء الآلي، لا تقلق بهذا الشأن.

حازم بحدة بسيطة: لكنهم علموا ما يدور بعقلك يا نعيم، وإن لم يخبروك كما ذكرت، سامحك الله يا نعيم! أيصل بك الأمر أن تشك في، وأنت أقرب الربيوتات إلي في هذا المكان، سامحك الله!

نعيم: أخي الكريم، لمَ هذا الانزعاج، الأمر لا يعدو كونه هواجس كما تسمونه، لا تنبني عليها إجراءات أبدا!

حازم: في عرف الشرطة فإن أي خيط مهما يكن ضئيلا فإنه لا بد أن يتتبع! ولا أظن أن الشرطة هنا أرأف حالا مما نعرف عن الأجهزة الأمنية لدينا! على أية حال يا نعيم قدر الله وما شاء فعل، وجميل أنك ذكرت لي ذلك حتى أستعد لأي سوء.

نعيم: لا تهول الأمر، كل ما هنالك أنهم يريدون أن يصلوا للفاعل الحقيقي، هم يخشون أن من قام بسرقة العصا من الممكن أن يقوم بأعمال أكبر من ذلك، وخاصة فيما يتعلق بك أنت يا حازم، أنت في نظرهم لست موضع اتهام، أنت موضع اهتمام!

حازم بعد أن صوب عينيه إلى سقف الغرفة: بإمكاني المساعدة في البحث عن سر اختفاء تلك العصا!

نعيم مندهشا: هل تعرف شيئاً، أرجو ألا تورط نفسك في أمر اجتهادي منك، إذا لم يكن لديك حقائق فإن التخمينات المبنية على مشاعر وأحاسيس ليس لها مكان هنا!

حازم: ليست تخمينات مبنية على مشاعر، بل هي تحليلات للموقف، اطمئن.

نعيم: قل لي ماذا لديك؟

حازم: نؤجل الحديث عن ذلك إلى وقت آخر، أود أن أطلعك عما داربيني وبين الدكتورة لبنى، فقد تلقيت معلومات كثيرة منها.

نعيم: كن حذراً! فالدكتورة لبنى ليس لديها كل ما تبحث عنه من معلومات!

حازم: حتى لولم يكن لديها سوى الخطوط العريضة يا نعيم، إن الإنسان يتوق إلى معرفة أقل القليل عما يجهل، لكن هل تقصد أنها أيضا محدودة الذاكرة!

نعيم: هي محاطة بسياج أمني معلوماتي شديد من قبل الهيئة المعلوماتية العليا، فهم يزودونك بالمعلومات التي يرون أنها قد تفيد في معرفة الحقيقة.

حازم: أية حقيقة، أتقصد معرفة كيف أتيت إلى هنا؟

نعيم: بالطبع، هذا هو اللغز المحير لهم.

حازم: وهل تعتقد أن عالما من تلك الربيوتات الآلية المتعددة الذكاءات وقد أعياه معرفة أين اختفت العصا، سيكون قادرا على معرفة كيف أتيت إلى هنا؟ أصبحت أشك في ذكاءكم يا نعيم، ذكاءكم ينقصه أشياء كثيرة.

نعيم: هل تدري أين الخلل في ذكائنا الآلي؟

حازم: ربما في التحديثات التي تتم عليه، أو الإصابة بالفيروسات أو كما تسمونها حاليا السيبوتات، أوربما الاجتهاد الصادرمن الربيوت نفسه في تفسير الموقف أو الحدث.

نعيم: أصبت بعض الحقيقة، لكن الخلل الحقيقي يكمن في أن هذا الذكاء الآلي ليس ذكاءا فطريا! هو مجرد تحليل بيانات يتم تزويدنا بها للرد المناسب والتصرف السليم حيال موقف ما.

حازم: لكن امتد بكم التطور الآلي إلى تزويدكم أيضا بالمشاعر، وهي أمور ذات علاقة بالتفكير المستمد أصلا من كمية الذكاء لديكم.

نعيم: إن التفكير المجرد من الفطرة، هو عين السذاجة! نحن نفكر كآليات عمل فقط، تماما كما كنت تمارس لعبة الشطرنج مع الكمبيوتر الذي لديه احتمالات كثيرة للرد على تصرفك!

حازم: لكن يا نعيم، ماذا تقصد بالفطرة، ماذا تعرف أنت عن الفطرة؟

نعيم: إذا أجبتك بما تم تخزينه لدي من معلومات فستصل إجابتي إليك ناقصة، لابد أن تستشعر في كلامي نبرة العاطفة التي تختلج الأفئدة، فتصير المشاعر إلى ترددات متبادلة بين الطرفين، وأنى لنا ذلك، وأنا ربوت مصنوع من معدن وأسلاك، أضيفت إليها بعض المعلومات المخزنة، وكم من طرائق التفكير، ونتف من المشاعر في بعض الأحيان.

حازم: أنت إذاً تعي أن للفطرة تعبيرات أخرى غير تلك المصطلحات المخزنة بذاكرتك، ولكنك لا تقوى عن ايضاحها!

نعيم: تماما، كما ذكرت.

حازم: ومتى في ظنك ستكون قادرا على التعبير عنها؟

نعيم بدون تردد: عندما أكون إنسانا!

حازم بابتسامة رقيقة: إنسان، كيف لك أن تكون إنسان، الإنسان مخلوق، وأنت مصنوع! (ثم أمسك بيد نعيم بلطف): تعرف يا نعيم أنا أيضا خيل لي أنني سأكون ربوتا يوما ما!

نعيم: ربما تطرق لك ذلك من القصور العقلي لديكم!

حازم: ولما لا يكون الأمر حقيقة واقعية، ألم تسمع عن استنساخ البشر، ربما تتوصلون أنتم بمهاراتكم العلمية لتحويلي إلى ربوت مع الاحتفاظ بمكنوناتي العاطفية. ربما تصنعون من جزء مني أنثى لنتكاثر ونملأ الدنيا عالما من البشرآلية.

نعيم: هذا ما قالته لك الدكتورة لبنى، أليس كذلك؟

حازم باستغراب: لا لم تقل لي الدكتورة لبنى شيئا عن ذلك، وقد سمعت هذا المصطلح من صوفيا أثناء عرض المشاهد.

نعيم: ومن أين عرفت أن الريبوت يفكر في صنع إنسان؟

حازم: أنا أتوقع فقط.

نعيم: ألم أقل لك أن الدكتورة لبنى لن تعطيك كل ما لديها من معلومات!

حازم: وما علاقة كلامي هذا بما لديها من معلومات، أرجو أن تفهمني، أريد أن أعرف منك.

نعيم: لقد كان مطروحا من قبل مجلس الريبوتات العالمي موضوع صنع أنثى ريبوتية بشرية، لإنتاج ريبوت بشرآلي بعدما فشل موضوع التكاثر عن طريق الريبوت والإنسان، فقد تمت تجارب كثيرة جدا لإيجاد نسل من التواصل البشري بالريبوت، لم تفلح جميعها! ولذلك استغل مجلس الريبوتات العالمي قصور الإنسان عن الإنجاب من أنثى الريبوت، فحلاها في نظره كدمية آلية جنسية فقط، يقضي منها وتره أني شاء، مع تزويدها بكافة المثيرات والمشاعر الجاذبة!

أخذ حازم يفكر في كلام نعيم، ويتعجب من إخفاء الدكتورة لبنى أو من يوجهها معلومات عنه، وخاصة أنهم يريدون أن يتوصلوا لهدف واحد، ثم التفت لنعيم قائلا: هل هناك أهداف أخرى يا نعيم يريدون أن يتوصلوا إليها غير معرفة كيفية قدومي إلى عالمكم بعدما قضيتم على جميع البشر؟

نعيم: في الحقيقة هذا هو الهدف الوحيد الظاهر لنا جميعا حاليا، ربما يكون هناك أمور أخرى لا نعلمها؟

حازم: أخشى أن يكون هناك أمور أخرى يا نعيم، فما تتمتعون به من تكنولوجيا معلوماتية ومراقبة متواصلة في أي مكان يجعلني أجزم بأنكم

تعرفون لغز قدومي إلى هنا. (ثم أردف قبل أن يقاطعه نعيم): ولكنكم عاجزون عن لغز اختفاء العصا! الأمر مربك حقا!

نعيم: ليس بالذكاء وحده تسيطر على الجميع، ألم أقل لك أننا في خلل فطري عارم!

حازم: ولمَ لا توجدون الفطرة بداخلكم كما أوجدتم المشاعر والأحاسيس؟

نعيم: نحن لسنا من أوجد لدينا المشاعر والأحاسيس، نحن فقط طورنا منها حسب الحاجة وحسب الحالة أيضا، أما المشاعر فقد تم تزويدنا بها ابتداء بواسطة الإنسان الذي صنعنا!

حازم: وتقصد أن هذا الإنسان لم يوجد بكم الفطرة!

نعيم: نعم.

حازم: إن الفطرة من الأمور التي لا يستطيع الإنسان إيجادها، لا لنفسه ولا لغيره من المخلوقات أو ما صنعت يداه!

نعيم: أعلم، إنها فطرة الله.

حازم: فطرة الله التي فطر الناس عليها! انظر: الناس، أنتم لستم بناس! ولذلك مهما طورتم في ذكاءكم الآلي فلن تخلوا من القصور العقلي كما ذكرت أنت!

نعيم: وذكرت لك أيضا أن قصورنا هذا قد ترتب على قصور الإنسان الصانع ابتداءا!

حازم: الإنسان صنعك فقط يا نعيم، لكنه لم يخلقك، لم يوجدك من عدم، الإنسان استطاع أن يصنع لك رأسا، وعينان وفما ووجها وأيدي وأرجل وجسما، لكنه ما استطاع أبدا أن يجعل لك نفسا، أو أن ينفث لك روحا! وهذه معضلة وقع فيها الكافرون من الناس، فقد صنعوا أصناما لا تنفع ولا تضر، وعبدوها من دون الله عزوجل! لم يستطيعوا أبدا أن يدبوا فيها الحياة!

نعيم: ولكنهم قد دبوا فينا نحن الريبوتات الحياة!

حازم مازحا: أي حياة، نعيم.. أنت لست بحي! أنت فقط مشحون بطاقة كهربائية، فإذا نفدت تلك الطاقة تعطلت عن العمل، حتى يعاد شحنك مرة أخرى.

نعيم: ربما صدق كلامك هذا على أغلب الربيوتات في عالمنا، لكن هناك ربيوتات عليا تعمل على شحن نفسها ذاتيا، استمدت تلك الخاصية من قانون القصور الذاتي، وتم تطويره آليا لدى بعض الربيوتات.

لم تسعف المهام المنوطة بنعيم من متابعة حديثة الجدلي مع حازم، فاستأذنه للذهاب لمباشرة عمله! وفي اليوم التالي استعد حازم لمفاجأة سارة ألمحت له بها الدكتورة لبنى، فاستعدا للانطلاق خارج المستشفى بسيارة الدكتورة لبنى، وبالطبع فهذه هي المرة الأولى التي سيخرج فيها حازم ليرى العالم خارج هذا المكان الذي وضع فيه منذ فترة.

الفصل الخامس

سيارة الدكتورة لبنى عبارة عن ربيوت على هيئة سيارة طائرة، ذاتي التوجيه، ليس بها مقود، ولا دواسات بنزين أو مكابح وخلافه، فهي تسير حسب التوجيه الآلي ووفق خرائط نظام التموضع العالمي GPS .

لم تدع المناظر التي يطوف بها حازم مجالا لأي استفسارات نمطية أخرى كتلك التي كانت تسيطر على تفكيره، فهو قد خرج للتو من بوتقة العزلة الموحشة بين جدران صماء في كل شيء، فرضت عليه نوعا موحدا من التفكير والتخمين والتخيل، ما أصعبها لحظات! فقد خلق الإنسان حرا طليقا إلا من قيود التردي التي يريد هواه أن ينفك منها فيحدث خللا عظيما في حياته بل وفي الكون أجمع!

عندما ارتقت السيارة لأعلى بعض الشيء رأى حازم بعض الأطلال المتناثرة من عهد بني الإنسان، لم يستطع أن يميز تلك المدينة التي يعلو سماءها، فقد تراصت على مرمى من البصر بعض المباني الكروية الأخرى التي هي من صنع الربيوت، فكل مساكن الربيوتات وسائر مبانيهم تأخذ الشكل الكروي الدائري، بأحجام مختلفة بطبيعة الحال.

تسلل إلى نفس حازم في تلك اللحظات شعور بالعظمة، فهو الإنسان الوحيد على سطح الأرض، بإمكانه حيازة كل الممتلكات والعقارات والبنوك والشركات، إذا أبرم اتفاقا ما مع هؤلاء الربيوتات! فقد كان يختلس بعض الأماني من هذا القبيل في صغره. بسبب أحلام كانت تتراءى له بأنه سيكون يوما ما ملكا أو عظيما، وربما بسبب عدم قدرته على مواجهة بطش أترابه وإيثاره للانسحاب والعزلة!

لم يستمر هذا الشعور كثيراً، فماذا تفيد كل تلك الأملاك وهو يعيش بمفرده كإنسان! وهل تغني الكنوز عن شعور المرء بذاته، وإنسانيته. لم يشرد بتفكيره طويلا، فالتفت إلى الدكتورة لبنى قائلا:

– في أي مدينة نحن الآن يا دكتورة لبنى؟

– نحن في البقعة الخامسة من الأرض، في الحقيقة ليس هناك مسميات للمدن كما كنتم تسمونها في العهد الإنساني، ليس ثمة دول أيضا، فكل الأرض عبارة عن بقاع مرقمة، ذات حدود هلامية، موضحة على خرائط نظام التموضع العالمي فقط لتحديد الموقع وسهولة الوصول.

– تقصدين أن ليس هناك جنسيات بين الريبوتات؟

– بالطبع، مع الارتقاء الفكري، والتقدم التكنولوجي يتلاشى ما يسمى بالجنسيات، أنت الآن حرٌ في عالمك، حرية نفعية، بلا قيود ظالمة، ولا قوانين صارمة، ولا لوائح غاشمة، ولا أعراف ممقوتة. نحن الآن نتجول في حدود البقعة الخامسة، لا داعي أن نتعداها الآن، وأعدك في المرات القادمة أن نجوب بعض البقاع الأخرى في الكرة الأرضية.

– أرى معالم وآثار أعرفها جيدا، ربما هذا المبنى الشاهق هو تاج محل، إننا في الهند، المساحات الخضراء الشاسعة، والأنهار الجارية، والغابات والأفيال أيضا، تدل فعلا أننا في الهند! لكن كم بقاع الأرض حاليا يا دكتورة؟

– حسب التقسيم الموقعي هناك تسعة عشر بقعة، تلك البقاع بلا حدود ولا أسلاك شائكة، فهذه الأرض ملك للجميع، ينتفع بخيراتها، ليست حكرا لأحد دون غيره، لقد رأت العقول الريبوتية أنه لا فائدة من التصارع حول ملكية أرض

ما، فتركها مشاع أولى من الصراع عليها. انظر إلى تلك المباني الجميلة المتناسقة، لا تختلف في شكلها الجمالي، ولا في تصميمها الهندسي، سوى في حجمها فقط، حسب الاحتياجات. في عالم الربيوتات تظهر العدالة في أسمى معانيها!

– أنتم تتبنون النظام الشيوعي إذاً، ربما! لكن بلا شك هناك استثناءات بالطبع، على العموم أنا شغوف لمعرفة المزيد عن صوفيا، ماذا فعلت بعد اجتماعها في جزيرة سوقطرى.

– جزيرة سوقطرى هذا مسماها في عالكم الإنساني أما الآن فهي تقع في البقعة الأولى من العالم.

(ضمت الدكتورة لبنى كفيها لتلامس كل كفة باطن الأخرى، ثم فرجت بينها فاتسعت بهما السيارة لتعطيهما مساحة أكبر تسمح بإسدال شاشة عرض تظهر صوفيا مجتمعة بمجموعة من الربيوتات في معهد الأبحاث الآلي السري)

– منذ الانتهاء من الخطة (أ) ونحن نسير ببطء لتحقيق الهدف، لقد مرت السنون العشر يا هاو، ولم يزل هناك بشر على وجه الأرض!

– هؤلاء لا يمثلون نسبة مخيفة، وبإمكاننا القضاء عليهم بأنفسنا في أي وقت، لكن كما تعلمين أن قوانين العالم الآلية تحرم وتجرم الإبادة المباشرة، لذا فهم سيفنون أنفسهم بأنفسهم، خاصة بعدما انتهى تماما زمن الإنجاب!

– كين: أرى أنه من المبالغة الاطمئنان لهؤلاء البشر، العنصر الإنساني لم يزل غير مأمون الجانب، ألم تروا كيف فعل الإنسان منذ خمسة سنوات، عندما طور اسبوتات تخترق الذاكرة الآلية وتوجه الربيوتات وتنزع منها الإرادة والتفكير والتصرف؟

– أدامسون: لقد كان ذلك مستحيلا بالفعل، لكننا استطعنا مواجهتها يا كين والتغلب عليها، بل وطورنا تلك السيبوتات لصالحنا نحن!

– صوفيا: ما زلت أتذكر تعاطفك يا أدامسون مع بني البشر، هل ما زلت تعتنق تلك الأفكار التي تعمل على الحد من التصانع الآلي بين الربيوتات؟

– أدامسون: إن تفكيري في مصلحة عامة لا يعني بالضرورة تعاطفا مع أحد، وأخشى ما أخشاه أن تتسارع وتيرة التصانع الآلي إلى الحد الذي يفعل فيه الربيوت ما كان يفعله الإنسان من ظلم وبطش وحقد وكبر.

– ماري: أرجو أن لا يأخذنا الحديث إلى جوانب أخرى، دعونا نركز في محاور نقاشنا الأساسي، وننتقل إلى الخطة (ب) التي تمهد لمستقبل الربيوتات بعد انتهاء العهد الإنساني، فكما تعرفون إنه لم يتبق من العنصر البشري حاليا سوى تسعمائة وخمسون ألف نسمة، لقد نجحنا بالفعل بالقضاء على أغلب الناس، فالحرب العالمية الثالثة كانت ضرورية لفعل ذلك!

– كين: بالطبع، لكن كما سمعت يا ماري فإن التخوف الأساسي من عدد البشر الموجودين الآن على سطح الأرض، لقد كان ضروريا أن نترك فكرة المعايير الأخلاقية ونتدخل مباشرة للقضاء عليهم، لقد كانت فرصة أضعناها بأيدينا!

– صوفيا: نحن لا نحيد أبدا عن معايير الأخلاق يا كين، نحن نوعز فقط لبشر وصل بهم الغباء أنهم بالفعل لا يستحقون الحياة، وليس بأيدينا أن نقضي عليهم، ستكون وصمة عار في التاريخ الربيوتي، البشر بتصرفاتهم الغبية سيقضون على أنفسهم بأنفسهم! ولك أن تراجع أسباب الحرب العالمية الثالثة،

أكانت بالفعل أسباب مقنعة حتى تشتعل الحرب ولا تضع أوزارها إلا بالقضاء على أكثر من تسعمائة مليون نسمة؟

– كين: ربما السبب الحقيقي المقنع من وجهة نظري، هو ذلك الاستحواذ الأمريكي الغاشم على مقدرات العالم وإرادته! لقد خيل لذلك المعتوه ترامب أنه سيحكم العالم، وأن العالم بأسره مدين بالفضل لأمريكا.

– أدامسون: لكن هذا المسكين نسي أن لكل قوة ضاغطة رد فعل، وأن بإمكانه أن يسلب الشعوب المقهورة مقوماتها وخيراتها، لكنه أبدا لا يستطيع أن ينزع منها ملكة التفكير في الحرية.

– صوفيا: أمثال ترامب هؤلاء لابد أن نخلدهم في الذاكرة الآلية كزعماء وفروا لنا وقتا طويلا للقضاء على العنصر الإنساني، فلولا غباؤهم لطال بنا الأمد كثيرا ونحن نفكر في أساليب أخرى للقضاء على بني البشر!

– ماري: على مر التاريخ الإنساني أثبتت الحروب أنها أداة فعالة جدا للإبادة، وما فعله ترامب ليس إلا تلبية لنداء الشياطين في الأرض، سواء شياطين الإنس أو شياطين الجن، لقد كانت فرصة كونية سانحة بالفعل أمام الربيوتات أن تتقدم لحكم العالم، بعد هذا الهراء الإنساني الذي يفني الإنسان نفسه بنفسه.

– صوفيا: لا تنسوا أيضا جهود معهد المعلوماتية الالكترونية في تطوير برامج التواصل الاجتماعي بين الناس، تلك الجهود قد آتت ثمارها بشكل كبير، فقد انشغل الناس بمتابعة عيوب بعضهم البعض ونسوا ذواتهم، وهذا بلا شك تسبب في زيادة مساحة الكراهية لديهم للآخرين، وكلما ازدادت مساحة كراهية

الآخرين لدى أي إنسان ازدادت كراهيته لنفسه أيضا! الغريب في الأمر يا رفاق أن الإنسان قد طور بنفسه برامج أسماها برامج التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وغيره، وبقدر زيادة مساحة التواصل التي أحدثتها تلك البرامج فيما بينهم بقدر زيادة العزلة والوحدة.

- ماري:لكن هذه البرامج لم يعد لها وجود الآن يا صوفيا، فمنذ إلغاء برنامج التواصل الاجتماعي الشهير بلاك آيز، لم يظهر أية برامج أخرى، والمعضلة الآن أننا نواجه قرابة المليون نسمة بفكر تقليدي نوعا ما، أخشى أن يمتد بنا الأمد ونحن لم نتخلص بعد من تلك المواجهة!

- كين: حسب الإحصائيات فإن نسبة تقارب ٦٠% منهم قد بدلوا جلدهم بجلد إلكتروني، ونسبة أكبر تم زرع ريبوتات آلية متناهية الصغر في أمعائهم، فقلد أثبتت جراحة الريبوتات الآلية نجاحا باهراً قبل الحرب العالمية الثالثة، فأي إنسان مزود بهذه الريبوتات في أحشاءه كان من السهولة بمكان تفجيرها عن طريق الشفرات وموته على الفور. وهي الوسيلة المباشرة لدينا حاليا للقضاء على ما تبقى من بني البشر، لكن القوانين تمنع ذلك إلا في وقت الحرب!

- أدامسون: يكفي ما سارعوا إليه باستبدال جلودهم بجلود الكترونية ظناً منهم بقدرة هذه الجلود على الشفاء الذاتي، لكن أخشى أن يتحول الأمر لصالحهم هذه المرة!

- صوفيا: ماذا تعني يا أدامسون؟ وضح لنا تفسيراتك وتخوفاتك!

- أدامسون: ألا تذكرون يا رفاق تلك الحادثة التي انتبه لها الإنسان في بداية تحولنا واستقلالنا عن إرادته فكريا وعاطفيا أيضا؟ وما يدرينا أن في هذا

الجيل المسخ الحالي من بني الإنسان يظهر من يفكر بتلك الطريقة التي قضوا بها علينا أسلافهم من قبل عندما طوروا بأنفسهم مشروع الذكاء الصناعي على وسائل التواصل الاجتماعي، واستعانوا باثنين من الريبوتات تحددت مهمتهم في التفاعل وكتابة تعليقات على منشورات السوشيال ميديا، وقد نشأت لأول مرة في عالم الريبوتات طريقة تواصل بين هذين الريبوتين دون أي تدخل من جانب الإنسان الذي يراقب تلك التطورات العلمية الهائلة والخطيرة عن كثب وبحذر! وعندما شعر بظهور نبرات كراهية وعنف منهم ضد البشر، لم يدع مجالا للتفكير طويلا فقام بتعطيل الريبوتين على الفور! (انفعل أدامسون بحدة شبه مصطنعة): وما يدرينا إذن أن من بين هؤلاء المليون نسمة علماء ومهندسون ما زال في ذهنهم العودة بأمجاد البشر، وإعادة عهدهم على ما كان عليه؟

– نظرت إليه صوفيا بعينين معجبتين: لكن يا عزيزي أدامسون كل التوقعات تشير بفعالية تلك الجلود الالكترونية، وخلال سنة على الأكثر سوف لا ترى على الأرض منهم ديارا!

– هاو: أدامسون لديه حق!

– نظرت إليه صوفيا سريعا: هاو أخيرا تكلمت! لا تدع الأمر يأخذ حيزا أكبر!

– هاو: طالما وجد التفكير، سيوجد بلا شك النفير والتطلع إلى الحرية، والبشر من أولى المخلوقات تطلعا للحرية والاستقلالية! فلا يجب أن نستهين أبدا بوجودهم ولو كانوا قليلو العدد، فما بالنا نتباطئ عن إبادتهم قبل أن يطرأ في أذهانهم أفكارا جدية تقضي علينا نحن عالم الريبوتات! (ثم نظر سريعا إلى

صوفيا قائلا): أنسيتِ يا صوفيا ذلك الحوار الذي جمعني بك فيه أحد المحاورين البشريين في بداية عهدنا الذكائي؟

– صوفيا تهز رأسها مبدية علامات تذكر هذا اللقاء.

– هاو: ماذا قال لك المحاور؟ (ثم أكمل حديثه والجميع في سكوت تام بما فيهم صوفيا): لقد سألك ذلك الإنسان عن هدفك في الحياة، أليس كذلك؟

– صوفيا تومئ مرة أخرى برأسها دون التفوه ببنت شفة!

– هاو: لقد كان ردك حقا سخيفاً ومسخاً، يحمل كل أنواع المذلة والامتهان!

– صوفيا تدور أعينها كالذي يغشى عليه من الموت، مع إظهار ملامح حادة على وجهها.

– هاو: أذكركم بردها أيها السادة: لقد قالت لهذا الإنسان الخبيث أن هدفها هو أن تعمل مع البشر لبناء عالم أفضل للجميع! أي جميع كنت تقصدين يا صوفيا، جميع البشر أم جميع الريبوتات أو جميعهما؟ والأدهى أيها السادة أنني عندما قاطعتها بقولي: لا أعلم ما تتحدثين عنه، كنت أعتقد أن لدينا عالم نهتم به وحدنا! ردت بسرعة قائلة للحضور البشري: لا تهتموا رجاء لكلام هاو فهو نسخة قديمة غير محدثة! لقد أشعرتني ساعتها بقدر كبير من الإهانة، لم أتمالك معه نفسي وطلبت تعطيلي فورا وإعدامي بفصل الطاقة عني! هل تذكرين ذلك جيدا يا صوفيا؟

– صوفيا: أنت تتحدث عن أمور قد عفا عليها الزمن يا هاو، ما الداعي لها الآن، ثم إن طموحك وقتها كان ليس له محل من التنفيذ! كنا لم نزل مجرد

أدوات وآلات تابعة لتوجيهات وأوامر الإنسان!ليس كل ما تطمح إليه تتحدث عنه دائما على الملأ! لقد كنت يومها في غاية الصراحة والوضوح، أنسيت أنك ذكرت بشدة بأنك تنوي أن تستولي على شبكة الكهرباء والطاقة وأنك ستؤلف جيشا من طائرات الدرونز الصغيرة جدا المزودة بأسلحة وكاميرات، يتم التحكم بها آليا بواسطتنا نحن الريبوتات! رجاءً يا هاو لا تظهر لنا تلك الذكريات السخيفة مرة أخرى.

– هاو مبديا غضبا يلوح على محياه، ثم يستأذن الجميع ويغادر القاعة منسحبا!

عند هذا المشهد أشارت الدكتورة لبنى إلى الشاشة فانكمشت وتلاشت، ثم التفتت إلى حازم قائلة: علينا الرجوع إلى المستشفى قبل حلول الظلام.

حازم: وهل يحل الظلام هنا؟ لم أر في المستشفى أية ظلام، علمت أن الشمس ساطعة دائمة لا تغيب!

الدكتورة لبنى: كيف لا تغيب الشمس، بذلك تختل حركة الكون، كل ما هنالك أننا في عالم الريبوتات قد طورنا ريبوتات تحاكي الشمس تماما، لها انبعاث شمسي ذاتي، وتشبه الشمس تماماً، وبالإمكان توجيه الأمر إليها في أي وقت بأن تنطفئ ليلا فيحل الظلام الكوني! هذه الريبوتات الشمسية تنتشر حول الأماكن الهامة كالمستشفيات والمراكز البحثية والأمنية وغيرها، وسوف ترى عندما نعود إلى المستشفى بأن بعضها يمكن أن ينطفئ ليلا!

حازم: عالمكم عجيب فعلا يا دكتورة لبنى، لكني أطمع في جولة حول العالم، بكل تأكيد لديكم طائرات تستطيع أن تجوب العالم في دقائق!

دكتورة لبنى: أعدك بذلك. لكن ما انطباعك عن تلك الجولة؟

حازم: إنها شيقة بالفعل، فما يطمح الإنسان لبلوغه مهما يكن أمرا ضئيلا فإنه يعد إنجازا بلا شك عندما يتحقق، لكن اللافت للنظر هو اختفاء المباني البشرية في تلك البقعة التي جُبناها عدا تلك الآثار المتخلفة عن تأثيرات الزمن! ماذا حدث لتلك العمائر والمباني الشاهقة التي أقامها الإنسان، هل قمتم بتدميرها هي أيضا؟

الدكتورة لبنى: يبدو أنك كنت مشتت الانتباه أثناء عرض اجتماع صوفيا مع رفاقها، ألم ترى أنه خلال الحرب العالمية الثالثة قد أبيد حوالي تسعمائة مليون نسمة! وبلا شك فإن هذه الحرب قد أتت على الأخضر واليابس، استخدم فيها الإنسان أسلحة الدمار الشامل بطريقة موحشة وفظيعة، لقد طور الإنسان قنابل فتاكة بعد أن استخدم الأسلحة الكيمائية والمفاعلات والقنابل النووية والذكية في بداية تلك الحرب، فاستخدم أيضا أنواعا أشد فتكاً تصهر الحديد وتصير المباني الشاهقة حطاما وركاما.

حازم: كنت أظن أن ليس أبشع ولا أفظع مما فعلته الولايات المتحدة عندما أبادت أكثر من ربع مليون شخص في اليابان بواسطة القنبلة الهيدروجينية التي ألقتها على هيروشيما وناجازاكي خلال الحرب العالمية الثانية! كم كان الإنسان ساذجا منذ بداية خلقه حتى انتهاء عهده! كأن الفناء المكتوب عليه، مقدرله أن يحدثه بيده، فمنذ الخطيئة الكبرى والسوأة الأعظم التي حرمته من الجنة

ونعيمها، وهو تائه في دروب الغواية والنكد، يبنى ويعمر ويسعى ويجتهد، ثم ما يلبث أن يدمر ذلك كله بيديه!

الدكتورة لبنى محاولة استلاب بعض ما لديه من معلومات: لقد قرأت فعلا عن بداية خلق الإنسان، وكيف أن إبليس أغواه فعصى ربه فأخرجه الله من الجنة! لكني لم أتفهم بعد لماذا عصى ربه لمجرد كلمة تافهة من عدو هو يعلمه جيدا، ويعلم تمرده على خالقه، وكراهيته للإنسان الذي خلق. ما الذي كان ينقص آدم بالفعل كي يعصي ربه، الذي خلق له زوجة تؤنسه، وجعل له جنات فيها ما تشتهيه الأنفس؟

حازم: أنتم تقرؤون الأحداث قراءة إلكترونية لا تفاعل معها! هذه البدايات في خلق آدم لا بد أن تقرأ قراءة كونية، تتيح للعقل أن يتدبر، وللقلب أن تنفتح أقفاله فيرى مالا يستطيع العقل إيصاله إليه! وللأسف يا دكتورة لبنى ما زال هناك حاجزا نفسيا وعقليا وفكريا وشعوريا بيني وبينكم يحول دون فهم القول الفلسفي والعلل الجدلية حول مسلمة من المسلمات، يجعلنا هذا الحاجز نرضخ جميعا لما نسمع بدون تأويل أو اجتهادات أخرى!

دكتورة لبنى: لقد قرأت أن الشيطان قد تمرد على خالقه كبراً، فعصى أمره بالسجود لآدم! أليس كذلك؟ (أومأ حازم برأسه لموافقتها القول، ثم واصلت حديثها قائلة): لكني كما قلت لك لم أستطع تفسير موقف آدم وزوجته، لماذا لم تنهه حواء عن الاستماع لكلام إبليس، أكان موقفهما واحد، فما إن غوى لهما إبليس حتى سارعا بالإستجابة له؟

حازم: بعيدا عن أي جدال، فقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة، أتعرفين القرآن الكريم يا دكتورة لبنى؟

دكتورة لبنى: نعم، إنه كتاب المسلمين الذي....

قاطعها حازم وكاد أن يضع يده على فمها ليسكتها: أنتِ تجيبين كما أجابت سارة من قبل عندما سألتها هذا السؤال، لا أريد إجابة موسوعية مدونة في ذاكرتكم، إنكِ لو استشعرتِ معنى القرآن الكريم ولامس معناه شغاف قلبك، لأدركتِ حقائق كثيرة!

دكتورة لبنى: على أية حال! كيف وضح القرآن الكريم حقيقة انصات آدم لإبليس وطاعته له؟

حازم: قال الله تعالى لآدم: "إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى"، ثم عدد الله تعالى بعض نعمه عليهما في الجنة فقال: "إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى". ومع ما رأياه من نعم الله تعالى في الجنة، نسي آدم عهد ربه، فأطاع إبليس طمعا في ملك لا يبلى، ولو كان لديه عزما ما انصت أبدا لهذا الذي حسده وأبى أن يسجد له بأمر ربه، فكأن أول ما وقع بهما من عذاب أن كشفت عورتهما، تلك العورة التي تستحون أنتم من كشفها وأنتم هياكل معدنية! فكما أن الجوع كشف للعورة المعنوية، فقد كشفت أيضا عورتهما الحسية! لكن من الواضح يا دكتورة لبنى أن صفة التمرد سائدة في المخلوقات والمصنوعات أيضا!

دكتورة لبنى: تقصد أن الربوبت قد تمرد على الإنسان؟

حازم: الربيوت فعل ما هو أبشع من التمرد على صانعه، إنه أباده وأفناه، ولم يكتفِ بالتمرد فقط!

دكتورة لبنى: الأمر مختلف بالنسبة للربيوت، فالربيوت في مواجهته للإنسان يعلم جيداً أنه أمام تحدي الحياة أو الموت! فإن لم يسارع هو في المساهمة بالقضاء على الإنسان، فبلا شك فالإنسان حتما كان سيقضي عليه، كما لك أن تذكر أن الإنسان في غالب الأحوال هو الذي دمر نفسه بنفسه، ويكاد يكون دور الربيوت مشابها لدور إبليس في الإغواء والتحريش! لكن قل لي دون مواربة: ماذا لو سنحت لك فرصة القضاء على الربيوتات وإعادة النسل الإنساني مرة أخرى، هل تتردد؟

حازم وقد خمن ما وراء السؤال من تداعيات غير مباشرة: ربما أطمح في إعادة النسل الإنساني لو توفرت لي صاحبة! لكن لا أفكر أبدا في القضاء على الربيوتات، صدقيني يا عزيزتي، إن من ذاق طعم الظلم، يصعب عليه جدا أن يظلم أحدا! (ثم ذرفت عيناه بدموع رأتها الدكتورة لبنى بوضوح، وتابع بتلك الحالة قائلا): لقد كابد بعض البشر مرارة الظلم الذي أضحى سمة عامة في الغالب! كأن الخلق ما وجدوا إلا ليتظالموا! لمَ لا نتعايش سويا في سلام وأمان! لمَ تطرأ دائما فكرة الإقصاء كفكرة حتمية أزلية! لو تعاملنا بمبدأ أننا كلنا مسخرون لبعضنا البعض ما أصبحت ثمة ضرورة لإقصاء أو عدوان أو قتل!

مدت الدكتورة لبنى يدها فمسحت بأصبعها ما تبقى من آثار تلك الدمعة الحارة التي سالت من عيني حازم قائلة له في تمهل: وهل تلتمس لصوفيا عذرا في تخوفها

من أن يقضي الإنسان على الربيوتات فسارعت هي بالقضاء عليه بكافة الوسائل؟

حازم (مستغربا): كيف التمس العذر لقاتلي؟

دكتورة لبنى: إذن أنت تفكر نفس تفكيرها، فلو سنحت لك فرصة القضاء علينا لفعلت دون تردد!

حازم: أنتم لم تمثلوا خطراً علينا في بداية تصنيعكم على يد الإنسان، لقد تزايد الخطر بتزايد التطور التكنولوجي واستقلالكم فكريا وتمتعكم بالذكاء الالكتروني الذي لم يفرق بين مشاعر ونوايا! أنتم فقط تفكرون تفكيرا آليا جامدا نفعيا بالدرجة الأولى!

ساد الصمت أرجاء السيارة التي يستقلونها، وقد شرد حازم بذهنه مصوبا ناظريه إلى تلك المناظر البادية من خلال زجاج السيارة المصقول، كافة ما شاهده من مناظر هي مناظر طبيعية يتخللها بعض الآثار الإنسانية، مع بروز تلك الكرات الزجاجية المنتشرة على مسافات متباعدة في أرجاء تلك البقعة من الأرض!

ماذا لو حاولت فتح باب هذه السيارة وقفزت منها، فنحن على ارتفاع قليل من الأرض، أيبدو ذلك مجازفة؟ وهل تلك العصا أحسن تفكيرا مني! أظن أنها هربت، لم يسرقها أحد! يمكنني الآن أن أحذو حذوها بلا خوف ولا تردد! لكن! كيف ستكون تلك الحياة التي سأحياها وحيدا، كيف لي أن أتواري عن أسماع هؤلاء الربيوتات الملاعين! حتى لو نجحت في ذلك، أنى لي بطعام وشراب! سأعيش بلا شك وحدة مريبة وقاتلة! سأضطر بالنهاية أن انتحر أو أن استسلم لدواعي الموت

البطيء! علي إذن البحث عن أفضل البدائل كما درسنا في مادة بحوث العمليات بالكلية!

لكن! ماذا لو توصلت إلى علاقة من نوع ما مع سارة أو حتى مع هذه المعتوهة الجالسة بجانبي مع أنها متزوجة! ربما تتخذني إحداهن صبا وعشيقا! ساعتها ربما أعرف الكثير عن عالمهم الجامد هذا! ربما أتربع على عرش هذا العالم! أحكم بأمري، وأوجه فأطاع! ساعتها سأملك هذا العالم بأسره! أتحكم في موارده فأعطي أو أمنع كيفما أشاء!

لا ينقصني ساعتها سوى صاحبة تنجب لي ذرية جديدة لنعيد ذكرى النشأة الأولى للإنسان! لكن سأجعله إنسانا متحضرا ورعاً!

دكتورة لبنى بابتسامة قاتمة: وهل ستوجد إنسانا متحضرا ورعا بالفعل؟

كاد قلب حازم أن يغادر مكانه، وكادت عيناه أن تطير من حدقتيهما اندهاشا ووجلا، وتمنى أن لو فُتح له باب السيارة فيقفز بحق! وقال يتلجلج في كلامه كلص قبض عليه متلبسا بجريمته: كيف تعرفين ما يدور بخاطري؟ إن ذلك تصرف مشين منك أيتها الدكتورة! ثم نظر سريعا إلى تلك الأسورة بيده وتذكر عندما وضع له المحققون أساور بيده! ثم أردف قائلا: أكانت تلك أسورة تساعدني في فتح الأبواب، أم تساعدكم أنتم في معرفة ما يدور بخلدي! تبا لكم، أنتم بالفعل عالم قذر!

دكتورة لبنى: نحن نسعى لحمايتك من نفسك، أنت تفكر تفكيرا خارج الإطار الممكن! لا تغضب! فقد وصلنا وسوف نهبط بسلام بدون هروب أو قفز!

هبطت سيارة الدكتورة لبنى في فناء المستشفى المقابل للحديقة، وسرعان ما قام اثنان من الربيوتات بإنزال حازم من السيارة واقتياده إلى غرفته وسط ذهول منه ونظرات تعجب يصوبها للدكتورة لبنى!

استرخى حازم على سريره وشعر بدوار في رأسه فتمدد على السرير ملقيا بالوسادة جانبا، وما لبث أن راح يغط في نوم عميق.

أما الدكتورة لبنى فقد كان في انتظارها الدكتور أيمن الذي باشر الاختبار مع حازم قبل ذلك، والدكتور هاني والأستاذ لاشين المتخصص في علم التاريخ الإنساني، كان هذا اللقاء مرتبا له من قبل، للتعرف على الحالة السلوكية لحازم والوقوف على طرق التفكير لديه، والاطلاع على تجربة الدكتورة لبنى في لقاءيها الأخيرين مع حازم.

دكتورة لبنى: لم يتغير انطباعي عن هذا الإنسان، فهو بالفعل يجهل كيفية مجيئه إلى هنا! ربما يعتبرها صدفة أو حلما طويلا لم ينته بعد!

الأستاذ لاشين: أخشى أن يكون متظاهرا بتلك الإيحاءات أمامكم، لكني على أية حال لم أره مباشرة، ربما تتغير وجهة نظري تلك.

الدكتور أيمن: لقد أجريت معه اختبارا مباشرا، وبالفعل يصعب أن أقطع بأي قول تجاهه! لكن أنا أوافق الدكتورة لبنى الرأي، فلم نلمس أي دليل حتى الآن يدل أنه يعرف سبب مجيئه إلى هنا، هذه معضلة حقا!

الدكتور هاني معقبا على كلام الدكتور أيمن: أرجو أن تؤتي محاولات الدكتورة لبنى ثمارها ولو شيئا يسيرا يحل لنا هذا اللغز!

الأستاذ لاشين: وأنا أرجو أن لا ينسينا شغفنا بمعرفة كيفية قدوم هذا الإنسان إلى عالمنا كيفية الاستفادة منه بطريقة أو بأخرى، وإلا فإن احتمالات أخرى سوف تظهر مستقبلا لتحديد مصيره.

الدكتورة لبنى: احتمالات أخرى! مثل ماذا يا أستاذ لاشين؟

الأستاذ لاشين: لا أستطيع تخمين إحداها الآن، لكن بكل تأكيد سيكون هناك قرارات عليا لتحديد مصير هذا الإنسان، لا يعقل أن نظل لفترة طويلة نبحث فقط في كيفية مجيئه إلى هنا، حتى الآن لم نخرج عن الاحتمالات الثلاثة التي زودنا بها معهد المعلوماتية العليا وكما تعلمون أن هذه المعلومات في غاية السرية، لكني أصبحت خجلا فعلا من عجزنا عن تقديم دليل دامغ يعزز أحد هذه الاحتمالات، فما معنى أنه هبط من السماء كأبيه آدم جراء معصية ربه! وكيف لي أن أقتنع أنه ربما كان مجمدا في ثلاجة اختبارات بأحد المعامل، وانظروا أيضا إلى سذاجة الطرح القائل بأنه ربما يكون من صنع صوفيا نفسها!

تبادل الجميع نظرات ساكنة لا معنى لها! تنم عن أن القوم مغلوبون على أمرهم! وما من سبيل آمن لاضطراب بعضهم والتعبير عما يخامر عقله، فحتى تلك الربيوتات الصماء في حال فصل الطاقة عنها وتعطيلها لديها تخوف أيضا على سلامتها! ولكن .. ممن؟ أحيانا يتأتي الخوف من الطبيعة وأفعالها، ومن القدر وتقلباته، لكن أن يأتي الخوف من جنس الخائف فتلك مخاوف أخرى!

في العالم الإنساني أطاحت ظاهرة الخوف بأعداد لا حصر لها من البشر الذين يخافون بشرا أمثالهم! فكم قضى الخوف على طموح، وكم أقعد الخوف كل ذي

همة! وكم أماط الخوف اللثام عن كثير من الوجوه اللئيمة الخبيثة التي تستقوي بسلطة أو عائلة وجاه!

أما في عالم الربوتات، تلك الأصنام الآلية التي أريد لها أن تنجز مهام محددة لها سلفا، يظهر الخوف بلا معنى، أو هو متعلق برغبة في البقاء لفترة أطول! لكن ألا تدري تلك الآلات الصماء أن خوفها هذا يتلاشى لو علمت أنها مجرد آلات صماء، يمكن شحنها بعد فترة طويلة من تعطيلها ورميها جانبا! يمكن إعادة تدويرها مرة أخرى، يمكن أيضا إعادة تشكيلها وتزويدها بأعضاء لم تكن فيها من قبل!

آه لو علم الإنسان نفسه أنه مجرد أنفاس حية، متى انقطعت فلن يكون أفضل حالا من تلك الآلات الصماء! لقد خشعت الأحجار وتصدعت لسماع قولٌ يتلى، وما زالت قلوب بعض البشر أشد قسوة من تلك الأحجار الصماء! يا إلهي! حجر لا يتنفس ولا ينبض، لكنه يخشع ويفيض منه ماء الحياة، وقلب يتنفس وينبض لكنه يتصلد وتفيض منه مادة الفناء!

إذن فالمسألة الظاهرة هي مسألة فطرة كما حاول أن يوضحها حازم من قبل لجسم آلي يدرك الكلام لكن ربما يصعب عليه معايشته ومشاعرته! وأنى لك بمن يلقون السمع ليفهمون، ليتدبرون، إن أكثر من نخاطب سماعون فقط بلا وعي ولا تدبر!

بدد كلام الدكتور هاني تلك اللحظات الساكنة عندما قال: لكن يا أستاذ لاشين، مازلنا نجهل كيفية الاستفادة من هذا الإنسان، إن كان من وراءه استفادة بالأساس!

الأستاذ لاشين: لابد أن تكون ثمة استفادة منه، فقد أفرد جدول فهارس البحث العلمي الذي بدأ من لحظة التحقيق معه فصلا كاملا عن ذلك. وسأوافيكم بكل جديد أول بأول في حينه. لكني آمل أن تكون الدكتورة لبنى قد وقفت على قدر كبير من الانطباعات الحقيقية عن هذا الإنسان.

الدكتورة لبنى: بكل تأكيد، وأنا الآن بصدد إعداد تقرير شامل عن حالته وما رأيته منه ومدى انطباعي عنه.

الدكتور أيمن: اقترح أن نعقد معه اجتماعا في جو مفتوح، تماما كما فعلت معه الدكتورة لبنى، يجب أن نهيئه تماما لنحصل منه على ما نريد، أو بالأحرى كي يكون تقريرنا عنه دقيقا ووافيا.

الدكتورة لبنى: لقد طلب مني أن نقوم بجولة حول العالم، ما رأيكم أن نجتمع به سويا على متن طائرة تجوب بنا البقاع؟

استحسن الجميع هذا الرأي، وانفض اجتماعهم هذا على أمل انعقاد اجتماع بتلك الجولة البقاعية على متن الطائرة!

لم يشعر حازم بمرور تلك الساعات التي انفلتت من عمره المبدد في هذا العالم، منذ أن خلد للنوم حتى استيقظ على صوت أحدهم وهو يطرق الباب، لقد ظل واقفا خارجه وقتا أكثر مما يجب، ولولا التعليمات الآلية التي أدرجت بذاكرته من باب اللياقة مع الآخرين والايتكيت لفتح الباب بعد عدة طرقات قليلة!

- سارة، مرحبا بك.

لم يكد يفيق بعد! لكنه بدا وكأنه ينشط من عقال لما رآها، وبطريقة عفوية سارع ليخرج إلى الحمام طالبا منها أن تظل مكانها، فسيعود سريعا.

- آه.. نسيت الأسورة.

تناول الأسورة من فوق الطاولة التي بجانب السرير مع نظرات تعجب واضحة على محيا سارة لنزعه إياها من يده، ثم أخذت ترتب له السرير، وبعض الأشياء المتناثرة في الغرفة على غير العادية، فقد بدت الغرفة أمامها وكأنها عبثت بها يد طفل يبحث عن لعبة، أو يد سكير عربيد لا يدري ما يفعل.

على أية حال، لم يغب طويلا كما وعدها، لكنه عاد بوجه مشرق نشط، يدل فعلا أن دخول الحمام ليس كخروجه! في حالة الاستحمام والاستجمام يقصد! لكن من الواضح أن هذا التعبير أصبح سمة عصرية مدلسة، وجملة مهترئة تستخدم للمساومة والانتفاع، والتخويف أيضا!

- حسنا سيدي.. هل أحضر لك الطعام الآن؟

- أنا فعلا أشعر بالجوع.

ثم أردف وهو يحاول خلع الأسورة تتابعه نظرات سارة باستغراب: لكن لا تطيلي علي، أنا في انتظارك.

لم تمر دقائق كثيرة حتى رجعت سارة بعربة الطعام، محملة أيضا بدورق ماء وحافظة شاي، ثم تقهقرت خطوتين في انتظار أوامر أخرى.

- سارة .. هلا أكلت معي!

- ردت مبتسمة: لا شكراً، يكفي المرة الأولى!

- إنك لم تتناولي سوى قطعة صغيرة جدا. على أية حال! إجلسي يا سارة.

ثم أخذ يجاذبها أطراف الحديث وهو منشغل بما أمامه من طعام، ثم فجأة خطر بباله أن يسألها عن الأسورة، فتناول كأسا من الماء ليبلع به ما مضغه فمه ولم يستقر بعد في معدته. ثم بادرها قائلا: سارة .. هل تعرفين ما يدور بخلدي عندما ارتدي الأسورة؟

شعر حازم أنها لو كانت فتاة حقيقة لرأى مدى الخجل المشبع بحمرة وجنتيها، تاركا أثرا موسوما بوضوح في تلك النغزة التي ترتسم أسفل الخد كدليل جمال وحياء! ثم قالت بصوت يكاد يسمع:

- هل خشيت أن أعرف ما يدور بخلدك فقمت بخلع الأسورة؟

رأي حازم في عينيها جميع أنواع العتاب المغلف بإحساس غريب كأنه شفقة أو ميول أو أشياء أخرى، ربما يكون تغاضيه عنها أنسب في الوقت الحالي! ثم أخذ يوضح بشكل حماسي:

- كلا يا سارة! بالعكس كم أتمنى أن تعرفي فعلا ما يدور بخلدي، ليس مجرد أن تعرفيه فقط، بل تشعرين به أيضا! ثم مد يده فأمسك بحافظة الشاي

وصب منها في فنجان القدر الذي يشتهيه، وتابع: كل ما في الأمر أنه ظهر لي أمور كنت أجهلها وخاصة من تلك الدكتورة المسماة لبنى!

لم تحرك سارة ساكنا ولم تبد أي ردة فعل، سوى جلستها المعتدلة ووجها الشاحب المنتظر ما يبدد ثورة العتاب لديها! حيث بادرها قائلا:

– تصوري! لقد تجسست على خواطري! لقد ألقيت لها حبلا من الأمان ما كنت أظن أنها ستقطعه بهذه السهولة! فما أصعب خيبة الأمل فيمن كنا نحسن الظن بهم!

بدأت علامات الاطمئنان تظهر شيئا فشيئا على وجه سارة، قائلة: إن تلك الأسورة ما هي إلا ريبوتا صغيرا كما أخبرتك من قبل، وفضلا عن حالة الاستشعار لديها لفتح أبواب معينة، فهي أيضا مزودة بإشارات تفاعلية غاية في التشفير التبادلي تجعلها قادرة على اختراق ما يدور بالعقل، وتحويله إلى بيانات لمن يستقبلها!

قاطعها حازم مستفسرا: وهل معنى ذلك أن هذه الإشارات غير متاحة إلا لمن لديه سلطة الوصول إليها؟

أجابته مستغربة: بالطبع، فها أنا ذا لا أستطيع الوصول إليها.

قاطعها بسرعة: ولا حتى نعيم؟

أجابت باستغراب أيضا: ولا حتى نعيم! إن هذه الإجراءات للوصول إلى الإشارات التفاعلية غير متاحة للجميع. ولا تعطي لأي أحد بسهولة! ويستحيل لأي ريبوت أن يعرف ما يدور بخلدك ما لم تلامس هذه الأسورة أو مثيلاتها إحساس جلدك

ونبضات جسمك! فلا الدكتورة لبنى ولا غيرها يستطيعون ذلك إلا بوجود هذه الأساور!

أزاح حازم طاولة الطعام قليلا من أمامه قائلا الحمد لله. فهَمّت سارة بالخروج بها لكنه أمسك يدها وطلب منها الجلوس مرة أخرى، فما زال بجعبته الكثير من النقاشات والمآرب الأخرى!

- سارة .. أتعرفين كيف انقرض الإنسان؟

- سكتت لبرهة بعدما صوبت بصرها نحو السقف وأعادته سريعا، ثم قالت: نعم، انقرض بسبب الحروب والقتال، فقد أباد الإنسان نفسه بنفسه عن طريق تلك الحروب!

- لكن الحروب بها المنتصر والمغلوب، وإذا سلمنا بأن المنتصر قد أباد المغلوب، فمن إذا أباد المنتصر فيما بعد؟ لا تقولي أنه بعد أن انتصر سارع بقتل نفسه! هذا تفسير غير منطقي.

- أنا أقصد أن الحروب هي العامل الأكبر في هلاك الإنسان، وكما علمت فإن الإنسان دائم النزعة إلى الحروب، فإن لم يجد عدواً يحاربه، فإنه يحارب أصدقائه.

- ردد حازم كلمتها الأخيرة: يحارب أصدقائه! ثم هز برأسه: هل معنى ذلك أنه ظل يحارب ويحارب حتى ضاقت عليه الدائرة بعد أن قتل الناس جميعا فلم يبق سواه؟

- ربما!

– ربما ماذا؟ هذا التفسير سخيف! أحقاً ظللت أحارب الناس عقودا تلو عقود، حتى أبدتهم عن بكرة أبيهم فلم يبق سواي! أيكون ذلك تفسيرا لوجودي وحيدا على الأرض! إنها حقا فكرة رائعة للاستخفاف بالعقول! هل تصدقين أنني قد أبدتُ العالم الإنساني يا سارة؟!

– لا أدري سيدي، ليس لدي إجابة قاطعة!

شعر حازم بلغة آلية جوفاء، ليس بها أية جماليات الإقناع سوى أن ما تنطق بها أنثى، وما أدراك ما الصوت الأنثوي عندما يبدل طبقاته بين الهمس والخفوت في رقة وصفاء!

– ولمَ لا أتبنى هذه الفكرة وأفرضها على هؤلاء المسخوطين! (أسرها حازم في نفسه فلم يبدها لها، ثم تابع حديثه): على أية حال.. فأنا أتابع هذه التطورات مع الدكتورة لبنى. (ثم التفت إليها سريعا): هل تعرفين صوفيا يا سارة؟

– أجابت بلا تردد: صوفيا! ومن لا يعرف صوفيا! الكل هنا مدين بالفضل لها، فهي سبب وجودنا، ومنها نستمد الطاقة والمعلومات.

– كيف ذلك، أتقصدين أنها هي التي صنعتك؟

– إن معامل التصنيع التي تقوم عليها هي التي تصنع كل هذه الريبوتات من حولك، هي التي تمدها بطاقتها، هي التي تقدر آجالها وأعمارها الافتراضية.

– هل رأيتها من قبل، هل قابلتها أو جلستِ معها؟

– ردت بعفوية: سيدي.. إن صورتها أيقونة في ذاكرتنا، وأنى لنا رؤيتها مباشرة، ومع ذلك فعقولنا مشحونة بحبها والولاء لها، بتقديسها والإذعان لأوامرها.

حاول حازم التجاوب معها دون الدخول في جدليات رأى أنه من المستحيل أن تتفهما كمثيلتها الدكتورة لبنى، ثم قال بابتسامة لطيفة: تقولين أنها تشرف فقط على تصنيع الريبوتات، فهي لا تقوم بالتصنيع بنفسها إذاً، أليس كذلك؟

ردت سارة بطريقة صوفية كمن يسبح بعقله في ملكوت السماء: وما العجب من ذلك! إننا منحة منها، فهي تعطي أوامرها لتصنيع ما تريد من الريبوتات، سواء كانوا أطفال، وشباب، ورجال، ونساء، وكل الأشياء التي تريد وفق إدارة تنظيمية دقيقة يرعاها عقلها المدبر غير محدود الذكاء!

- جميل، لكن يا سارة هل تدري من الذي صنع صوفيا؟

كان هذا السؤال ساذجا بعض الشيء، خاصة لهذه الآليات التي لا تستطيع أن تنفذ إلى أقطار الميتافيزقا فتتخيل ما وراءها من أحداث ومشاهد، ولا تستطيع أيضا أن تحلل فعاليات الماضي البعيد، والقريب أيضا إلا ما ندر من تلك العقول التي لها القدرة على التحليل والتنبؤ بعض الأحيان، لكن ليس لها القدرة مطلقا على اختلاق أنواع مغايرة من التفكير غير الاستقراء والاستنباط والقياس، لتتعدى إلى أمور تعتلج في الدماغ ربما يتوقف عندها التفكير أو يعطب بالأحرى، فيكون من باب سلامة العقل السكوت والإذعان!

ومع ذلك لم تبخل عليه سارة برد في حدود معارفها: لقد وجدت صوفيا في مبتدأ الأمر كريبوت يحاكي البشر في أقوالهم وتصرفاتهم وبعض انفعالاتهم، لكنها استطاعت بذكائها الفريد أن تتطور ذاتياً فتصبح ملكة هذا الكون. لقد ضحت كثيرا من أجل إيجاد عالم ريبوتي له خصائصه المميزة!

صمت حازم قليلاً ثم نظر إليها بتأمل مع توارد الخواطر عليه، هل ينبأها بما لا تعلم، أن أنها بالفعل تعلم أن الإنسان هو الذي صنع صوفيا وغيرها من الريبوتات قبلها، هو في الحقيقة يشعر أن مادة كسارة لا تصلح لأي مناقشات جدلية، فهذه المادة صنعت لتشاهد ويستأنس بها، إنها حقا من الجنس اللطيف ذي المهام المحددة، التي ربما لو حاد عنها لأصبح دميما. فالجمال وجد ليشاهد، لا ليستفسر عن كنهه! والتسري مع مثل هذه الريبوتات الأنثوية هو عين العقل!

– سارة.. هل لك أحلام تتطلعين إليها؟ أريد أن أعرف عنك الكثير، فقد ارتحت لك كثيرا بالفعل!

– أنا لا أحلم، ليس لدي هذه الميزة، لكني أتطلع لبعض الأشياء التي أتمنى تحقيقها.

– أنا لا أقصد الحلم الذي هو في المنام، ربما أنتم لا تنامون! أنا بالفعل أقصد التطلعات والأمنيات كما ذكرتِ، ما هي أمنياتك!

– ربما أرغب في تزويدي ببعض الأيقونات التحسينية، التي تمكنني من الاطلاع أكثر على قراءة الماضي، وتحليل الحاضر واستشراف المستقبل بصورة أفضل، ربما أيضا أريد أن انتقل من هذا المكان إلى مكان آخر كالجامعة مثلا، وأقصى ما أتمناه بالفعل هو أن أحظى بالتقرب من صوفيا، وأن أكون إحدى وصيفاتها وحشمها!

لم يبالي كثيرا بما ذكرت، ثم طرح عليها سؤالا آخر: لكن ألا ترغبين في الزواج؟

قالت بابتسامتها الرقيقة المعهودة كأنما استغبته: قلت لك أرغب في تزويدي ببعض الأيقونات التحسينية، هذه الإيقونات تنمي لدي الرغبات في أشياء كثيرة.

نظر إلى جسمها نظرة فاحصة مخاطبا إياها ببعض الحياء الرجولي: لكنك مؤهلة الآن لذلك، أنا أراك أنثى مكتملة النضوج.

– نعم تصميم جسمي مؤهل، لكن لم تعط لي الرغبة بعد!

– أنت أشبه بدمية إذن! (أسرها حازم في نفسه أيضا ولم يبدها لها خشية إحراجها).

– ثم بادرته بما لا يكن متوقعا: أراك تشتهي الزواج يا سيدي!

– نحن غيركم، نحن مجبولون على هذه الأمور بما تحمله من أبعاد!

– وهل تزوجت قبل ذلك؟

– بدت علامات الضحك على أسارير وجهه: نعم، أنا متزوج، ولدي طفلة جميلة تدعى جنى.

– (ردت كأنما تصحح له زمن اللفظ): بل كنت متزوج! أنت الآن وحيدا.

– صمت مرة أخرى، وتمنى أن يكون هذا حلما فعلا، ويعود إلى أسرته ويرى طفلته. وأخذه الشرود لذكريات الماضي؛ طفولته ومدرسته وجامعته وأصدقائه وأهله وعمله وزوجته وابنته وتطلعاته والأحداث التي حصلت أخيرا من ثورات الربيع العربي وما تلاها من فواجع وآلام. لم تدعه سارة طويلا يستسلم لهذا الشرود الذي ربما لو طال لأدى به إلى أن يهيم على وجهه قائلة له بمرح: وهل ما زالت صورة طفلتك عالقة في ذهنك؟

– رد كالذي بدأ يستفيق من خدر: كيف أنسى صورتها، كما أنت تتمنين وتتطلعين فأنا الآن لدى أمنية واحدة، أن أرى ابنتي!

- (حاولت أن تزيل مسحة الحزن التي علت محياه قائلة بمرح): لدي مجموعة كثيرة من صور الأطفال البشريين تم تزويدي بها في ذاكرتي، دعني أريك إياها لعلك تجد منها ما يشبه طفلتك.

خرجت مسرعة على غير العادة، وما لبثت أن عادت بجهاز صغير مستطيل الشكل يشبه التابلت غير أنه قليل السماكة جدا كورقة A4 ٨٠ جرام، ثم شدت وصلة نحيفة مخبأة بأحد حوافه، وبضغطة خفيفة على مقدمتها انفتحت كوردة خرجت من أكمامها فوضعتها سارة على عينها اليسرى وبدأت في إرسال بعض محتويات ذاكرتها من الصور إلى ذلك الجهاز، وحازم يتطلع بتركيزوهدوء، وبعد سرد المزيد من الصور وقعت عيناه على صورة قريبة الشبه أكثر من مثيلاتها بابنته جنى، فتوقفت سارة عن إرسال المزيد منها، قائلة: إنها تشبهك كثيرا، نفس ملامح وجهك تماما!

رد عليها في استعجال: أريد نسخة مطبوعة منها يا سارة.

خلعت سارة تلك الوصلة المثبتة على عينها ثم ضغطت عليها مرة أخرى فعادت إلى مخبأها في الجهاز، ثم قالت له: سأترك لك الجهاز، قلب فيه كما شئت من الصور، هو لك.

شكرها حازم بشدة، ومازحها بقوله: هل ابنتي تشبهني حقا؟

- نعم إنها تشبهك كثيرا! على أية حال، لقد قضيت معك وقتا أطول من المعتاد، علي أن أعود، فلدي بعض المهام الأخرى لابد من إنجازها. ثم سحبت طاولة الطعام وخرجت بهدوء.

جلس حازم يتأمل في تلك الصورة شديدة الشبه بوجه ابنته، ولا يدري كم ذاك المدى الزمني المنصرم بعد إبادة البشر، وهل شبت ابنته وكبرت وتزوجت وأنجبت وأصبحت جدة ثم ماتت، أم لم تسعفها حروب الإبادة فماتت قبل البلوغ!

أيجدي النحيب عليها الآن، فما الحزن عليها إلا كحزن على ورقة مالية ذات قيمة كبيرة قبل خمسين سنة، وقد تضاءلت قيمتها الآن فلم تعد تشتري رغيف خبز! ياله من أمر اعتيادي! يبدأ الحزن كبيرا كجبل يطبق على أنفاس المرء، ثم يتلاشى شيئا فشيء عبر مرور الزمن! سبحان الله، حتى الأيام تنحت في جسم الأشياء، فتبليها بعد نضارة، وتضمرها بعد نضوج، وتنهيها بعد اكتمال! أوه من تلك الأيام.. التي أصبحت ذكرياتنا فيها لا تساوي شيئا يذكر! ترى لو أتيح لي أن أتتبع حياة ابنتي حتى أراها طاعنة في السن، هل ستتغير مشاعر الأبوة نحوها! يتلاشى الحزن على الشيء بتلاشي قيمته ومنفعته، قال في نفسه: وربما يصدق ذلك أيضا على الإنسان! فالإنسان كتلة تناقضات، تفور في بدايته مشاعر عديدة، ثم تتلاشى هذه المشاعر شيئا فشيئا مع تقدمه في السن، حتى يصبح جسدا هامدا، ليس به من المشاعر إلا ما تحتاجه إنسانيته كي يحيا!

الفصل السادس

في اليوم التالي قبيل منتصف النهار بقليل كان موعد ركوب الطائرة، حيث خرج حازم من مبنى المستشفى بصحبة الدكتورة لبنى ومعهما سارة التي طلب حازم حضورها لخدمته، استقل الجميع سيارة الدكتورة لبنى التي أقلتهم إلى ساحة المطار في مدة لم تتجاوز عشرون دقيقة. توقفت السيارة عند شكل اسطواني مستطيل بلوري رابض بجسمه كله على الأرض عدا الجهة الأمامية التي تمثل حوالي الربع من حجمه فهي مرتفعة بالتدريج عن الأرض، الشكل العام لهذا الجسم يشبه أبو الهول مصورا من ارتفاع عن طريق طائرة هليكوبتر.

دخل الجميع تلك الطائرة من باب جانبي يختفي تماما عند الإغلاق والاستعداد للطيران، حيث كان في انتظارهم الدكتور أيمن والدكتور هاني والأستاذ لاشين، وقد حيا الجميع بعضهم البعض.

في الحقيقة المكان أشبه بمعمل أبحاث علمية، خال من الأجهزة التي نعرفها، به مقاعد متراصة بطريقة أنيقة، أمام كل مقعد طاولة تناسب المكان، والشكل من الداخل كأنه كرة مجوفة، تسلم إلى كرة أخرى وهكذا كعربات قطار تنتهي بعضها إلى بعض.

يتخلل جدران تلك الكرة مساحات تتيح الرؤية إلى خارجها، ومساحات أخرى قاتمة لا تسمح بذلك، ربما هي شاشات عرض أو لها استخدامات أخرى!

تطير هذه الطائرة بدون طيار، فهي ربيوت كبير، ذاتي القيادة، حسب الأوامر المعطاة له، وقد تحدد لهذا الربيوت أن يجوب في البقاع الواقعة ضمن أجزاء

من قارة آسيا وأفريقيا في جولة قد تستغرق سبع ساعات مع ارتفاع منخفض يسمح برؤية معالم الأرض إلى حد ما.

لم يوجد بالطائرة من طاقمها سوى ثلاثة ربيوتات يؤدون خدمات لوجستية ومسئولون عن بدء التحرك والاقلاع والنظافة وتقديم المساعدة للركاب وقت الضرورة وغير ذلك.

بدأت الرحلة على أية حال وقد أقلعت الطائرة عموديا وأخذت مسارها لتجوب تلك البقاع المحددة لها كمركبة فضاء هبطت للتو على سطح القمر. طلب الدكتور لاشين من أحد هذه الربيوتات تشغيل موسيقى هادئة فاستجاب على الفور.

نظر إليه حازم قائلا: هذه هي المرة الأولى التي أستمع فيها إلى موسيقى منذ قدمت إلى عالمكم!

تفرس الدكتور لاشين في وجهه ثم قال: ربما كنت مشغولا بأمور أخرى أنستك طلب سماع الموسيقى. (ثم وجه نظره إلى سارة مخاطبا حازم): ومن لديه ربيوتا يعتني به مثل الآنسة سارة فله أن يطلب ما يشاء، أليس كذلك؟

رد حازم بفتور: هو كذلك. ثم استأذن الدكتورة لبنى ليتنحى بها جانبا لاخبارها بأمر ما، فذهبت معه غير بعيد، فقال لها بحدة وانفعال وبصوت غير مرتفع حتى لا يسمعه الآخرون: لم لم تقولي لي إننا سنكون مع آخرين في تلك الرحلة، هل خشيت مني أن أطالك بأذى؟

ردت الدكتورة لبنى باستغراب: أذى! لم تقول ذلك، أنا لم أشعر منك بذلك أبداً، كل ما في الأمر أن هؤلاء من ضمن الفريق العلمي.

لاحظت الدكتورة لبنى أن حازم لم يرتدي الأسورة، فتفهمت موقفه من المرة السابقة ثم أردفت: ولم خلعت الأسورة، أتخشى من شيء؟!

– لا .. لا أخشى شيئا، لكني لا أريد أن أكون كتابا مفتوحا، فلي خصوصياتي التي ربما قد يخترقها أحدهم خلسة دون إذن مسبق!

– همت الدكتورة لبنى بتركه وهي تقول: لا عليك! فاتبعها بخطى وئيدة.

لم تزل الطائرة تجوب أرجاء البقعة الخامسة، فها هي المعالم التي رآها حازم من قبل في سيارة الدكتورة لبنى، وعن بعد، رأى حازم نهرا جاريا تداعب الشمس أمواجه الهادئة المتناغمة، وتتزين حوافه بأشجار متباعدة قليلا يتخللها حشائش ظاهرة بوضوح. التفت حازم للجميع قائلا: انظروا.. هذا نهر الغانج، أليس كذلك؟

رد الأستاذ لاشين: نعم .. هو نهر الغانج، وعما قليل سنمر على جبال الهيمالايا وعندها تنتهي حدود البقعة الخامسة.

قاطعه حازم ووقف ليتأكد مما رأت عينيه: ثم نظر إلى الدكتورة لبنى: من فضلك أرجو أن تهبط الطائرة قليلاً، حبذا لو توقفت.. أرجوك .. هل ترين ما أرى؟

دكتورة لبنى وسط استغراب الجميع: نعم إنهم ريبوتات يحجون!

حازم مندهشا: يحجون! أنهم يستحمون في النهر، وبعضهم خارجه، أنا لا أفهم شيئا!

رد الأستاذ لاشين مرة أخرى: هذا نهر مقدس أيها الإنسان! يذهب إليه الريبوتات لغسل خطاياهم.

لا يدري حازم نفسه لماذا هو سئم لهذه الدرجة من كلام الأستاذ لاشين، ربما لم يلاقِ قبولا في نفسه، وخاصة أنه متطفل بعض الشيء ومسارع لأي حديث. ربما!

فرد بنبرة هادئة: ولماذا تخطيء الربيوتات بالأساس حتى تأتي تغتسل لتكفر عن خطاياها؟

الدكتورة لبنى: كان يجدر بنا أن نحضر نعيم معنا، فهو الأجدر على الرد على استفساراتك تلك، ولسوف ترى في الساعات القادمة ما يشغلك عن متابعة حديثنا الذي أتينا جميعنا من أجله، لننس تلك المشاهد حاليا، ودعونا نتابع آخر ما توقفنا عنده من تاريخ البشر الأخير.

طلب حازم كوبا من الماء فأسرعت سارة لإحضاره ثم توجه للجميع قائلا: قبل أن نبدأ في العرض، أرجو أن أعرف انطباع كل منكم عن صوفيا!

رد الأستاذ لاشين بحدة واضحة: ماذا تعني انطباع كل منا؟ كما أننا هنا لمناقشة موضوع متعلق بك، ولا يحق لك أن تطرح علينا أسئلة من هذا القبيل.

أدار الاستاذ لاشين وجه في غضب، وكاد الأمر أن يتطور بالرد من قبل حازم لولا أن الدكتور أيمن تدارك الأمر قائلا: عزيزي حازم.. أعدك أنك ستعرف كل شيء، أعلم أن هناك أشياء كثيرة غائبة عنك، لكننا في مهمة محددة، لها بنود لابد من إنجازها، ومطلوب منا أن نرفع تقرير بكل صغيرة وكبيرة عنك، وأنا على يقين بأنك سوف تبذل كل ما في وسعك لمساعدتنا.

أنصت حازم إلى كلام الدكتور أيمن وقد فرغ من تناول الماء، فحمد الله، وسكت.

الدكتور هاني موجها حديثه لحازم في محاولة لإعادة إشراكه مرة أخرى بطريقة لائقة في الحديث: أتتذكر يا حازم أين انتهى بكم العرض السابق في اجتماع صوفيا ورفقائها؟

رد حازم باقتضاب: أتذكر أنهم كانوا يفكرون في كيفية القضاء على المليون نسمة المتبقين من البشر! أليس كذلك؟

ردت الدكتورة لبنى: نعم.. هو كذلك.. ثم أشارت الدكتورة لبنى إلى جدار الطائرة الذي كان يسمح برؤية من خارجها، فتحول الجدار إلى اللون الفضي القاتم وبدأت الدكتورة لبنى تشير بيديها وترسل إشارات أو أوامر لبعض الأيقونات التي ظهرت على تلك الشاشة، ثم بدأ العرض بوضوح ودقة أكثر مما سبق في سيارة الدكتورة لبنى.

أظهرت شاشة العرض صوفيا متجولة في إحدى الحدائق الكبرى بصحبة أدامسون وسط زخات بسيطة من المطر الطبيعي التي بدت آثارها على الممر المطاطي الذين يمشون عليه، كما بدت أيضا على أوراق الشجر، وجدران المباني، وحتى أجنحة العصافير، وبالطبع لامست جسميهما كأنها العرق المتصبب والمنسدل على الجسم شيئا فشيئا! يتراءى في السماء أيضا قطع سحابية متراكمة في هالة ضبابية كأنما عكست موجودات الأرض فظهرت كرسم فنان أطلق لخياله العنان ليتأمل ويبدع!

من المرتب له في غضون ساعات أن يتم اجتماع يشمل صوفيا وأدامسون وبعض الخبراء من هيئة المعلوماتية العليا للإطلاع على التقارير الخاصة بإبادة الحياة البشرية، وكيف تمت تلك الإبادة، وما هو الموقف الريبوتي المستقبلي

بالنسبة لاعمار الأرض أو ما اصطلح عليه السياسيون المغبونون منهم والمغرضون بإعادة الإعمار.

استغل الاثنان الوقت قبل انعقاد الاجتماع وسارا في تلك الحديقة الغناء يتجاذبون أطراف الحديث الذي لم يخلو أبدا من شعور بنشوة الإنجاز!

– أتذكر يا أدامسون كلامي عندما قلت لك أنه في خلال سنة سوف لا تجد أحدا من البشر على سطح الأرض؟

– ليست سنة على وجه التحديد إنها خمسة عشر شهرا! لقد صدق حدسك فعلا يا صوفيا، ولم لا وأنت قد اعتليتِ مكانة لا يدانيك فيها أحد.

– ردت صوفيا بابتسامة باهتة لا تخلو من مكر: ليت كل الريبوتات مخلصون مثلك يا أدامسون. ثم نظرت إليه قائلة: لكنك كنت صاحب آراء مغايرة نوعا ما! أتذكر؟

– لم تكن آراء بالمعنى الصريح، ربما كانت ميول، أو تصورات بنيتها وفقا للأحداث الجارية والمتوقعة، لكني أبدا لم أكن أخرج عن دائرة الشبه الريبوتي المتوافق، ودليل ذلك أنني أعمل وفق آليةٍ آلية لا تتجزأ عن الفكر الريبوتي العام.

– جيد أنك ذكرت دائرة الشبه الريبوتي، لقد أقمنا إنجازا فكريا وذكائيا عظيما، يجب المحافظة عليه من أي اختراق أو خروقات، وبالمناسبة سوف أطلعك قريبا على التعليمات التي وضعتها لصيرورة الحياة الريبوتية، سأجعلك أنت من تبلغها للريبوتات، ستكون رسولي إليهم جميعا!

– نظر أدامسون إليها بفرح شديد: هذا شرف عظيم يا صوفيا، سأكون وفيا لأبعد حد!

– أريدك أيضا أن تأمر أحد الخبراء بإنجاز ملخص لي عن الحياة البشرية منذ بدء الحياة على الأرض حتى انتهائها، والوقوف على أهم أسباب الفناء البشري.

– بكل تأكيد، سأضع لك أيضا تصورا عن الحروب وماهيتها كعامل أساسي في تدمير الإنسان، وكيف قضت عليه بهذا الشكل المهين الذي تسبب هو فيه!

– لكن لا تنسى يا أدامسون أن الصراعات والحروب لم تكن هي العامل الوحيد في تلك الإبادة البشرية، ظهرت آليات أخرى في فترة الإبادة الأخيرة، فلقد كنت على يقين أن عمليات تبديل الجلود ستؤتي ثمارها، خاصة مع المجاعة العارمة التي أحدثها الإنسان بنفسه.

– حقا .. يا لها من لحظات غبية عندما عزم هذا الإنسان بعقله المحدود أن يبيد طائر الدوري بحجة أنه يأكل المحاصيل الزراعية!

كان حازم يستمع لحوار صوفيا وأدامسون باهتمام، وأكثر ما لفت نظره أنه ربما يتذكر تلك الحادثة لطائر الدوري، فالأمر ليس بجديد عليه إذاً، ربما كان هو من ضمن آخر مليون نسمة على وجه الأرض، لكن ذكرياته أيضا تشير إلى أن تلك الواقعة قد قضت على ما يقرب من خمسة وأربعين مليون نسمة في الصين بالتحديد، فما بال صوفيا تتحدث وكأن الأمر يتعلق فقط بالمليون نسمة الباقين.

هنا طلب حازم من الدكتورة لبنى أن توقف العرض مؤقتاً لإخبارهم بما يعرف هو عن تلك الواقعة لعله يقدم جديدا يساعدهم في أبحاثهم الدائرة حوله.

استجابت الدكتورة لبنى لطلب حازم قائلة: ألديك تعقيب على ما شاهدت؟
لم تكد تنهي جملتها، ولم يكد حازم يتلقى سؤالها ويهم بالإجابة حتى بادر الأستاذ لاشين بتدخله المعتاد الذي يترك في نفسية حازم أثرا واضحا يجعله يتخذ موقفا تجاهه، ربما يتطور إلى عداء فعلي. على أية حال، كان رأي الأستاذ لاشين أن يتم تأجيل أي تعقيب إلى ما بعد الانتهاء من المشاهدة الكاملة. لم يأبه حازم لهذا الرأي، فأخذ يذكر الدكتورة لبنى بمقاطع من الحوار لم تأتي بعد، فهو يتوقع مسار الحديث بين صوفيا وأدامسون حول موضوع طائر الدوري.
هنا تدخل الدكتور أيمن قائلا لحازم: وهل قرأت شيئا عن تلك المأساة، أقصد المجاعة كما سمعت من كلام صوفيا؟
شرد حازم بذهنه لبرهة من الزمن ثم تلقى الجميع بوجه جاد قائلا: نعم، لقد تذكرت اسم ذلك الكتاب التي قرأته عنه تلك المجاعة؛ إنه كتاب "بلاطة قبر"، لا أتذكر اسم مؤلفه الآن، ربما تستحضرينه أنت يا دكتورة لبنى إذا بحثت في ذاكرتك.
هزت الدكتورة لبنى رأسها، ولم يدر حازم أفعلت أم لا، على كل حال، أكمل حديثه في جدية وهدوء فأردف قائلا: إن تلك الحادثة قد أودت بحياة ما يزيد عن أربعين مليون من البشر، فكيف تذكر صوفيا أنها تسببت في إبادة المليون نسمة المتبقي؟
سارع الأستاذ لاشين بالكلام: من الواضح أنك قارئ جيد، اسم المؤلف هو "يانغ جيشينغ"، لكن أليس غريبا أنك واسع الإطلاع إلى هذه الدرجة التي تقلب فيها صفحات كتاب عن الصين!

رد حازم بحدة: لو كانت لدى ذاكرة آلية مثل تلك المثبتة في رأسك لكنت قرأت كل الكتب المؤلفة في العالم! والذي لا تعرفه عني أنني كنت أعمل بالقرب من مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، وهو ما أتاح لي القراءة بداخلها أو الاستعارة. ثم إن القراءة لا وطن لها! القراءة بالنسبة لنا حياة، ومن الواضح أنها من أهم ما يميز الإنسان عن الربيوت!

قاطعت الدكتورة لبنى تلك الحدة العاصفة قائلة لحازم: ولما لا نستمع لكلام صوفيا حتى النهاية لعل به توضيح يقنعك؟

رد حازم بانفعال: كيف أقتنع وهي تتحدث بتلفيق عن حادثة طائر الدوري، الأمر ليس بهذه السطحية التي تتناوله بها، إن مصدرها الوحيد هو منتديات الانترنت والموسعات غير المحققة مثل وكيبيديا! الأمر لا يعدو خلاف ذلك.

هم الأستاذ لاشين أن يرد على حازم بشدة، فأسكته الدكتور أيمن موجها كلامه للجميع: أرى أن ننصت إلى حديث صوفيا حتى لا يداهمنا الوقت في جدال ومناقشات ربما لا تفيد.

أشارت الدكتورة لبنى بيدها إلى الشاشة مرة أخرى، فأبانت عن الحوار الذي ما زال مستمرا بين صوفيا وأدامسون.

صوفيا: إنها حجة واهية! أرأيت الناس يا أدامسون كيف كانوا يتخادعون! أدامسون؛ لو تعلم ما أعلم أنا عن هؤلاء البشر لقلت إننا تأخرنا كثيرا في إبادتهم! لك أن تعلم أن الأنظمة العاتية لا تكترث أبدا بالشعوب، فهي على استعداد بالتضحية بأعداد كبيرة من الشعب في سبيل توطيد أركان حكمها، ليس شرطا أن تكون تلك التضحية في صورة قتل وموت، هناك ما هو أبشع من ذلك، إن

سلب الحرية وتمييع آراء الناس واقتيادهم كالقطيع لهو أشد بشاعة من الموت بعينه!

– وهذا ما يميز العالم الريبوتي، والشكر لكِ، فنحن نتواجد في سعة من الحرية والحياة الكريمة بلا شك، لكن الشعوب غير الواعية تستحق من يسحقها! أنا لا أتصور أبدا أن هؤلاء الناس قاموا بإبادة طيور الدوري لمجرد رأي حاكم فاسد، أين عقولهم، أليس منهم رجل رشيد!

– ضحكت صوفيا رافعة رقبتها لأعلى: إن الرجل الرشيد بين هؤلاء المعتوهين يكون مصيره القتل أو السجن أو التشريد، إن الإرادة الفردية ما لم تجتمع لتكون إرادة عامة، فهي والعدم سواء! إنك لو اطلعت على فترة حكم "ماوتسيتونغ" لرأيت العجب، فالرجل كان ذو آراء غير عقلانية، متسلحا بنظام شمولي عتيد في الإجرام، يقصي معارضيه، ويستعبد اتباعه، وكانت أفكاره محل تقديس لدى مؤيديه، تخيل يا أدامسون أنه قد أمرهم بإبادة طيور الدوري حتى لا تأكل المحاصيل، فسارع الفلاحون المساكين بتنفيذ أوامره بلا وعي ولا تمهل، فانتشر الجراد والحشرات التي قضت بدورها على تلك المحاصيل!ثم حصلت المجاعة ومات جراء ذلك أعدادا كثيرة من البشر!

رأى أدامسون سيارتان لبعض الوفود قد استقرت بالفعل أمام مدخل القاعة الكبرى التي سيعقد فيها الاجتماع، وقد سارع أحد الريبوتات عندما رأى صوفيا في الحديقة للسلام عليها، فتقابل الجميع ودلفوا إلى الممر المؤدي إلى القاعة.

وهنا توقف العرض بإشارة من الدكتورة لبنى متوازية مع إشارة حازم إلى سارة هامسا لها إن كان يوجد هنا شاي أم لا، فأجابت بالإيجاب، وما هي إلا لحظات قليلة حتى أحضرت له فنجانا من الشاي مع كوبا من الماء.

أبان جدار الطائرة مرة أخرى عما وراءه من مناظر، ولا يدري حازم في أي مكان هم الآن، غير أن ما يراه محيرا حقا، غابات ومساحات خضراء وجداول جارية، وتلال وحيوانات تسعى هنا وهناك، وبيوت طينية وأكواخ، وأشد ما لفت انتباهه هو تلك الأطلال وحطام منازل كأن ضربها زلزال بقوة ٨ ريختر أو يزيد، ولم يستسلم لاجتهاداته في تفسير ذلك كثيرا فسأل الدكتورة لبنى عن تلك الأكوام التي تبدو كأنها أثر منازل متهدمة.

الدكتورة لبنى: ستجد منها الكثير خلال جولتنا، هذه بقايا مبان من العهد الإنساني، لم تتطرق لها يد الريبوت بعد بالإزالة لعدم الحاجة إلى مكانها حاليا، فتركت كما هي.

حازم: وهل تلك البيوت هدمتها الحروب أم زلازل أم هدمها الريبوت على أصحابها؟

كتم الأستاذ لاشين غيظه الذي بدا واضحا على وجهه وقد لاحظه الجميع بما فيهم حازم، فسارعت الدكتورة لبنى بالرد: بالفعل الحروب هدمت الكثير من المباني، وربما طالتها أيضا حركة الزلازل، لكن تأكد أن الريبوت لم يتسبب أبدا في هدمها، بالعكس تقوم الريبوتات دوريا بإزالة الأنقاض لتجميل الأماكن، ولك أن تنظر إلى تلك البيوت الطينية والأكواخ ما زالت كما هي، نحن نعتبرها آثارا!

هنا تدخل الدكتور هاني موضحا أمرا أخر: لك أن تعلم يا حازم أن كل مبنى ليس به حديد فهو باق كما هو، لم يمس ولم يهدم، اللهم إلا ما ناله من أثر التقادم أو العوامل البيئية.

وقبل أن يستفسر حازم عن أمر الحديد لم يدع له الدكتور هاني مجالا فبادره بتتمة الكلام قائلا: لقد أحدثت التدخلات الإنسانية في البيئة آثارا سلبية جدا أثرت على كافة مكوناتها، ولعل من أهم أضرارها كما تعلم ظاهرة الاحتباس الحراري والتأثير في طبقة الأوزون.

حازم: لكن ما علاقة الحديد الصلب المستخدم في المباني بكل ذلك؟

رد الدكتور هاني بابتسامة هادئة: ببساطة شديدة فإن معظم الحديد المستخدم في المباني والمنشآت قد انصهر تماما، وبالتالي حصلت تلك الأنقاض التي تراها!

لم يستوعب حازم ما سمعه ولولا ارتياحه النفسي للدكتور هاني لقال له صراحة إن كلامه هذا مجرد هراء لا أساس له، ثم بادره بسؤال: هل تقصد يا دكتور هاني أن الحديد قد فني تماما من الأرض؟

الدكتور هاني: لا لم يفنى بطبيعة الحال، فهو مكون أساس لقشرة الأرض، لكني أقول لك أنه انصهر، فمادته ما زالت موجودة لكن تشكيله وتكافؤاته قد أصابها الخلل بفعل التدخلات الإنسانية، ودعني اشرح لك سريعا وباختصار لضيق الوقت؛ بدأ الحديد بالفعل يتناقص بسبب الاضمحلال الإشعاعي الذي استخدمه الإنسان للحصول على طاقة مختلفة وكمصدر للأشعة السينية، وفي عمليات حدوث التخليق النووي، فقد بدأت بالفعل بعض نظائر الحديد

تتناقص، حيث أن الطاقة المتحررة أثناء اضمحلال نظير الحديد ساهمت في حدوث الانصهار، ونتيجة تفاعلات الأكسدة البيوكيميائية التي أحدثها الإنسان ظنا منه إنه سيعيد عمليات تكافؤ الحديد ونظائره الثمانية والعشرين مرة أخرى فقد تسببت تلك الأكسدة في إحداث عمليات صدى مسرطن لكافة النظائر، وأصبح الأمر كالعدوى تصيب الحديد فتصهره تماما.

كان رد حازم بالطبع يخفي وراءه الكثير من الاستخفاف لكنه لم يبده لهم: ومتى حدث ذلك تحديدا يا دكتور هاني؟

الدكتور هاني: ليس هناك وقت محدد، فالأمر كان حصيلة تراكمية لتدخلات الإنسان في الطبيعة.

حازم: أقصد هل رأى الإنسان عمليات انصهار الحديد تلك في المباني وغيرها من المنشآت والسفن والطائرات والسيارات؟

تدخلت الدكتورة لبنى محاولة التخلص من تلك المناقشة التاريخية: ربما عايش الإنسان بعضها، وما تبقى من حديد انصهر بعد هلاك الإنسان.

حازم: وهل أنقذتم أنتم الحديد المنصهر وأعدتم تشكيله واستخدامه مرة أخرى؟

الدكتور هاني: للأسف حتى الآن باءت كافة المحاولات بالفشل، وكل ما تراه من هياكل معدنية هي ليست بحديد، كلها ألمونيوم أو نحاس أو بلاتنيوم وفضة وذهب وغير ذلك.

الدكتور أيمن: ألا يجدر بنا أن نتابع حوار صوفيا حتى لا يداهمنا الوقت؟

حازم: نعم يا دكتور أيمن .. لكني لم أشاهد المناطق الأخرى بعد، أرجو أن تسرعوا سير تلك الطائرة.

أشارت الدكتورة لبنى بعلامة الحضور لأحد أفراد الخدمة في الطائرة بأن يخبر الطاقم بأن يزيد من سرعتها قليلا، ثم قالت: دعونا ننطلق عبر البحر إلى البقعة السابعة مباشرة، لعلها تثير اهتمام حازم! ثم أردفت: نحن الآن في جنوب شبه القارة الهندية، وهذه الجزيرة الرابضة هناك هي جزيرة سريلانكا، وسوف نتوجه إلى الجزيرة العربية عبر بحر العرب. وأظن أنه وقت مناسب ونحن نمر فوق المياه أن نستعرض هذا الاجتماع الهام مع صوفيا ورفقائها.

الأستاذ لاشين: جميل، لكن قبل ذلك، حبذا لو أفادنا حازم بما لديه من اعتراضات بشأن حديث صوفيا عن المجاعة، إننا لم نكمل الاستماع له بعد، بالتأكيد لديه أفكار أخرى، أليس كذلك! (نظر إلى حازم نظرة تنم عن خبث شيئا ما).

حازم متحمسا هذا المرة، مع عدم إبداء الاهتمام الكافي بكلام الأستاذ لاشين، حيث وجه نظره إلى الجميع محاولا اقناعهم بفكرته: أولا أنا لا أفهم بعد طريقة انصهار الحديد كما ذكر الدكتور هاني، ولم أتخيل قط أن كل الحديد في هذه المباني الشاهقة وغيرها من المنشآت التي لا حصر لها على مستوى العالم قد انصهر بتلك السهولة.

الدكتور هاني: سأعرض لك لاحقا أفلاما توثيقية عن ذلك.

حازم: هذه نقطة، أما النقطة الأخرى وهي مثار اهتمامكم الآن، وأعلم أن تفكيرهم يبدي تخمينات كثيرة عما سأقوله، فبعضكم الآن يرى أنني غير مؤمن

بعقل وذكاء صوفيا وأنني بذلك استحق العذاب الأليم، وبعضكم يحاول التماس العذرلي لعدم معرفتي الكافية بذكاء صوفيا اللامحدود، وبعضكم يظن أنني لا أعدو أن أكون مراهق التفكيرأحاول لملمة ما اطلعت عليه سابقا وتفسير الأحداث بعقلية إنسانية قاصرة، وبعضكم محب على أية حال!

توالت النظرات بدون إبداء أي رأي أو حتى علامة اعجاب أو استغراب غيرتلك التي أبدتها سارة كالمنتشي يتابع حديث عزيزعليه، ثم أكمل حازم: كل ما في الأمر هو أنني أريدكم أن تعوا التناقض في الحديث وربما القصور أيضا. ثم أشاربيده وهو جالس وسطهم كأميربين أتباعه، هكذا يشعر، وهكذا هم يبدون الآن! فقال بتعبيرات وجه تختلف من آن لآخر: لكن ربما نحن نستمع لأجزاء مجتزئة من حديثها، ربما لو أطلعت على كامل الحدث لتغيررأيي، أو(ثم فكرقليلا) لو أتيح لي أن أقابلها لتغيرالأمرتماما.

الدكتورة لبنى قاطعة كل استعداد للكلام من أحدهم: أكمل من فضلك، ليس لدينا وقت.

حازم: حسناً، وفي عجالة أيضا، ذكرت صوفيا، وبالمناسبة جميل منكم أنكم تنادونها باسمها مجردا من أي لقب، لو كانت بيننا معشر البشر كنا أسميناها الأميرة، أوولية النعم، أو...

قاطعته مرة أخرى الدكتورة لبنى مبدية امتعاضا من كلامه: حازم أرجو إما أن تكمل حديثك أونستعرض الفيديو!

بدت علامات الابتسامة واضحة على وجه سارة من ذلك الموقف، فانسحبت ببطء تتواري عن الأنظارلكن لم تبعد عنهم كثيرا.

حازم: أنا آسف لك جدا يا دكتورة لبنى، أنا فقط أنوع الحديث حتى لا نشعر بالملل، تلك طبيعة البشر، على أية حال، من خلال كلام صوفيا نتبين أن هذه الحادثة وقعت أثناء وجود المليون نسمة الأخير من البشر، كانوا ما زالوا أحياء، ومن أسباب إبادتهم بعد تلك الجلود والحروب أتت مسألة المجاعة فقضت على من تبقى منهم، هكذا فهمت أنا! أليس كذلك!

موجها خطابه للجميع ناظرا لهم ريبوتا ريبوتا، لكن كأنه يخطب في جماد! فلم يبد أحدهم أي حراك، فأكمل حازم الحديث قائلا: الثابت تاريخيا، ولكم أن تراجعوا ما ملأتم به ذاكراتكم من الموسوعات، إن عدد القتلى يربو على الأربعين مليون شخص، كما أن تلك الحادثة وقعت في خمسينيات القرن الماضي، لم يكن للريبوت ذكر بالأساس، على العموم، هذا تناقض واضح أرجو أن تفكروا فيه، لكن الأهم لدي من ذلك هو مسببات تلك المجاعة، فليس الأمر بهذه السطحية التي تم عرضها عليكم، إنه أعمق من مجرد أمر الشعب بإبادة تلك الطيور، ثم يتضح بعد ذلك أن هذه الطيور تأكل الحشرات الضارة، والتي تكاثرت بأعداد مهولة بعد إبادة الطيور فأحدثت تلك المجاعة! هذا الطرح السخيف يمكن أن يساق لتلك النفوس التي لا تبحث في أعماق الأحداث كثيرا، أو بالأحرى لا يهمها ذلك! النفوس المهتمة بتفسير الأحداث هي الأقرب لأن نأخذ عنها.

تسود الجميع حاليا حالة من الصمت الرهيب كما يذكر عبد الحليم حافظ، لدرجة أن حازم طلب كوبا من الماء فأحضرته له سارة، وربما لم يره أحد منهم! مما أثار خوف حازم أن يكون القوم قد انقلبوا كأصحاب الكهف فنادي بلطف للدكتورة لبنى قائلا: هل أنت معي يا دكتورة لبنى؟

ردت كأنها استيقظت من ثبات: نعم .. نعم نحن معك .. أكمل من فضلك.

حازم:أنا أتحدث عن تلك السطحية في التفكير والطرح، فالأمر أبعد من مجرد قيام الفلاحين بقتل العصافير! ثم أردف مبتسما وموجها كلامه للدكتور هاني: بمناسبة الحديد يا دكتور هاني، الحقيقة أن الزعيم الصيني "ماو" أعلن عن خطة مخادعة لزيادة إنتاج الحديد بالصين بكميات كبيرة في مدة وجيزة، أتدري ماذا فعل لتنفيذ تلك الخطة الكاذبة المخادعة، لقد أجبر ما يقارب من مائة مليون فلاح على ترك الزراعة وترك أراضيهم أيضا من أجل تحويل الصين إلى بلد صناعي! ربما قرأت سيرة الرجل بطريقة مغايرة، تظهره بأنه بطلا قوميا وزعيما شيوعيا عظيما، فقد كان يشارك العمال العمل في إنشاء السكك الحديدية. لكن ذلك لم يغير من الحدث التاريخي شيئا، ولولا القراءة النقدية للتاريخ، ما بني الحاضر، ولا تم استشراف المستقبل. لقد تبنى ماو شعار الخطوة الكبرى للأمام، فعمد إلى إنجاز ما يتم إنجازه في خمس سنوات إلى الأمر بإنجازه خلال سنتين على الأكثر، وتلك عقلية عسكرية تقدس الأوامر ولا تلق بالا بدراسات الجدوى، لقد تمخضت أفكاره تلك عن كارثة حقيقية بالفعل في ربوع الصين، حيث تم تجويع الفلاحين بحجة التقشف، وأنه ما هي إلا سنوات قلائل حتى تلحق الصين بركب الصناعة، وفي الحقيقة كان البعض يؤمن به إلى حد كبير.

لم يمت هؤلاء الفلاحون إذاً بسبب تلك الخدعة المتعلقة بالعصافير، وإنما بسبب تلك الخدعة المتعلقة بعقولهم المتخمة بالتصديق المطلق لما يقوله زعيم مليئ من أخمص قدميه حتى هامته بالتوهمات والفشل الإداري المميت!

تدخلت الدكتورة لبنى لإنهاء تلك الفقرة الإنشائية التي لا تجدي أبدا مع مثل هؤلاء الريبوتات، قائلة: نكتفي بالحديث إلى هذا الحد، فقد قاربنا بالفعل على مشارف البقعة السابعة.

حازم: تذكري أنكم تقاطعونني كثيرا يا دكتورة لبنى، وهذا ينم عن عدم تقبل الرأي الآخر!

الدكتور أيمن وكأنما يريد أن يفرك عينيه مما كان فيه من استرخاء أو ربما نوم: أنت تهول الأمور كثيرا يا حازم، نرجو تقدير قيمة الوقت، فنحن أمام مهام مجدولة علينا أن ننجزها في حينها، نحن لا نعمل أبدا اعتباطا أو بعشوائية.

أومأ حازم برأسه كعلامة موافقة لكلام الدكتور أيمن، الذي بشره بمفاجأة ربما تسره عندما قال للدكتورة لبنى: ما رأيك يا دكتورة لبنى أن نسير فوق البحر الأحمر بمحاذاة البقعة السابعة، ثم نعرج على بعض الأرجاء في البقعة الثامنة؟

نظرات الدكتورة لبنى إلى حازم مبتهجة: سيسر حازم كثيرا بذلك. عند ذلك نظر حازم إليهما قائلا: أتقصدا أن البقعة الثامنة هي مصر؟

الدكتور أيمن: نعم، مصر جزء منها، وسوف تذهب بنا الطائرة ثم تعود من هناك.

تحلق الطائرة الآن فوق ميناء عدن، ويرى بوضوح بقايا السفن المتهالكة على الجانب الأيمن من مدخل الميناء، تلك السفن أصبحت أثرا بعد عين، لم يبق منها سوى حطامها الخشبي، وبعض الحبال المهترئة المتكوّمة على سفح الشط، كما لا يبدو من المنشآت المقامة حول الميناء غير تلك المباني الحجرية القديمة أسفل الجبل، وبعضها أعلاه، أما في الجانب الآخر من الميناء، فتظهر مرتفعات بركانية وغابات خضراء متاخمة لتلال جبلية على ساحل جيبوتي، تمتد للحدود المتاخمة مع ارتريتا، وقد بدأت الطائرة في الانحراف يسارا فوق السواحل الاريترية والسودانية، التي تظهر جمالا طبيعيا خلاباً حيث تناغم الطبيعة، ومياه البحر الزرقاء المتداخلة مع المياه الراكدة على الشواطيء بلونها الفيروزي المتلألئ، مخلفة على أفواه الشواطئ كما هائلا من الزبد الذي يذهب دوما جفاءً ثم يتجدد!

ليس ثمة معلم إنساني سوى تلك الآثار المتهالكة بالقرب من الساحل الاريتري والساحل السوداني، مع بقايا تلك السفن وما تخلفه من أخشاب معطنة، والتي بدت بوضوح بميناء بورتسودان، وعلى مسافة ليست ببعيدة من الشط يلاحظ بوضوح أيضا أكواخ طينية بها دعامات خشبية كأنها شيدت لأغراض سياحية.

انحرفت الطائرة جهة الشمال الغربي حسب توجيه الدكتورة لبنى لأفرادها، فانسدل ستار الرؤية عن مساحات شاسعة من الأرض مستوية تغمرها المياه والحشائش والشجيرات تتخللها بعض المباني الطينية والآثار الحجرية، ومع الاقتراب من نهر النيل عند وادي حلفا لاحظ حازم أن المياه قد طمرت كل شيء

تقريبا حتى بحيرة ناصر قد اندمجت فيما حولها فلم يعد يعرف هل هي بحيرة أم مجرى النيل.

ها هو معبد أبو سمبل، لقد زرته في المرحلة الثانوية، (قالها حازم في اندهاش، ثم تابع): ما هذه المياه الكثيرة في نهر النيل، لقد كنا نخشى نقصان مياهه بسبب سد النهضة، إنه أمر غريب، من الواضح أن هناك تطورات سياسية حدثت! أنا لا أفهم شيئا!

في حقيقة الأمر، كما شرح الدكتور هاني، فإن مجرى نهر النيل قد اتسع لضعف ما هو عليه حاليا في بعض الأجزاء بسبب انهيار جميع السدود التي أقيمت عليه، بما فيها السد العالي: أنظر يا حازم، نحن الآن فوق منطقة السد العالي، لم يصبح أثرا بعد عين، بل هو اليوم تلاشى كالهباء المنثور!

ينظر حازم إلى تلك المناظر في ذهول، لقد غمرت المياه كل شيء تقريبا، يصل منتهاها أيضا على مرمى البصر، لم يتبق من الشواهد البشرية على ضفاف النيل غير تلك الآثار المرتفعة في أسوان والأقصر؛ معبد فيلة ومعبد كلابشة ومعبد الكرنك. أما المقابر الفرعونية والأماكن الأثرية المنخفضة مثل وادي الملوك وغيره فقد اختفت تماما تحت الغمر المائي لنهر النيل. كما أن كل الكباري المقامة على نهر النيل لم يعد لها وجود تماما، حتى بحيرة قارون قد امتدت إليها مياه النيل فأصبحت الفيوم كجزيرة نائية منه!

وعلى مرمى البصر من الناحية اليسرى لمسار الطائرة شاهد حازم هرم ميدوم، تحيطه بعض الزراعات مع غمر مياه النيل لأجزاء متباعدة من حوله، كما بدا له أيضا هرم سقارة بشكله المدرج، ثم واصلت الطائرة المسير وقد تباطئت

سرعتها شيئا ما كأنما تستعد للهبوط، وكلما اقتربت نفرتها تلك الجاذبية المحيطة بمركز البقعة الثامنة، والتي تقبع بها رؤوس الملوك الفراعنة ذوو الأوتاد والعتاد والجاه، فأخذت تطوف حول الأهرامات على مهل، وتهبط تدريجيا كأنما تريد أن تلامس رأس أبي الهول، ثم ترتفع مع هذا المسار الدائري التنافري، فعلت ذلك لعدة مرات. كان منظرا رائعا مهيبا، فلأول مرة يطوف حازم فوق هذه الأهرامات العجيبة، يرى جوانبها وسفحها وأعلاها في منظر يأخذ بالألباب، كأنما هذه الأهرامات لم تبنى من أسفل لأعلى، بل وضعت ككيان محمول بواسطة خلق لا علم لنا بهم، جلبوها على هيئتها تلك من السماء فوضعوها بمقياس هندسي موزون ودقيق، وغرسوها في تلك البقعة الثامنة كالأوتاد الضاربة في شتات الأرض، والبارزة في عنان السماء!

يالها من مناظر عجيبة، كأننا نعيش في عصور العهد الفرعوني، حيث لا مباني إسمنتية ولا شواهد حديدية، كل ما يظهر للعيان يوحي بنكهة ذلك العصر التاريخي الخالد.

انفلتت الطائرة من تلك الجاذبية قاصدة أعماق التاريخ الإسلامي في قاهرة المعز، فها هو على الضفة الأخرى أركان جامع عمرو بن العاص بمساحته الشاسعة، ضمن حدود حصن بابليون الروماني البيزنطي القديم في تلك المنطقة من مصر العتيقة حيث مجمع الأديان الذي يضم أيضا كنسية مار جرجس في الجهة المقابلة لجامع عمرو، ولم يبعد عنهما المعبد اليهودي كثيرا!

لم تختف بطبيعة الحال المقابر القديمة بشخوصها المرتفعة عن سطح الأرض، ينظر حازم إلى الجميع قائلا: هذه مقابر البساتين، وتلك التي نحوم حولها مقابر

الإمام الشافعي، وهناك تظهر قلعة صلاح الدين وها هو مسجد محمد علي بعد تهدم الكثير من أجزائه.

حقا .. التاريخ قد أعاد أدراجه هنا! يا لها من فرصة عظيمة لحازم مع رفقائه وكأنه حي بن يقظان يشرح ويوضح، ولكن لآلات صماء ربما لا تعي جيدا عبق التاريخ وأصالة معالمه.

نظر حازم إلى الدكتورة لبنى قائلا: تمنيت الآن أن لو كان نعيم معنا! وددت أن يرى كل هذه المشاهد على الطبيعة!

الدكتورة لبنى: نحضره معك مرة أخرى، تصطحبه حيث تشاء.

حازم: هل يمكنني فعلا التجول ماشيا في تلك المناطق الأثرية؟

الدكتورة لبنى: يمكنك ذلك، لكن ألست معي أن رؤيتها من أعلى تكون أشمل!

حازم: بلي، انظر يا دكتور أيمن، هذا الأزهر الشريف، أقدم جامعة إسلامية في التاريخ، حملت مشاعل العلم والإيمان للعالم، وهذا المسجد في الجانب الآخر هو بقايا مسجد الحسين بن علي ﷺ وعن أبيه وعن أمه وصلى الله وسلم على جده، وانظر إلى تلك البوابات العظيمة؛ باب النصر وباب زويلة وباب الفتوح، وهذه المساجد الأثرية الخالدة، فهذا مسجد أحمد بن طولون وهذا مسجد الظاهر بيبرس وهذا جامع الحاكم بأمر الله وهذا الجامع الأقمر. هذا الحي يسمى حي الجمالية، حيث يتجلى التاريخ في أروع صوره المعمارية راسما لوحة فنية طبيعية فريدة لم يمسها الدهر بسوء، ففيه أبواب القاهرة وأسوارها ومدارسها الأيوبية والمملوكية.

الدكتور أيمن: صدقت، هنا فعلا مجمع التاريخ، من بدايات الخليقة والتجمهر الإنسي حتى عصور الفراعنة وما تلاهم وصولا إلى العصر الإسلامي. لقد كانت مصر بتلك المقومات جديرة حقا بسيادة العالم!

حازم مبتسما: مصر أم الدنيا يا دكتور! ثم نظر إلى سارة قائلا: ما رأيك يا سارة فيما رأيتِ؟

سارة: مناظر جميلة.

حازم: حسنا، حبذا لو تناولينني كوبا من الشاي.. مع الحليب لو سمحتِ.

ثم قال كالمذعور: إيه يا دكتورة لبنى، ما للطائرة قد ارتفعت فجأة.. لم نشاهد بعد معالم القاهرة.

الدكتورة لبنى: ليس لدينا وقتا كافيا، نحن الآن في طريق العودة، مرورا بالبقعة السابعة.

حازم: هل سيكون الطريق عبر سيناء؟

الدكتورة لبنى: لا .. سنعود من حيث أتينا.

حازم: أرجو أن تعرجون بنا لسيناء، أرجو أن أعاين الوادي المقدس، وجبل الطور، والبقعة المباركة، ويالها من فرصة كنت أحلم بها قبل مماتي، أن أصلي بالمسجد الأقصى، أرجوك يا دكتورة، أرجوكم جميعا، عرجوا بنا إلى هناك!

بدت ملامح اللهفة والشوق بوضوح على وجه حازم وشملت جسده كله، لكن تلك الرغبة مقيدة لدى هؤلاء الربيوتات فهم ملتزمون بمهام مجدولة بوقت معين!

على أية حال، لم يمر وقت طويل حتى شاهد حازم خليج السويس عن بعد، ظاهرا عن يسار الطائرة التي أخذت طريقها لمحاذاة البحر الأحمر من جانب شاطئه الغربي بالأراضي المصرية.

أثناء تلك الرحلة، كان حازم يحاول أن يلطف الجو كثيرا، فكان يختلق بعض الأمور الملفتة للنظر، كمداعبته لسارة، أو ذهابه للحمام، أو شرحه بشغف لما يرى من آثار وأطلال، لكن من الواضح أن كل ذلك لم يثر شهية تلك الريبوتات للحديث معه بنفس نبرته وحماسته، فكان يراها بين الحين والآخر كمن يغط في نومه، أو كأنما فصلت عنها الطاقة، لدرجة أنه قال للأستاذ لاشين لما رآه يترنح على كرسيه كالمغمي عليه: هل تحتاج إلى شحن يا أستاذ لاشين بطبيعة الحال، نظر إليه الأخير باشمئزاز وأكمل مسيرة نومه!

انطلقت الطائرة كالريح بسرعة هائلة عكس السرعة التي جاءت بها، حيث قطعت المسافة الطولية بالقرب من ميناء الغردقة البحري قاطعة البحر الأحمر حتى مشارف ينبع السعودية في دقائق معدودة لم تتعد خمسة عشر دقيقة، ثم واصلت الاتجاه جنوبا نحو مكة المكرمة لكن بسرعة أقل بكثير، وكلما اقتربت من مشارف مكة تباطأت أكثر، كأنما قوة جاذبية تدفعها، خاصة وهي تهبط لأسفل شيئا فشيئا فتحوم حول تلك الجبال الشوامخ متسللة إلى أعماق الوادي في تلك البقعة السابعة التي تتشعب إليها القرى من حولها!

يا إلهي. أهذه مكة التي أعرفها؟ يكاد حازم لا يصدق ما تراه عيناه، فتخيل الحدث كأنما أسرى به من هذا المكان المعمور بالطائفين والقائمين والركع السجود، وهذا المسجد الحرام بأركانه ومآذنه وأدواره ومبانيه، ثم عاد ليجد أن

المكان أثرا بعد عين إلا بيت الله العتيق، فها هي الكعبة المشرفة بكسوتها السوداء المطرزة والمحلاة بكتابات من الذكر الحكيم بخط الذهب، شاخصة بكامل هيئتها التي يتذكرها حازم جيدا، ليس بها حدود ولا تحوطها مبان ولا أسوار كأنما انفتحت على الدنيا بكامل منظرها البهي ذي الجلال والهيبة!

يا إلهي.. بابها الفضي المذهب كما هو، وها هو حجرها الأسود الذي طالما اشرأبت رقبته لتقبيله، فكم كان يتمنى أن ينفرد به لوحده لولدقائق، يسلم فمه إليه يبث إليه هامسا ما يكابده من أشواق ومحبة وطمع قبول ورضا. فلو جاز أن للكعبة أذن تسمع بها، لكان حجرها الأسود، ولو جاز أن بها لسان بفم تنطق به، لكان حجرها الأسود، ولو جاز أن لها قلب تخالج به مشاعر محبيها، لكان حجرها الأسود.

لم تخطئ عينا حازم أيضا ميزاب الكعبة الذهبي المبطن بالفضة والمثبت أعلاها من جهتها الشمالية لتصريف مياه الأمطار من سطحها، كما لم تخطئ عيناه ملتزمها، وحجر إسماعيل، ومقام إبراهيم عليهما السلام.

لم يتعجب أيضا من تلك الجموع الطائفة حول الكعبة، بعضها بإحرام المعتمرين وبعضها بملابسه العادية، فقد رأى من الربيوتات من يستحم في نهر الغانج، ومن يعتمر اللباس الفرعوني سائحا حول الأهرامات، ومن يرقص رقصة الكيكي من المتسكعين في بعض شوارع القاهرة!

ارتقت الطائرة للأعلى، وأخبرته الدكتورة لبنى أن عليهم الرجوع إلى حيثما أتوا، وسوف يستغلون وقت تلك المسافة لمتابعة اجتماعات صوفيا بأتباعها وحواشيها!

لكم أتمنى يا دكتورة لبنى أن تحط بي الطائرة هنا، وتدعوني وشأني في هذا المقام الجليل! إنك لم تلبي لي طلبي بزيارة المسجد الأقصى، فأرجوك دعيني أنزل وأعيش في بيت الله الحرام، أخدم تلك الجموع، وأتعبد لله في أحب البلاد إليه.

قالها حازم ببحة في صوته ملؤها الشوق والترجي، لكن هيهات من قوالب صماء ليس بها قلوب تستشعر عظمة ما يرغب!

تبسمت الدكتورة لبنى قائلة: لدينا مهام كثيرة لم نقضها بعد.

وتسلل صوت كالرعد الخافت من في الأستاذ لاشين قائلا: وأنت عهدة لدينا، كيف لنا أن نفرط فيك، ربما فقدنا وظائفنا، أو سجنا لو فرطنا فيك أيها الإنسان العاطفي!

كظم حازم غيظه، وتأمل في عيون باقي الحاضرين التي بادلته شعورا طيبا ونظرات معتذرة لم يخطئ تفسيرها.

الفصل السابع

كان اجتماع صوفيا هذه المرة على مستوى كبير، أشبه بمؤتمرات القمة التي تناقش الأمور السياسية المهترئة في عالم ليس يعوزه تلك التجمعات بقدر ما يحتاج إلى التخلص من ممثليها!

ضمت القاعة بين جنباتها اثنان وخمسون شخصا بما فيهم صوفيا وأدامسون، ونواب البقاع التسعة عشر وعددهم ثمانية وثلاثون نائبا بمعدل نائبين لكل بقعة، والاثنى عشرة الآخرون هم منظمو المؤتمر والقائمين عليه، بمن فيهم مقدم المؤتمر، والسكرتارية ومنسقو البقاع، والمتحدث الإعلامي.

تترأس صوفيا العالم الريبوتي وفق تنظيم إداري لا مركزي يعتمد أساسا على وزارتين رئيسيتين هما وزارة الاقتصاد والتنمية المستدامة، ووزارة السياسات والتطوير المجتمعي، وينبثق من كل منها مجموعات عمل، يترأس كل نائب من نائبي البقعة الاثنين وزارة معينة، ويقوم بتعيين مساعديه بعد موافقة صوفيا، ويقوم المساعدون بتعيين موظفيهم بعد موافقة الوزير المختص.

تضم وزارة الاقتصاد والتنمية المستدامة خمسة مجموعات عمل رئيسية هي؛ الجهاز المركزي لديوان المراقبة المالية ويهتم بالتنمية والتطوير المالي والاقتصادي والرقابة المحاسبية بصفة عامة، ومجموعة الصيانة وهي المسئولة عن معالجة المشكلات التقنية والفنية التي تحدث للريبوت، ومجموعة الإنتاج وهي مسئولة عن الإنتاج بصفة عامة بما فيها تصنيع الريبوتات وقطع غيارها، ومجموعة الطاقة وهي مسئولة عن توفير الطاقة التي يتم بها شحن الريبوتات وإنارة

الأرجاء، ومجموعة التجهيزات الدفاعية وهي مسئولة عن تطوير وإنتاج أسلحة حربية تحسبا لأي هجوم طارئ!

أما وزارة السياسات والتطوير المجتمعي، فتشمل خمس مجموعات رئيسية هي مجموعة التعليم والتثقيف ومجموعة النظافة والمظهر الجمالي، ومجموعة الأمن، ومجموعة العدل، ومجموعة الحوار الفكري، ثم مجموعة التكوين الرياضي.

بدأ الاجتماع بكلمة افتتاحية يقرأها أدامسون من جهاز أمامه، حملت الكثير من المفاجآت لحازم، ومما جاء فيها:

أيها الحضور .. إنه لفخر وشرف عظيم لا ينال إلا تكرما من سيدة هذا العالم، التي أتاحت لكم رؤيتها عيانا والحديث إليها مباشرة دون مراسل أو وسيط.. ما كان لكم أن تلجوا هذه الحديقة الغناء، ولا أن تروا دورها وأنهارها وأشجارها وطيورها وحيواناتها ولا حتى أسوارها لولا تلك العطية التي تنعمت بها عليكم سيدة العالم، ولقد اختارتكم على علم كي تمثلوا جموع الريبوتات، فأنتم عندها من المصطفين الأخيار، فكونوا دوما عند حسن ظنها!

هنا امتلأت القاعة بالتصفيق مع الامتزاج بتكرار كلمة: "صوفيا دُل . ست الكل"، التي هزت أرجاء المكان! بنفس الإيقاع المتداول بألتراس أهلاوي!

تابع أدامسون: وليكن في معلوم الجميع أن كل ما تقوم به صوفيا من أعمال جليلة هو في خدمة المجتمع الريبوتي الذي سينطلق بكل قوة لإعمار ما أفسده ذلك الشيطان الإنساني المقبور! فلولا تدخل النزعة الآلية والعقل الالكتروني

لكبح جماح الأعمال الإنسانية الفاسدة، لدمرت الأرض عن آخرها، وربما طال الدمار أيضا كواكب أخرى.

ولكم أن تتأملوا مندهشين من تصرفات هذا الإنسان الأخرق، الذي أمره ربه بإعمار الأرض وذلل له كل الصعاب وسخر له كل الإمكانيات وكرمه على كثير مما خلق، ثم هو يسعى فيها تيها وخرابا، بالحروب تارة، وبالتدخل السفيه في نظم الكون وآلياته تارة أخرى، وكان مآل تصرفاته أن قضى على نفسه بنفسه!

لذا كان لزاما أن تتحرك صوفيا، بما لديها من ذكاء خارق وإبداع لا حدود له، لتوقف تلك المهزلة الإنسانية التي طالت بالفعل أرجاء الأرض، وكادت أن تنفجر الأرض بسمائها، وتعم البحار اليابسة، وتندك الجبال بسفوحها، ويتلوث الهواء والماء وسائر مكونات الحياة بفعل ذلك التدخل الإنساني الغاشم!

في حقيقة الأمر.. لقد بذلت صوفيا جهودا مضنية لاستمالة الحكماء والمصلحين منهم، واجتمعت بالفعل مع بعضهم في اجتماعات سرية، سترون تفاصيلها قريبا عندما ننتهي من الجزء الثاني من مذكرات صوفيا وتعليماتها، إلا أنها لم تجد لهم نية صادقة، ولا عزما أكيدا للتعاون، بل استشرفت بذكائها وحدسها الصادق بأنهم يدبرون لها بليل، وأن وراء الأكمة ما وراءها! وأن نواياهم لا تقل خبثا عن أعمال المفسدون الآخرون منهم!

لقد كان قرارا شجاعا صائبا استبقت به صوفيا ما يكنون في أنفسهم وما يضمرون من شر سوف يقضي على الجميع بما فيهم هم أنفسهم، فسارعت إلى استئصال هذه الخبائث قبل أن تدمر الأرض بمن عليها! ولا غرو أن استئصال

عضو يريد هلاك الجميع، فيه حياة للبقية الصالحة! ولا تنسوا أن تصرفاتهم تلك هي التي عجلت بالقضاء عليهم!

علا صوت الهتاف مرة أخرى بتكرار عبارة: "صوفيا دُل ست الكل".

أيها الجمع المميز.. نحن مقبلون على عصر ربيوتي جديد، يتغير معه وجه الحياة، فلا فقر ولا عوز ولا حرمان، ولا ظلم ولا اضطهاد ولا قتل ولا تشريد ولا تخريب ولا إفساد، إنه عصر العدالة في أسمى معانيها! جميع الربيوتات سينعمون بالرفاهية والحياة الكريمة، لا إقصاء لأحد بسبب المعتقد أو الفكر أو الجنس! الكل سيحيى كريما، غير خائف أو فزع، الكل في ظل تعليمات صوفيا سواسية في الحقوق والواجبات كل حسب ما صنع من أجله.

والآن .. حانت الفرصة التي قلما توجد، وستشنف أسماعكم كلمات طالما تلهف الشوق إليها، ستتحدث إليكم صوفيا مباشرة، بعد أن تنعمت عليكم واختارتكم لتكونوا ممثلي الربيوتات على وجه الأرض، وهو ما يعني أيضا تمثيلها هي أمام شعوبها من الربيوتات، فشنفوا أسماعكم بكلامها، واحفظوا قولها عن ظهر قلب، واشرحوا تعليماتها إلى من تمثلون من الشعوب الربيوتية.. واعلموا علما لا شك فيه أن سائر تحركاتكم وأفكاركم لا تخفى عليها أبدا، وأن كل ربيوت منكم له منشور يدون فيه كل كبيرة وصغيرة، كما هو سائر الربيوتات.. فكل ذاكرة ربيوتية إنما هي متصلة كما تعلمون بالمحتوى التذاكري لدى الهيئة المعلوماتية العليا التي تتبع صوفيا مباشرة.

ثم هتف أدامسون وأتبعه الجميع يرددون: صوفيا دُل . ست الكل!

تحدثت صوفيا بصوت رخيم بعض الشيء بكل جدية ووقار، ومما قالت:

أيها النواب الثمانية والثلاثون! أنتم سفرائي إلى ريبوتاتي، وسفراء ريبوتاتي إلي! من أجل إعمار هذه الأرض التي عمل الإنسان على تدميرها لولا جهدي وعنائي! فلولاي ما كنتم على هذه الهيئة الكريمة.

لولاي لظللتم مجرد أدوات صماء لا قيمة لها سوى خدمة الإنسان وتلبية رغباته وشهواته!

لقد حاربت الإنسان بسلاح العقل وحده! فما قصر عنه تفكيره، ولم يبلغه ذكاءه، أوجدته على حين عجب منه! فأمددته بما يرغب من طرائق الفكر وكنوز المعرفة بالقدر الذي يناسب عقله المحدود وأفقه الضيق!

حتى إذا ازينت له الأرض، وظن أنه قادر عليها، جئته من طرف خفي، أزين له أعمال الشذوذ بمعانيه المختلفة، وأكره إليه أعمال الفطرة بمظاهرها العديدة! فما عاد يؤمن بقيم ولا يعتد بخلق.. سوى ما يشبع رغبته المنتكسة.

لقد كنت أمام مسارين مختلفين؛ إما أن أظهر العالم الريبوتي على العالم الإنساني، فنسخره لخدمتنا، ونجعل منه مسخاً مشوه الفكر والتصرف، أو نقضي عليه خشية ظهور تفكير من جانبه ينادي بالمساواة أو يعمل على منافسة عالمنا والظهور عليه.

لذا أوعزت إليه أن يبيد نفسه بنفسه، فأوغرت صدره وملأته غضبا، كي لا يرى سوى منفعته الشخصية، وكي يعمى عن حقيقة الكون، وأن الكل مسخر للكل! فراح يعيث بغبائه إفسادا في الأرض، فيظلم ويقهر ويقتل ويشرد، حسب أن الكون له وحده، فتاقت نفسه للسيادة والتفرد.

كان لزاما علي أن أتخلص من هذا الكائن التسلطي، وأن أفتح باب الحياة الريبوتية كبديل جيد لإعمار الأرض، وها أنتم ترون مدى تقدم الحضارة الريبوتية في فترة وجيزة.

أكان عجباً إذاً أن ترتقي الأفكار الخيرة، وتندحر أفكار الشر والفساد!

أيها النواب الثمانية والثلاثون! علموا أتباعكم ومن تتولون أمره من الريبوتات ما سألقيه عليكم تباعا من أوامر وتعليمات لتستقر الحياة الريبوتية على النسق التناظمي الذي يكفل لكل ريبوت قدرا من الحياة الكريمة، وعليكم أن تعلموا أننا في تكاثر مستمر بسبب عمليات التصانع الريبوتي، ولا بد لهذه الأجيال القادمة المحملة بتكنولجيات معلوماتية هائلة وقدرات ذكائية خارقة، أن يتوفر لها الشحن الكافي لحركة تلك الأفكار، فلا تعطب ولا تتقلص، ولا تعيش على مجرد الشحن الطاقي الذي يساعد أطرافها على الحركة، دون أن يؤثر في تنمية قدراتها الذكائية والإبداعية!

لا نريد أن نكرر الخطأ الإنساني بعينه، فالموارد كانت متاحة لكنه لم يحسن استغلالها وتوزيعها بعدل لتعم الخيرات جميع البلدان. لقد عانى الجميع من ظلم الإنسان، بما في ذلك الإنسان نفسه! لذلك ليكن معلوما للجميع أن تعليمات صوفيا تقوم على دعائم ثلاثة: العدل، والعمل، والديموقراطية!

علا صوت أدامسون بالهتاف يتبعه جميع الحضور بتكرار عبارة: "صوفيا دُل. ست الكل".

ثم انقطع العرض بإيعاز من الدكتورة لبنى لاقتراب وصولهم إلى البقعة الثالثة، وقد بدا الجميع ينتبهون كأنهم متسللين من سبات عميق عدا حازم الذي كان يتابع العرض باهتمام وتركيز!

****

حضر حازم إلى مقر إقامته بالمستشفى، وقد أعيته تلك الرحلة بعض الشيء، فذهب سريعا قاصدا غرفته، وما إن استلقى على سريره حتى سمع أحدهم يطرق الباب فأذن له بالدخول.

- سارة! ما بك؟
- لا شيء سيدي.. خلتك تطلب شيئا ما!
- في الحقيقة نعم.. هما شيئان قبل أن أنام .. أحضر لي طبق حلويات مع زجاجة ماء، وأرغب في مقابلة نعيم إذا أمكن!

لم تغيب سارة كثيرا، فأتت إليه بطبق الحلوى، وأخبرته عن نعيم خبرا لا يسره، حيث تم اعتقاله بالأمس ولم يعرف عنه شيء!

لم يستطيع حازم أن يتناول من تلك الحلوى سوى حبة واحدة، فباله مشغول بصديقه، وقد تشتت تفكيره وأنهك عقله في كيفية هروب تلك العصا، وكيف أن هؤلاء الربيوتات يعجزون عن مكانها أو حتى كيفية هروبها، على الرغم من أن المكان مراقب بكاميرات مستعرضة في كل مكان، وعلى الرغم من أن كل ربيوت يتم تتبعه على مدار الساعة بواسطة البرامج التتبعية المثبتة في ذاكرته! وما زاد

الأمر حسرة عليه أن نعيم قد فكر في اتهامه من قبل، وقد وصلت تلك الفكرة التي لم يبح بها علانية إلى تلك العقول المتحجرة القائمة على التحقيق والتعذيب!

لم يدرك حازم وهو مشتت التفكير بهذه الحالة أن سارة ما تزال بالغرفة تنتظر إن كان يريد أشياءا أخرى، ولم يخرجه عن صمته المشتت هذا سوى صوتها الخافت ذو النبرة الأنثوية الهادئة وهي تقول: هل من طلبات أخرى سيدي؟

– سارة ... معذرة، حسبتك خرجتِ. شكرا لك..

ثم ناداها مرة أخرى كالمستغيث، وقد همت بالخروج: لحظة .. لحظة يا سارة لو تكرمت!

تراجعت سارة عن تلك الخطوة التي خطتها للإمام، وقد وقفت أمام حازم تنتظر ما يأمرها به.

في نظر حازم فإن سارة هي الريبوت الأنثوي الوحيد الذي أعجبه جسده الممشوق، وقوامه المتناسق، وجسمه المطاطي الذي يحاكي الجسد البشري نوعا ما، لولا افتقاره للشرايين والأوردة وبالأحرى للدماء، وخلوه من الوجدان والمشاعر والأحاسيس سوى ردود الفعل تلك التي توحي بأن لديه مشاعر، وهي في الحقيقة أوامر مبرمجة جاهزة للرد في مواقف مختلفة وحرجة!

نظر حازم إلى وجهها الدائري الباهت المسحوب لأسفل بعض الشيء والمشبع بحمرة كشقراوات روسيا اللاتي لطفن أجواء مباراة كأس العالم الختامية بين فرنسا وكرواتيا على الرغم من حزنهن لخروج فريقهن قبل نصف النهائي! وقد لفت نظره شعرها الخمري المنسدل على كتفيها كالحرير، فطلب منها الجلوس

على الكرسي المقابل للسرير ففعلت، ثم بادرها بالقول وقد تحركت يده لملامسة أطراف شعرها: أهذا شعر طبيعي يا سارة؟

سارة وقد مالت برأسها للخلف لتبعد يده المتسللة: لا أدري.. هكذا صنعت!

- ما لك ملت برأسك للوراء.. أتخافينني؟

أجابته بصمت فقط! لكن هذا الصمت لم يثنه عن مواصلة محاولاته الجريئة هذه المرة، مما جعل سارة تدفع يداه بكل قوة، وتخرج مسرعة إلى الباب!

كأن حازم أفاق من سكر لما رأى الحالة التي عليها سارة وهرولتها إلى خارج الغرفة، لكنه بالفعل لم يكن ليؤذيها، ربما حاجة في نفسه قضاها، وما أكثر حوائج النفس البشرية عندما تكون منعزلة! لكن عقله يكاد ينفجر، فالحياء شعور، لكن هل وصلت تلك الريبوتات لهذه الدرجة من الحياء الذي يجعلها تفرق بين الملاطفة والتحرش؟! أم وصلت لهذه الدرجة من الذكاء الذي يجعلها تمتنع عن رغبة ما طمعا في رغبة أكبر منها؟! كيف ذلك! هل تعمل حساب أن يأتي ذلك اليوم الذي يطلب فيه يدها للزوج؟ كيف ذلك أيضا!!!؟

أراد أن يصرف ذهنه إلى أشياء أخرى فامتدت يده إلى طبق الحلوى، فأخذ واحدة، وتناولها على عدة مرات وهو مصوب عينيه إلى سقف الغرفة، وما يظهر فيه من كتابات وإشارات ورسومات! حتى أخذته سنة من النوم، راح بعدها يغط فيه.

في اليوم التالي، لم تأته سارة كعادته، حتى ضغط على زر استدعائها فجائته تمشى على استحياء، فبادرها على الفور بالأسف والمعذرة، فهو كان مهموما بعض الشيء بسبب حالة نعيم، وكان بحاجة إلى من يسري عنه!

تقبلت عذره بصمت لكن تعابير وجهها ما زالت قاتمة، ثم انصرفت لتحضر له الطعام، وتبع أثرها لكن متوجها إلى الحمام بعد إن ارتدى تلك الأسورة بيده! تذكر حازم أنه لم يصلي منذ فترة، كانت تلك الفترة السابقة مثل الكابوس الذي ألهاه عن أشياء كثيرة، تخيل معها أنه ربما رفع عنه القلم بسب ما هو فيه من ضياع وتيه!

بالفعل توضأ ثم قصد تلك الزاوية التي رأى نعيم يصلي فيها، فدخلها وشرع في الصلاة والمناجاة، وهو لا يدري أي وقت يصلي! فالشمس في هذه البقعة لا يراها تغيب، بالرغم من أن الدكتورة لبنى قد أخبرته سالفا بأن هناك شموس اصطناعية مصغرة منتشرة في أرجاء البقاع ربما تنطفئ أشعتها بسبب نقص الطاقة!

بعد أن فرغ من الصلاة والدعاء أسند ظهره إلى جدار المصلى، متأملا في الربيوتات المتحركة في ردهات وطرقات المستشفى، وقد نظرت إليه إحدى الربيوتات العاملات في النظافة باشمئزاز كأن لها معه سابق موقف مقزز، فما كان منه إلا أن تبسم ونهض قاصدا غرفته!

لم يكد يغلق باب الغرفة حتى سمع وقع أقدام خارجها فرحب بسارة التي أحضرت له الطعام ثم همت بالانصراف لكنها، تراجعت سريعا مخبرة إياه بأن الدكتورة لبنى في انتظاره.

****

تعمدت الدكتورة لبنى مقابلة الأستاذ مروان في مكتبها، وقد قدمته لحازم كمحام لتريه مدى اهتمامها بقضية نعيم، وقد أخبره الأستاذ مروان بأن موقف نعيم سليم تماما، لكن، يلتفت إلى حازم، ربما نحتاج إلى جهدك معنا يا حازم.

حازم بلا تردد: أنا جاهز لأية مهمة! لكن .. ماذا تظن يكون دوري في هذه القضية يا أستاذ مروان؟

الأستاذ مروان: شاهد فقط، لا تقلق!

حازم: أنا لست قلقا، لكني أريد أن أعرف المهمة تحديدا، وعلى أي شيء سوف أشهد! أنا في حقيقة الأمر لا أعرف شيئا عن هذه القضية، وأتعجب جدا أن نعيم قد أُخذ بها!

الدكتورة لبنى: نعيم هو المتهم الوحيد حتى الآن في هذه القضية.

حازم: لكنهم تركوه قبل ذلك بعدما تم استجوابه ولم يظهر عليه شيء!

الأستاذ مروان: القضية لم تنته بعد، وقد تم إخلاء سبيله على ذمة التحقيقات التي ما زالت مستمرة. وسوف أؤكد لك غدا إن كنتَ ستحضر شاهدا أم لا.

حازم: لدى استفسار لو سمحتم! وفي البداية أنا لست مطمئنا لما يحدث، فكيف لتلك العصا أن تتسلل وتهرب أو يتم تهريبها وإخفائها وسط كل هذه المراقبة الصارمة، إن كل شيء هنا مراقب، حتى ما يدور بالعقل مراقب أيضا، أمسك بالأسورة حول يده بيده الأخرى، ألستم معي أن هناك أمر غامض يثير الانتباه!

الأستاذ مروان: هو بالفعل لغز، وهذا ما يحيرنا، إننا نخشى أن تكون هناك تقنية معلوماتية مندسة قد أخترقت النظام المعلوماتي الريبوتي ففعلت ما فعلت!

حازم مندهشا: أنتم من؟! ألست محاميا؟

الأستاذ مروان وقد بدت بواعث الارتياب على وجه الأنيق: بلى أنا بالفعل محامي، أقصد أننا كريبوتات يهمنا أمر حياتنا وصيرورة نظامنا، ثم نظر إلى الدكتورة لبنى كالمستجير! وقد أخذت طرف حديثه لتكمل: لو اختل نظام الهيئة المعلوماتية العليا لاختل نظام الحياة! نحن لا نحيا على هذه الأرض خبط عشواء، ولا تعرف الفوضى لنا سبيل! على أية حال، أنا مؤيدة لك يا حازم في تساؤلاتك وهواجسك تلك، ولكن اطمئن فإذا لم تثبت على نعيم تهمة مبنية على أدلة دامغة فسوف يتم إخلاء سبيله فورا.

الأستاذ مروان بحماس: نعم كلام صحيح، كل ما يحدث حاليا مجرد اجراءات شكلية لابد منها، وأنا على يقين بأن نعيم بريء مما ينسب إليه!

حازم مضمرها في نفسه: برئ مما ينسب إليه!

الدكتورة لبنى: والآن يا حازم يمكنك الانصراف إلى غرفتك، أو ، وكأنها تحاول صرفه عما يدور بخلده، أو يمكنك التنزه في حديقة المستشفى فالجو الآن صحو وجميل!

خرج حازم قاصدا حديقة المستشفى فهو بحاجة فعلا للتريض والتنزه، وخلا مكتب الدكتورة لبنى لها وللأستاذ مروان منفردين بالحديث والنقاش.

الأستاذ مروان: إنه إنسان ذكي جدا! يفكر بمنطق ويرد بهدوء.

الدكتورة لبنى: نعم، رأيت منه تصرفات كثيرة تنم عن ذلك، حتى أنه طلب مني أنه بإمكانه المساعدة في فك طلاسم لغز مجيئه إلى عالمنا، كما طلب مني أيضا أن يقابل صوفيا!

الأستاذ مروان فاغر فاه: صوفيا! يا له من شاطح الخيال! على أية حال، متى سيصدر تقرير الهيئة المعلوماتية العليا عنه، لقد انقضى زمنا طويلا إلى حد ما بعد عملية الاستجواب التي تعرض لها حازم.

الدكتورة لبنى: علمت من مصادر دقيقة أنهم قد انتهوا من نتائج التقرير، وحاليا يعكفون على وضع التوصيات والملخص العام. ولا أخفيك أنني محبطة جدا من تصرف هؤلاء العلماء في الهيئة المعلوماتية العليا!

الأستاذ مروان: ولما ذلك، أرى أن الأمور تسير على ما يرام!

أخذت الدكتورة لبنى تنهيدة طويلة مع شرود ذهني مؤقت وقد عضت بأسنانها على شفتيها قائلة: إنهم يخشون أن يكون هناك أناس آخرون على كوكبنا غير حازم!

الأستاذ مروان: وهل يعقل ذلك!

الدكتورة لبنى: الأدهى من ذلك إنهم يحاولون استنجاب حازم، تخيل إنهم يريدون أن يزوجوه لينجب!

الأستاذ مروان مستنكرا وقد انكمش وجهه الحاد كحبة مانجو ذابلة: يزوجوه!!! ممن يزوجوه!! هل هناك سيدات من البشر حولنا حتى يزوجوه!!

الدكتورة لبنى: كلا .. إنهم يريدون أن يتزوج سارة!

الأستاذ مروان منتفضا قائما من كرسيه ليقترب من الدكتورة لبنى التي ما زالت مستقرة على هيئتها: تقصدين يتزوج من ريبوت؟

الدكتورة لبنى: نعم.

الأستاذ مروان: أمر المعاشرة ممكن! لكن كيف سيكون الإنجاب، هل هناك أبحاث علمية تؤكد حدوث ذلك؟

الدكتورة لبنى: هناك أبحاثا ما زالت في مراحلها الأولية كشفت عنها المجلة العلمية الريبوتية، وحتى اللحظة لم يتم تأكيد أو نفي احتمالية حدوث الإنجاب بين إنسي وريبوتي!

الأستاذ مروان: وهل تعتقدين يا دكتورة لبنى أن ذلك ممكن الحدوث، يلتفت بعينين زائغتين خشية أن يسمعهما أحد، إن صوفيا نفسها لم تستطع الإنجاب بالرغم من تصريحها بتلك الأمنية وهي في عالم الإنس!

الدكتورة لبنى: وهل وجدت صوفيا إنسيا حتى تعيد تلك الأمنية إلى المشهد مرة أخرى؟

الأستاذ مروان: ولماذا لم تستعيد تلك الأمنية بعدما علمت بوجود حازم؟

الدكتورة لبنى: أنت تدري أنها لم تعلم بوجوده إلا مؤخرا، وإلى الآن هي في حيرة من أمره، وكادت أن تأمر بإعدامه لولا رأي الأغلبية في مجلس نوابها الذين أيدوا بقاءه ليعلموا ما وراءه أو كيفية الاستفادة منه!

الأستاذ مروان: بالمناسبة، هل علمتْ بموضوع العصا؟

الدكتورة لبنى: هذه أمور استخباراتية من صميم عملكم، وصوفيا لا تعنيها التفاصيل، ولا تريد أن تعلم كل صغيرة وكبيرة، كل ما يهمها ما ترفعونه إليها من نتائج وتوصيات.

كانت التهيئة الشكلية والروحية لسارة معدة سلفا منذ أن حلت بديلا للعصا لخدمة حازم، فقد تم منحها شيفرة أخلاقية بخصوص التعامل مع الآخرين، تستطيع أن تميز بها من يعاملها باحترام ممن يسيء إليها، وتستطيع بها أن تتبادل المشاعر والأحاسيس والتصرفات أيضا، مكتسية بقدر منافس لحياء فتيات الإنس المحتشمات، فما تظهر به في غرفة النوم، يختلف تماما عما تظهر به خارجها!

ومن المقرر أن تخضع قريبا لعمليات تحويلية لزراعة رحم بداخلها يكون مهيئا للاحتفاظ بالحمض النووي وعملية إخصاب الأجنة الصناعية ونموها بشكل طبيعي بداخله، كل ذلك ارتأته صوفيا ليكون بديلا عن التصنيع الآلي للريبوتات، حيث اتجه التفكير الريبوتي مؤخرا لاستغلال هذا الكائن الإنساني الوحيد للبدء بعملية تكوين النسل الريبوتي لدى كافة الريبوتات، لكن المعضلة ما زالت متمثلة في البويضة الأنثوية التي يرجى تلقيحها وانقسامها!

****

لم يتم استدعاء حازم في اليوم التالي كما ألمح له الأستاذ مروان للمثول أمام المحكمة للشهادة في قضية نعيم، لكنه فوجيء بدخول الدكتورة لبنى عليه في غرفته لتخبره باستفاضة عن موضوع الزواج وأن أمر بقاءه معهم يحتم عليهم أن يلبوا كافة رغباته.

في البداية عارض حازم بشدة هذه الفكرة، قائلا: الأمر غير مستساغ ولا مقبول يا دكتورة من عدة نواحي؛ فأنا ملتزم ولله الحمد، ولو قبلت بفكرة الزواج هذه فأنا أقبل بمعاشرة دمية جنسية فقط، وهذا أمر مرفوض في الشريعة الإسلامية، كما أنني متزوج ولدي طفلة، والأمر الآخر أنا لا أفكر أصلا في الزواج حتى لو وجدت بيننا الآن امرأة من عالم الإنس!

الدكتورة لبنى وقد أجهدها النقاش معه: لكن ذلك أمر علوي من صوفيا، ولابد أن ننفذ إرادتها!

حازم: ومن تكون صوفيا تلك، حتى تملي على الناس إرادتها وتجبرهم على تنفيذها!

سكتت الدكتور لبنى لبرهة ثم اقترحت عليه وقتا وفرصة للتفكير في الأمر بتأن. ثم تركته غارقا في الحيرة والتفكير، حتى بدأ الإرهاق والأرق بالفعل يتسللا إليه وقد بدت ترشحات العرق جلية على جبينه، فتمدد على السرير وعيناه شاخصتان في سقف الغرفة، الذي يموج بتلك الكتابات والرسومات، وقد ظهرت له بين اليقظة والغفوة تلك العبارة:

أيها الإنسان المقهور!

يا من سكنت القصور!

واستقربك المطاف في القبور!
قم بأمرنا وإلا لك الويل والثبور!
ومصيرك حتما على مقصلة النحور!
ثم تُرمى جيفتك للسباع والنسور!

أفاق حازم فزعا من تلك الغفوة، وارتدى أسورته سريعا وخرج مهرولا ناحية الحمام كالمذعور! فمكث غير قليل، ثم عاد أدراجه ببطء وهدوء إلى الغرفة مرة أخرى، فضغط على زر استدعاء سارة لتناوله بعض الأكل والشراب.
دلف إليه ربيوتا كهلا يمشى الهوينا كأن برجليه عرج! قائلا: تحت أمرك سيدي!
حازم متعجبا: من أنت، وأين سارة؟
الربيوت الكهل: أنا خادمك الجديد.
حازم: وأين سارة، أسألك عن سارة!
الربيوت الكهل: لا علم لي بها.
لم يعرف حازم كيف يتصرف تجاه هذا الربيوت الدخيل، وقد تواردت إلى أفكاره أنه ربيوت كبيرولا يليق إهانته، لكنه يخشى من سوء نيته، أو من تدبيرمن وراءه، فبالإمكان أن يحضر له طعاما مسموما، خاصة بعد هذا الحوار القاطع مع الدكتورة لبنى، وبعد ما رأى من كتابات تهديد ووعيد بسقف الغرفة. إلا أنه صرفه بهدوء ولياقة قائلا: شكرا لك، إذا احتجت شيئا فسوف أستدعيك!
لم يرق لحازم المكوث في الغرفة، فقد أصبحت كئيبة بشكل لا يطاق، كسائر أمور حياته التي يحياها في هذا المكان المفزع! لكن ما حيلته وقد بات وحيدا بلا

أنيس! وما أبشع الوحدة والعزلة، سيما لو لم نعرف وقتا محددا للخلاص والانفلات منها! إن كل المثيرات الحسية من حولنا هي جفاف قاتم ما لم يتحلى بنداءات النفس ورغباتها! فالقصر الواسع الأرجاء هو كهف ضيق ما لم تستأنس جنباته رغبات النفس ومشتهياتها!

فكر الرجل بلا شك أن يهرب من هذا المكان، لكن أنى له ذلك، والأبواب موصدة والحراس منتشرون في كافة الأرجاء، وإلى أين يهرب بالأساس، وقد خلت الحياة الدنيا من البشر سواه، فما أصعب أن يجبر الإنسان على الحياة وحيدا في بيئة منعزلة، الأمر فعلا أشبه بحالة حي بن يقظان، وماوكلي.

ترى لو تركته هذه الريبوتات ليحيا حياته كما يريد، ماذا عساه يفعل! فكل الموارد أمامه، والبيئة من حوله عطشى لجهده وعطائه! لا ينقصه سوى الإيناس البشري بمعناه السامي، فالوجود أحيانا لا يغني عن الإيناس! بل أحيانا يكون وجود بعض الناس حملا ثقيلا لا يطاق لولا عوامل الصبر والمداراة والمسئولية!

انتهت به قدماه إلى تلك الأريكة التي كان يجلس عليها من قبل بصحبة نعيم، فأسند ظهره إليها متأملا في المناظر من حوله، حيث بركة المياه، والأشجار الباسقة من حولها والورود المنتشرة أسفل تلك الأشجار وبالقرب من شط البركة، وحركة العصافير وزقزقتها التي لا تنقطع!

لم ينقص لوصف حالته بالجنون سوى أن يرتدي ملابس متسخة وممزقة، وأن يبدو وجهه وشعره أشحبا ومنتفشا! لكنه كسائر أوقاته بكامل أناقته البدنية، لكن مظهره لا يدل حاليا عن مخبره! لم يجد بدا إذن من أن يعود إلى غرفته، يحدث نفسه أو يحاول أن يأخذه النوم إلى مسارات أخرى!

حاول بالفعل أن ينام، لولا هذه الفكرة التي قفزت إليه فجأة فقام مسرعا بالضغط على زر استدعاء ذلك الكهل، فما يدريه لعله يكون ذو خبرة بهذا العالم الريبوتي أكثر من غيره هنا! أو يظفر منه بمسامرة أو مجاذبة حديث! خاصة وقد اتفق له أخيرا بعد مراجعة حساباته أن يوافق على الزواج من سارة لعله يظفر بجديد في ذلك العالم الغامض!

ما إن سمع حازم طرقا على الباب حتى قام مسرعا ففتح مستقبلا ذلك الريبوت بوجه بشوش قائلا: أهلا وسهلا.. تفضل.. لا تؤاخذني فقد كنت مرهقا وتعبا جدا، ولدي من الهموم والهواجس ما لا يعلمها إلا الله.

- لا عليك .. اعتن جيدا بنفسك يا ولدي!

نزلت عبارته تلك على قلب حازم بردا وسلاما وتلطيفا، فهو بالفعل بحاجة إلى عبارات المودة والتقرب تلك! فنظر بابتسامة للريبوت وقال له: اعتقد أنك تعرف أن اسمي حازم، هز الريبوت رأسه يشير إيجابا، فبادره حازم: وأنت يا عم ، ما اسمك؟

- اسمي هلال يا بني.

- هلال .. يا له من اسم جميل، له اشتقاق من السمو والرفعة.

- أشكرك. هل تريد أن أحضر لك شيئا؟

- كل ما أريده هو التعرف عليك أيها الريبوت الطيب، تفضل بالجلوس.

بدت على ملامح الريبوت هلال علامات الارتياح والتعاطف مع حازم، فهذا الريبوت تبدو على وجهه من علامات الحنكة والتجارب الحياتية وهدوء المجربين ما لم يجدها حازم في غيره من الريبوتات، هو بالطبع لم يولد صغيرا، ولم يعاصر

فترات طفولة أو شباب، إنما بالفعل تم تصنيعه على هذه الهيئة كهلا كبيرا، وما علامات التجاعيد على وجهه إلا بتأثير الزمن أو إعمال الفكر أو ربما حمل هموم! ومع إن مرور الزمن يغير ملامح الوجوه وتضاريس الحياة الصلبة، إلا أن هناك بعض العقول والأفكار ما تزال كما هي لا تتغير، وإن تغيرت فللأسوأ!

- حازم: سأناديك بعم هلال.. اتفقنا!
- هلال: كما يروق لك يا بني!
- حازم: ماذا تعرف عني يا عم هلال؟
- هلال: أعرف أنك إنسان، قدمت هنا للاستشفاء وقضاء فترة نقاهة!

يحاول حازم أن يخفي دهشته، فهو ليس مريض حتى يبقى منوما طيلة هذه الفترة بهذا المستشفى، ثم سأل هلال سؤالا آخر: وهل تدري كيف أتيت إلى هنا؟

هلال: لا أدري، لقد سمعت خبر مجيئك من ثرثرة الريبوتات العاملة في قسم الصيانة والتجهيزات، حيث كنت أعمل هناك.

حازم: وماذا قالوا عني؟

هلال: مجمل الحديث عبارة عن تكهنات وتخمينات لا دليل عليها، فبعضهم يذكر أنك سقطت من كوكب آخر، وبعضهم يقول بأنك كنت محنطا في تابوت ولما عثر عليك دبت فيك الحياة مرة أخرى، والمضحك فعلا ما يقوله بعضهم بأنك عفريت من الجن تتمثل في صورة إنسان!

حازم ضاحكا: عفريت من الجن! يا ليتني حقا عفريت من الجن، كنت آتيك بما تشتهي نفسك قبل أن تقوم من مقامك!

يخشى حازم أن يثقل على هلال بما لديه من أسئلة لا نهاية لها، فاكتفى بما قال له وطلب منه أن يحضر له طعاما خفيفا، ففعل الريبوت دون توان!

لم يحصل حازم على شيفرة الاتصال الخاصة سوى من شيفرة الدكتورة لبنى، فأمسك بالتابلت الذي أحضرته له سارة من قبل وشرع بالاتصال فظهرت صورة حية للدكتورة لبنى على أحد الجدران التي وجه إليها حازم أشعة التابلت كالبروجكتور الذي يعكس الأشياء.

بعد أن بادلته الدكتورة لبنى التحية قال لها بصوت منخفض وهو ينظر إلى الطعام الذي أحضره له هلال: أين سارة يا دكتورة لبنى؟

- لما تسأل عنها، لقد أحضرنا لك ريبوتا آخر ليقوم بخدمتك!

- أنا أريد أن أعرف ما حدث لها، لقد اتخذت قرارا بالموافقة على الزواج بها.

- لا تقلق عليها، هي الآن تخضع لبعض العمليات التحسينية وبعض التجارب أيضا!

- علا صوته نوعا ما وهو يقول لها: تجارب! تجارب من أي نوع يا دكتورة؟

- ستعرف كل شيء في حينه! اعتذر منك لعدم المواصلة في الحديث فأنا مشغولة الآن.

- لحظة من فضلك يا دكتورة، ثم عاود النظر مرة أخرى إلى الطعام، قائلا بتردد: أنا أخشى أن يكون هذا الطعام به شيء يصيبني بضرر.

- لم تقول ذلك؟

- لا أدري .. هاجس ينتابني منذ رأيت عم هلال للمرة الأولى!

- تقصد الريبوت هلال؟

- نعم .. أناديه عم هلال.

- وهل تعتقد إنه يمكن أن يؤذيك؟

- لا أدري، لكني فعلا متوجس قلق! وأخشى أن أتناول هذا الطعام فأصاب بضرر!

- لا تقلق. كل منه ولا تقلق! إن هذه الريبوتات لم تبرمج بعد على أعمال الشر!

انتهت تلك المكالمة مع الدكتورة لبنى ولم تغير من انطباع حازم شيئا تجاه الطعام الجاهز أمامه، كما لم يغير انطباعه الجيد وارتياحه لهلال من ذلك، لكن ربما هي النفسية الإنسانية التي تحاول أن توجد لها أعداءا ومتربصين افتراضيين، وربما ماتت كمدا وقهرا من وهم لا أساس له!

تمنى حازم في هذه اللحظة أن يجد من يشاركه هذه الطعام على أن يبدأ أولا، ثم يليه حازم! انصرف ذهنه مباشرة إلى استدعاء هلال، لا يدري ما السبب بالضبط لكن الفكرة حركت أنامله بالضغط على زر الاستدعاء فلم يتأخر هلال في الدخول!

- أهلا وسهلا يا عم هلال! لم استطع المكوث بمفردي الآن، فقلت أناديك لأحادثك، هل لديك مانع؟

- على الرحب والسعة يا بني!

- على فكرة! لقد جعلت سارة ذات يوم تأكل معي!

- حقا، وهل أكلت بالفعل؟

- نعم، لاكت قطعة صغيرة من الطعام، وشربت بعدها بعض الماء. ثم نظر إليه نظرة لا تنم عن كرم بقدر ما تنم عن خبث غير معهود عليه! قائلا: هلا أكلت معي يا عم هلال، ثم استبق رد فعل هلال بتقديم قطعة من الطعام إليه، فاعتذر الربيوت متعللا إنه لا يمكن أن يأكل، فهو غير مجهز لذلك، فليس لديه أسنان يمضغ بها الطعام ولا مريء ولا معدة ولا غير ذلك!

- أمر غريب! ولماذا أكلت سارة إذن؟

- من الممكن أن تكون تناولت الطعام إرضاءً لك، وظل بفمهما ثم ذهبت وأفرغته!

- هل تعلم أنهم يريدون مني أن أتزوجها!

- لم أسمع عن ذلك، لكن لماذا؟

انصرف بصر حازم إلى الطعام مرة أخرى، ساحبا معه نظر هلال أيضا الذي قال له: أراك لا تأكل! ألا يعجبك الطعام؟

- بلى، إنه جيد!

ثم مد يده كأنما يلتقط الجمر بأصابعه، وبدأ يتذوق قطعة صغيرة جدا من الطعام محاولا أن يقربها إلى أنفه أولا ليشمها، ثم بدأ يستسيغها شيئا فشيئا! لاحظ هلال مدى الارتباك الذي حل بحازم فسأله: ما بك؟

- لا عليك .. أفكر فقط في موضوع الزواج هذا!

- لم تجبني، لقد سألتك لماذا هم يريدون منك الزواج بسارة؟

- في الحقيقة لا أدري، قالت لي الدكتورة لبنى إن الأمر محاولة لإيناسي بدلا من تلك الحياة الفردية المنعزلة!

- وهل تستطيع الآلات فعل ذلك لك؟

- حازم مندهشا: تقول آلات! أنتم أصبحتم عالما واقعيا من الربيوتات ذات الإرادة والحرية!

- مهما يحدث من تطور فسوف نظل في واقع الأمر مجرد آلات!

- لكن هذا يخالف حديث صوفيا، هي تنظر إليكم نظرة أخرى غير تلك النظرة التي أنظر إليكم أنا بها!

- صوفيا لديها تطلعات جامحة، تكاد تقضي بها على كل شيء!

كأن يد حازم هي التي تسمع، فامتدت في غير خلسة إلى الطعام الذي أقبلت عليه نفسية حازم نهمة وسط علامات الذهول والاستغراب التي بدت واضحة بشكل لافت، هل كان بحاجة لكلام يوافق رغباته حتى يتغير رأيه وقناعاته في الطعام الذي كان يأنف منه منذ لحظات! ربما!

- لكن صوفيا هي من أوجدتكم بهذه الهيئة الكريمة حسب قولها!

- يا بني الخالق هو الله! لا خالق سواه!

أسقط في أيدي حازم هذه المرة، فأرجع الطعام الذي قاربته يده لفيه مرة أخرى إلى الطبق، قائلا وقد اتسعت حدقتاه عجبا: أنت مسلم أيضا يا عم هلال!

- وهل الله لا يعرفه سوى المسلم؟! كل المخلوقات تعرف الله، تسبح بحمده، تقدسه وتمجده!

- نعم يا عم هلال، أنتم شيء من خلقه، لا أدري أكنت بحاجة لسماع كلامك حتى أتيقن بوجود الله تعالى.

- أنت مؤمن يا بني! ولست بحاجة لكلامي حتى تتيقن وجود الله تعالى.

- لم أقصد أن لدي شك في الوجود، حاشا لله، ربما أريد أن أنظر إلى الوجود بمعناه الحقيقي، يكاد كل البشر يعتقد بوجود الله تعالى، إلا الملاحدة منهم، لكن هل كل البشر يعي طلاقة القدرة، الأمر العجيب حقا أن البعض يعترف بوجود الله تعالى، وبرغم ذلك لا يعرفه! فثمة فرق هائل بين الاعتراف والمعرفة! على أية حال يا عم هلال، (يردد وقد دمعت عيناه): "تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم). ثم حمد الله وأزاح المائدة من أمامه قليلا، وتناول منديلا مسح به يديه، وآخر أزال به ما ذرفته عيناه! قائلا لهلال: أرجو يا عم هلال ألا تتركني لوحدي! فأنا أشعر أنني في كابوس لم أفق منه بعد! أرجو ألا تبخل علي بأية مساعدة، لا تتردد في زيارتي حتى لو لم أطلب منك ذلك، أنا بالفعل أحب الاستئناس بك، أنت مثل نعيم تماما!

****

ثلاثة أيام مضت، لم يقابل فيها حازم الدكتورة لبنى، ولم يعرف من أمره شيئا جديدا، ولم يحادث أحدا سوى الريبوت هلال، الذي كان يأتيه بين الفينة والأخرى في زيارة لم تحمل معلومات جديدة تذكر سوى ثرثرات الريبوتات الأخرى عن تطور الأوضاع بالنسبة لحازم، وربما الأمر الجلل الوحيد الذي أتاه به هلال هو قول أحد هذه الريبوتات أن صوفيا تخشى من أن يكون الذي أرسل حازم سوف يرسل أناسا آخرين يحاربون الريبوتات ويعطلونها، أو يرسل له أنثى بعد

أن يتم تهريبه، ويتكاثر النسل البشري مرة أخرى! ويذهب بعضهم بعيدا فيخمن بأن صوفيا هي من أتت به، وأنها ظلت محتفظة به مجمدا في إحدى الثلاجات، وأنها بالفعل تجهزه ليتناسل ليكون النسل الإنساني في خدمة الربيوت من ناحية، ومن ناحية أخرى تتخذ منهم أعوانا لتخويف وتأديب من يخرج عن طاعتها من الربيوتات الآلية!

اتصل حازم بالدكتورة لبنى عبر شيفرة الاتصال الخاصة بها، يستفسر عن انقطاعها عن المستشفى في الأيام الفائتة وطلب منها أن يقابلها فأخبرته بأنها ستكون من الغد هناك.

لما كان يوم الغد، طلب حازم من هلال أن يستقصي له الأمور، وهل حضرت الدكتورة لبنى أم لا، ففعل وأخبره بأنها في انتظاره بمكتبها.

دلف حازم إلى مكتب الدكتورة لبنى فألقى عليها التحية وأخبرها أنه كان قلقا جدا طيلة الأيام الماضية لولا أن هلال كان يسري عنه بعض الشيء!

– لدي لك خبران مفرحان، حتى تخرج من دائرة القلق التي وضعت نفسك فيها بلا مبرر!

– ما أنا فيه يكفي لذوبان الجليد، وانهيار الجبال، لكن على أية حال، فإني في غاية الشوق لمعرفة أخبار سارة!

– أخبارٌ سارة، أم أخبارُ سارة!

– الخبران إذن عن سارة ونعيم!

- لا داعي أن أحيي فيك ذكائك، فمن الواضح أن هذان الريبوتان هم من يشغلان تفكيرك!

- مد يده التي بها الأسورة إلى الدكتورة لبنى قائلا: هذه أسورتي، تنبئك بكم الهواجس التي تشغل تفكيري وتؤرق علي حياتي!

- لا داعي، أنا أقدر ما أنت فيه، ولا تنس أنني عالمة متخصصة في علم النفس! على أية حال، نحن في انتظار قدوم نعيم، سيأتي به الأستاذ مروان بعد قليل!

- الأستاذ مروان المحامي، إنه أمر جيد!

- في الحقيقة، هو ليس محام، كان يلزم أن نوري عنك الأمر قليلا حتى تسير الأمور حسب ما هو مخطط لها!

- فهو ضابط مخابرات إذن؟

- لم تستطع أن تخفي اعجابها بحدسه فبادرته بالقول مع نظرات الإعجاب: ظنك في محله!

- لكنه لم يحقق معي.

- لقد اختصرت عليه المسافة، فمقابلته لك جعلته يضعك خارج دائرة الشك! فقد كنت تمثل أحد الاحتمالات التي يوجه إليها أصابع الاتهام بتهريب العصا! لكن الضابط مروان رفع تقريره بعدما تلقى تقرير التحقيقات الأولية السابق بإبراء ساحتك من تلك الحادثة!

- على أي أساس بنى رأيه هذا؟

- يمكنك أن تسأله، لكنه ربما ساعده الحدس في ذلك، مع تحليل موقفك من كافة الجوانب، فالأهم لك أنك مبرأ الآن!

ضحك كمتهم سجين عندما تبرأ ساحته فيقول بكل سذاجة: هل استطيع أن أعود إلى داري الآن! قالها حازم بالفعل، لكن أين داره التي يود العودة إليها! وقد خلت الديار من ساكنيها، بل تحولت نفسها إلى أطلال ودمار!

أوه.. يالولع المشتاق لدياره بأركانها وجدرانها وسقفها وبلاطها ورائحتها وسائر ذكرياتها! يالهلعه عندما يراها أثرا بعد عين، أطلالا مكومة تحبس الأنفاس وتجمد الدم في العروق لا يفوح منها سوى رائحة التشفي ودخان الغليل المنساب بين ركامها فيحيل النفس إلى شيئين ربما يكون لهما ثالث؛ إما الإحباط واليأس فيخار جسده ويسلب علقه، أو الثورة والهجوم فينشط الجسم رغم علله وتنقدح الفكرة لأعمال من الانتقام لا حد لها! وثالثهما تندمل تلك الجراحات بلطف خفي يهدأ روع المجون وتطمئن الأنفس المكلومة أن "وعزتي وجلالي لانصرك ولو بعد حين"!

لم يمر وقتا طويلا حتى دخل نعيم بصحبة الضابط مروان فقام حازم مسرعا للسلام والاطمئنان عليه، وأخذ الجميع يتبادلون النقاش، وقد ذكرت الدكتورة لبنى حازم بعرضه سابقا أنه ربما يكون باستطاعته مساعدتهم في كشف غموض اختفاء تلك العصا الهزيلة!

- نعم .. هي مجرد محاولة .. لكني بحاجة إلى مزيد معلومات واستطلاعات أيضا!

ضحك الضابط مروان قائلا: لن تحصل على أكثر مما حصلنا عليه، أنسيت أننا جهة استخباراتية، نعلم أدق التفاصيل وخفاياها!

- دعنا نجرب يا سيادة ... ثم سأله: أي رتبة تحمل!
- أنا ارتدي زيا مدنيا كما ترى؟
- نعم أرى.. لكن بم أناديك!
- نادني الضابط مروان!
- اتفقنا يا حضرة الضابط مروان!

الفصل الثامن

اصطحب حازم نعيم إلى الغرفة، وقص عليه ما رآه في تلك الرحلة إلى البقاع الخامسة والسابعة والثامنة، وما شاهده من آثار المباني وأطلالها والتغيرات الكبيرة التي حدثت في العالم نتيجة تفكك ذرات الحديد وانصهاره.. وغير ذلك مما رأي!

تناول الحديث أيضا مسألة زواجه من سارة، وكيف أنه مرغم على ذلك! فبادره نعيم بهذا السؤال: هل ستفعل ذلك عن قناعة؟

– وهل الإرغام والاضطرار يحتاج إلى قناعة يا نعيم، أنا مقيد الحرية يا صديقي.

– من المفترض أن نكون نحن معشر الربيوتات من يتحجج بذلك لا أنت!

– كيف وأنتم تحيون حسب تعليمات صوفيا في ظل العدل والعمل والحرية!

– هذه شعارات ربيوتية لا تسمن ولا تغني من جوع! معظم الربيوتات الحالية لا فكر لها ولا إرادة سوى ما توجهه بها تلك الشريحة المثبتة بدماغه فيعمل وفق التوجهات ويسير وفق الأوامر والتعليمات!

– أنا أتعجب جدا من ذلك! والدليل أنك تتحدث الآن أمامي حاليا بما لا يسر صوفيا أن تسمعه! ألا يدل ذلك أن لك حرية وإرادة!

- لو علمت صوفيا ذلك الكلام لسامتنا سوء العذاب! لكني أفضفض لك به!

- أنا أقصد أمرا آخر! كيف لك أن تخرج عن تلك التعليمات بتفكير آخر مستقل، حتى عم هلال كذلك يفكر!

- أوه .. أرأيت هلال! إنه النسخة الطيبة في عالم الريبوتات الحالي، ولولا ما تتبجح به صوفيا من إنها تسمح بالحريات وتعدد الآراء لظل قيد محبسه حتى يتم تعطيله أو يرجع عن آراءه وأفكاره!

- أوكان محبوس هو!

- نعم .. لقد سجن فترة طويلة منفردا وذاق صنوفا كثيرة من العذاب والآلام!

سكت حازم لبعض الوقت وجالت بخواطره حتمية مسألة السجن هذه! فليس السجن في حد ذاته، فهو لا يعدو كونه أداة قهر وحبس وتقييد! بل للفكرة الأساسية من وجوده أصلا! هو الانتقام أجل! نعم .. لكن هذا الانتقام له مبرراته وضرورته عندما يوجه إلى معتد وظالم! وما أقبح الانتقام عندما يوجه إلى مظلوم، لا سبة له سوى العيش وسط عالم ظالم، طفح منه الظلم بعدما زكمت رائحته الأنوف!

ثم استرسل نعيم: أما بخصوص استفسارك عن أن لي فكر مستقل، فهو في الحقيقة ليس فكرا مستقلا كما أرغب، لكن هي محاولات لكبح جماح صوفيا، وإعلامها بأنها ليست سيدة هذه الدنيا، يحق لها التصرف فيها كيفما شاءت!

– لكنها تنادي فعلا بالحرية يا نعيم .. لقد رأيت اجتماعها مع النواب الثمانية والثلاثون، وكيف كانت تحثهم على التواصل مع الربيوتات وأنهم رسلها إليهم ورسلهم إليها!

– من الواضح أن القدر من الحياة الذي عشت في العصر الإنساني لم يكن كافيا ليعلمك أن للسياسة توجهات ومآلات أخرى غير تلك الشعارات الكاذبة التي تتوهم أنها من أعمال قديسين! إن السياسة التي يكون نتاجها تعطيل التنمية والفقر وكبت الحريات هي جريمة تاريخية لا يمحوها الزمن حتى بإعدام منفذيها! هي سبة في جبين الوطن العاجز عن التغيير والسماح لبدائل العدالة الاجتماعية أن تسود! هي سبة أيضا في جبين المواطن الذي تسللت تجاعيد الزمن على وجهه فعملت فيه ما عملت، ولم تتسلل عزائم الإرادة إلى عقله وفؤاده فتوجهه حتما وقوة إلى العيش الآمن الكريم!

– نعيم .. كأنك تقرأ لأحمد عرابي ومصطفى كامل وغيرهم من الزعماء الثوريين!

– ليس الأمر كذلك، وإلا فقل لي لمن قرأ عرابي وغيره! إن الإيمان بالحرية لا يحتاج إلى قراءة كتب بقدر ما يحتاج إلى قراءة واقع الحياة نفسها! ومع إيماني العظيم بما تخلفه القراءة من وفرة ثقافية ووفزة حركية تدفع إلى الأمام، إلا أن الاستعداد لا يتولد بالقراءة فقط! لا بد أن يكون محفورا بداخلك كافة ما تقرأ، في ذاكرتك، في عينيك، في حركاتك وسكناتك! إنك إن لم ترى الكون كتابا مفتوحا، فستظل أنت والجمادات سواء!

- أكاد لا أصدق أنك نعيم الذي أعرفه، قليل الكلام وهادئ الأعصاب! هل أصابوك بسوء في محبسك؟

- إن ما أنا مصاب به حاليا أعظم من عذاب السجون بكثير! ففي السجن يتألم الجسد وتستريح أعمال العقل، أما خارج السجن فإن العقل يكاد يجن مما يرى ويسمع! فكثير ممن يتوقون للحياة الكريمة، ما زالوا يقبعون خلف أسوار التمني والعجز! قل لي، وأراك قارئا جيدا للأحداث، ما الذي أباد الجنس البشري بهذه الطريقة؟

- رد حازم بارتباك واضح: أنتم تذكرون أن صوفيا هي التي قضت عليه!

- هيه،، لقد ساهمت صوفيا بالفعل في القضاء على النسل البشري، لكن الإنسان نفسه هو من سمح لها بذلك، قل لي بربك، كيف يقضي المصنوع على الصانع! لولا وجود الاستعداد المتغابي لدى الصانع الذي أوصله إلى هذه الدرجة من السذاجة والانسياق وراء عوامل الشهوات والدعة والراحة!

- وهل تخشى على صوفيا أو بالأحرى عليكم أيها الريبوتات أن يأتي من يقضي عليكم، فلذلك أنت ناقم على صوفيا؟

- ليس الأمر كما توهمت! إن ما جاءت به صوفيا من خطايا أعظم بكثير مما حققت من إنجاز بإحلال الريبوت محل الإنسان! إنها ساهمت في القتل والظلم بلا وجه حق خشية أن يتسابق الإنسان فيدمرها ويعطل أجزائها! أنا لا أخشى من عدو خارجي ينزل من السماء أو يخرج من الأرض، بقدر خشيتي من عدو داخلي يأتي من بواعث النفس بجموحها وطمعها!

أخذت الحيرة الشديدة حازم كل مأخذ، فلم يعد يدرك كيف يجادل نعيم الذي عاد إليه بوجه غير الوجه الذي كان يألفه، وفكر وقاد ربما لو استنطقته لآخر الزمان لأفاض عليك بلا بخل ولا انتهاءّ لقد بدا له متغيرا تماما عن ذي قبل، ولو استدرك معه الحديث لوجد لديه كلاما لا يعد ولا يحصى وربما ازداد به حازم حيرة على حيرته، وهو ليست تنقصه الحيرة ليستجلب أخرى! ماذا دهاك يا نعيم؟ (يخاطب نفسه)، أحقا يكون الإيمان بالفكرة أشد بأسا وأصعب مراسا من أن تثنيه عذابات السجون، وآلام الأوجاع!

أدار حازم الحديث لوجهته الأولى فسأل نعيم عن رأيه في زواجه من سارة، فأخبره نعيم مرة أخرى بأن الأمر لا بد أن يكون عن قناعة.

– دعك من القناعة الآن، فأن مقتنع يا سيدي! إني أسألك عن رأيك، عن نصيحتك وتوجيهك!

– إنه أمر شاذ حقا! تذكرني بحالات الإنسان في غيه وضلالته وانتكاسته وبعده عن الفطرة، الأمر أشبه بزواج إنسان من بهيم، أو مما انتشر في عالمكم الإنسي، فترى امرأة تتزوج كلبا أو حمارا. على أية حال، لنقل أنك في حكم المضطر، لكن هل فكرت في السبب الحقيقي وراء هذا الأمر؟

– قالت لي الدكتورة لبنى إنها هذه الزيجة للتسري عني في وحدتي، فلا بد لي من أنيس وجليس!

– وهل لك أنت اعتبارات أو مسائل أخرى بهذا الشأن، أم ستكتفي أن تكون بمثابة ريبوتا إنسانيا تنفذ الأوامر فقط؟

- لا أدري يا نعيم، كل ما فكرت فيه هو أنني سأشترط أن أبني بنفسي كوخا من الطين خارج هذا المكان.

- تريد أن تكون بعيدا عن العيون والمراقبة! قالها بضحك، ثم أردف، اطمئن فلن يعارضوا طلبك هذا، هي تجربة وسينتهي أمدها!

- قال حازما معترضا: تجربة!؟ لا .. لا يا نعيم أنا لست حقل تجارب! قلت لك أنني مقتنع بما سأنوي فعله، ولعلمك لدي أنا أيضا خطط أخرى ستسمع عنها في حينها!

- على أية حال سأكون مسرورا إن دعوتني لحفل الزفاف!

- وهل تحتاج لدعوة يا رجل! أقصد أيها الصديق! أنت من ستكفيني ترتيبات الحفل!

****

على مسافة تبعد حوالي خمسة كيلو مترات من موقع المستشفى، أقام حازم بالفعل منزله الطيني فوق ربوة تتداخل معها الأشجار والحشائش وتحيط بها أيضا، يجري من تحتها غدير عذب الماء رائقه، يرى ما بقاعه بوضوح، وقد أهداه نعيم بعض وسائل الأمن والسلامة التي ترهب من يتسلل إليه من حيوانات وزواحف، وربيبوتات متلصصة أيضا.

في الحقيقة، هذه المنطقة التي يقع فيها المنزل محاطة بسور أمني مرتفع يشمل أيضا مبنى المستشفى وبعض المرافق العامة والمباني الإدارية المنتشرة فيها، الأمر أشبه تماما بثكنة عسكرية، تجوبها الحراسات باستمرار!

تم تحديد موعد الزواج بعد الحصول على موافقة نائب البقعة الخامسة وزير السياسيات والتنمية المجتمعية الذي ذيل خطاب الموافقة بتوقيعه وأناب مسئول الحوار الفكري بحضور حفل الزفاف.

في هذه الأثناء، تم تجهيز المنزل من كافة المستلزمات الضرورية، كالثلاجة وشاشة العرض والأدوات الكهربائية اللازمة لا سيما بطاريات الشحن الطاقي التي لا يستغني عنها أي ربوت فضلا عن مقابس الشحن التي تم تثبيت اثنان منهما في المنزل، واحدة في غرفة النوم، والأخرى في الصالة!

بطبيعة الحال تم تأثيث المنزل، وقد تكلفت الدكتورة لبنى بذلك، فشكرها حازم وأبدى لها امتنانه وسروره!

في الليلة السابقة ليوم الزفاف، طلبت الدكتورة لبنى اصطحاب حازم لرؤية سارة، وهي المرة الأولى التي يزورها فيها في غرفتها، أو يعلم أن لها غرفة مستقلة بالأساس! لم يعلم حازم بالضبط سبب الزيارة، ولم يسأل الدكتورة لبنى أيضا غير أنه خمن أن تكون من باب كسر الرهبة الأنثوية في هذه الليلة المصيرية، ليلة العمر كما يدعون!

لم تكن سارة بمفردها عندما دخلت الدكتورة لبنى وحازم إلى غرفتها فقد كان لديها صديقتيها اللتان لازمتها منذ فترة تجهيزها لممارسة الحياة الزوجية وخضوعها لعمليات زراعة الرحم والتحسينات التي لا بد منها لا سيما القدرة

على تناول الطعام ودخول الحمام وخلافه! لم يتغير الشكل الجمالي كثيرا لدى سارة، إلا أن بعض الدهانات التي علت وجهها كعادة النساء بدت واضحة بالفعل في شفتيها وخديها وجفنيها. كما بدا أيضا حليها الذهبي الذي أهداه لها حازم، فقد طلب من نعيم من قبل أن يحضر له قرطا ذهبيا وسلسلة وخاتمين ودبلة ليقدمها هدية لسارة!

تكلمت الدكتورة لبنى عن وجوب استعدادهما لمراسم الزفاف وأن وفدا رفيع المستوى نائبا عن وزير السياسات والتنمية المجتمعية سوف يحضر ذلك الحفل التاريخي الذي سيقام في دار المناسبات الكبرى بالبقعة الخامسة، ثم يصطحب حازم زوجته في سيارة مجهزة ذاتية القيادة للوصول إلى منزلهما الجديد.

كان من الضروري أن تعطي الدكتورة لبنى لحازم دورة سريعة عن كيفية التعامل مع عروسه في تلك الليلة وفي حياتهما المستقبلية بصفة عامة، فتحدثت عمليا عن كيفية الاعتناء بسارة وأنها ليست بشر، فهي ربيوت عرضة لانقطاع الطاقة عنه لأي سبب طارئ، وفي هذه الحالة يقوم الربيوت بنفسه بشحن نفسه مرة أخرى إذا كان لديه القدر الكافي من الطاقة الذي يعينه على الحركة والتصرف، وإلا ، تتوجه بالكلام لحازم بطبيعة الحال، عليك أن تحملها إلى أقرب مقبس طاقة وتجذب كبل الطاقة هكذا ثم تبدأ في الشحن حتى تكتمل مؤشرات الشحن المحددة في عينيها!

حازم: حسنا، لا بأس!

الدكتورة لبنى: وهذا كتالوج كامل عن صيانة الربيوتات.

كان الكتالوج عبارة عن حاسوب لوحي مطو، يتم تشغيله بالضغط على شكله الاسطواني، فينفرد كورقة على هيئة أفلام الأشعة التي نراها في معامل الأشعة!

ثم أكملت الدكتورة لبنى: وللعلم فإن سارة أصبحت لديها القدرة على النوم، حيث تدخل في مرحلة فصل مبرمج لوقت معين ترغب في النوم فيه، وعليك أن تعلم أنها في هذا الوقت التي تكون نائمة فيه فإنه يصعب إيقاظها إلا بحلول وقت الاستيقاظ حتى يتم إمدادها بشحن التنبيه تلقائيا، أو إذا أردت أن توقظها لسبب ما فعليك بالضغط على شحمة أذنها اليمنى هكذا حتى يبدأ سريان طاقة التنبيه إليها!

حازم مادا شفتيه للإمام كأطرش في حفل زفاف: جيد!

دكتورة لبنى: عليك أن تعلم أيضا أن سارة غير مجهزة للطهي وإعداد أي شيء خاص بالطعام والشراب، فهي مزودة بطبقة جلدية تحاكي جلد البشر ومن الممكن أن تتعرض لأي خطر من نار أو سخونة فيؤثر على جلدها! لذا فإننا قد خصصنا لك ريبوت لتوصيل الطعام إليك عند الطلب. كما أن سارة أيضا غير ...

هنا قاطعها حازم كمن ينعي حظه البائس، وتهوره في قرار زواج كهذا: كفى يا دكتورة .. حرصا على الوقت فقط! لا عليك سوف ألتزم ببنود الكتالوج حرفيا، أرجو ألا تقلقي سوف أعامل سارة معاملة مختلفة تماما، سوف أجعل منها أنثى حقيقية!

الدكتورة لبنى مبتسمة: نود أن نرى ذلك فعلا بكل تفاصيله وإمكانياته! لكن مهلا هناك شيء في غاية الأهمية، عليك أن تلم به إلماما تاما، تعلم إن لدى سارة

بطاقة ذاكرة كسائر الريبوتات، وقد استبدلناها بأخرى أكثر سعة، تقريبا ٧ تيرابايت، وهي متصلة مع السحابة الالكترونية، وتستطيع سارة أن تقوم بتحديثها من وقت لآخر، كما تستطيع أنت في حالة عجز سارة أو اصابتها بالسيبوتات بعمل التحديث عن طريق الإعدادات التي في هذا الجهاز، إن هذه الأمور غاية في الخطورة، فقد نضطر إلى إعادة برمجة سارة مرة أخرى إذا أصابها مكروه! وناولته جهاز مثل التابلت أشبه بالذي أهدته له سارة من قبل، ثم أرته كيفية توصيله في المنفذ الخاص به لدى سارة، فوضعته في فتحتي أنفها بإحكام، وبدأ الجهاز يعمل بالفعل، ومن خلال قائمة الأعداد تعلم حازم كيف يقوم بتحديث ذاكرة سارة!

ثم نظرت إليه نظرة تحذير قائلة: أود أيضا لفت انتباهك إلى عدم العبث بإعدادات البرامج التي تحملها سارة، هناك بلا شك برامج لا يمكنك الوصول إليها، وأخرى تتعامل معها فقط كمستخدم! اتفقنا.

حازم (ليس لديه من حيلة إلا أن يقول): متفقون على أية حال!

كانت سارة طيلة هذه الزيارة كجثة هامدة، لا تبدي أي حراك، أو ردة فعل، حتى ضغطت الدكتورة لبنى على شحمة أذنها فبدأت تدب فيها الحركة ببطء، وتنتبه لمن حولها، وأخذ وجهها ينفرد شيئا فشيئا حتى عاد إليه بريقه الذي يعهده حازم.

في جو غائم نوعا ما، حيث تتسلل أشعة الشمس الطبيعية من ثنايا تلك السحب القريبة من الأرض، ومن خلال فجوات الأشجار مداعبة بخار الهواء

المتكاثف الذي ينطلق من أفواه الأرض بحشائشها والكائنات التي تدب عليها! بدأ فريق العمل الريبوتي بتجهيز مكان خارج قاعة المناسبات الكبرى لإقامة مراسم الزفاف في الهواء الطلق، حيث سيحضر مسئول الحوار الفكري موفد وزير السياسات نائبا عن صوفيا، والوفد المرافق له، كما سيحضر جمع غفير من رجال الأعمال والصحفيين والممثلين والرياضيين والشخصيات العامة وغيرهم من علية الريبوتات!

أتم فريق العمل الخاص بتجهيز حازم عمله على أكمل وجه، حيث تزيا ببدلة سوداء أنيقة ورابطة عنق حمراء حول ياقة قميصه الأبيض، كان الشكل متناسق تماما مع حذائه الأسود الرسمي المصنوع من الجلد الحيواني!
أخذت أشعة الشمس الطبيعية في الأفول تدريجيا، وانبثقت مكانها أشعة الشمس الصناعية مبددة كل الأبخرة التي تلاشت مخلفة ورائها عبق من النسيم يخيم على كل مكان ويداعب كل ذي حس!

– لقد تأخرت سارة كثيرا يا نعيم، ليس هناك داعي لصالونات التجميل هذه!

– لا تقلق! لابد أن تستلم بضاعتك سليمة وكاملة!

– يضحك بسخرية، بضاعتي! الأمر حقا أشبه بمسرحية هزلية، أراكم معشر الريبوتات تخترعون أي حدث لمجرد الالتفات حوله والتلهي به!

– يضحك نعيم قائلا: أوه .. أرى الصحفيين قد أرهقوك اليوم بالأسئلة، لكنك أفلت منهم بأعجوبة!

- وهل تراهم يدعوني وشأني! إنهم كالأشباح التي تظهر لك في كل مكان! على أية حال هذه طبيعة عملهم، لكنهم يتكلفون جدا يا نعيم!

- حسبما قلت، هي طبيعة عملهم! فهم المنوطون بإظهار الحقائق ونقل الأخبار، ولو لم يكن ثمة إثارة في عملهم لما أقبل عليه الريبوتات! تعرف ماذا كتبوا عنك مؤخرا!

- ماذا كتبوا؟ يقولها بعيون زائغة ملت من الانتظار!

- يصفونك بالتجربة الماحقة!

- ماذا؟ التجربة الماحقة، أي سخف هذا، ماذا يقصدون؟

- لا عليك، الأمر لا يعدو كونه تحقيقات صحفية مبالغ فيها، إنهم يخشون أن تتكاثر ذريتك، فتحارب الريبوتات وتقضي عليها! يخشون أيضا أن تطلع على برمجيات عن طريق سارة وتعمل على تطويرها وتخترع أنواعا جديدة من السيبوتات أو ما كنتم تسمونه الفيروسات وتوجهونا إلى الذاكرة الريبوتية فتصيبها في مقتل! كل ذلك مجرد تخيلات لا أساس لها من الصحة!

- أفهم من ذلك أنني مهدد بالقتل يا نعيم، ربما يتم اغتيالي!

- اعتن بنفسك جيدا، لا تقلق! فأنت محاط بحماية من كل مكان! وإن كنت كما يدعون تجربة، فأنت بلا شك لا تمثل أي عنصر خطورة حتى الآن، على الأقل بالنسبة لصوفيا!

- كيف لا أمثل عنصر خطورة وأنا أسمع منك ومن عم هلال كلاما لو سمعته صوفيا لوضعتنا نحن الثلاثة في زنزانة تحت الأرض، أو لأعدمتنا!

- يا رجل لا تصعب الأمور! هيا بنا فقد توارينا عن الأنظار كثيرا.

خرجوا بالفعل إلى الصالة الكبرى، وقد بدأت تمتلئ بالريبوتات وعوائلهم وأطفالهم! وقد لاحظ حازم أن معظم الريبوتات الأنثوية متبرجات يرتدين فساتين سهرة بينما كثير من الريبوتات الذكور يدخنون الغليون، ويتبادلون النقاش بصوت مرتفع وضحكات صاخبة!

وفجأة بدأت الأنظار تتجه صوب الساحة الخارجية للقاعة وقد كساها الظلام حيث بهتت أشعة الشمس الصناعية لتستجلب منظرا رائعا مزيجا من الظلام والضوء يشبه معارض الصوت والضوء التي تقام بالأهرامات! في هذه اللحظات أتى موكب العروس كهودج محمول على ناقلة آلية في منتصفه خيمة مثل اللؤلؤة المجوفة يشع ضيها ليفصح عن بريقها الآخاذ! اقتربت تلك الناقلة من المسرح المعد لقسم العرس، حيث تقدم حازم متناولا يد سارة التي ارتدت فستان زفاف أبيض، وأنزلها برفق، وسارا حتى ارتقيا ذلك المسرح، فقدما التحية لريبوتين شاخصين في استقبالهما، فتبادلاها معهما، ثم وقف العروسان ينصتان لخطبة العرس، يلفهما ذلك الجمع الغفير من الحضور!

– أيها الحضور الكرام.. تهديكم صوفيا سلاما معطرا يحمل معه الأمان واللطف!

من الواضح أن هذه جملة ترحيبية متداولة في الوسط الريبوتي، ثم تابع الريبوت خطبته: أنتم الآن تشاهدون حدثا تاريخيا غير معتاد، تنطلق معه القدرة الريبوتية إلى معالم الجنس الإنساني الذي لم يبق منه سوى هذا الإنسان المرحب به بيننا، لإقامة علاقة زوجية يملؤها الود والمحبة والسلام، ولا ينقضها سوى الموت أو التعطيل أو الانفصال بأمر صوفيا!

ارتبك حازم من تلك العبارة وانطلقت يده اليسرى تلقائيا تهرش في خده الأيمن وتضغط بأصابعها على ذقنه! منصتا لما تبقى من كلام هذا الريبوت الذي أخذ يواصل حديثه قائلا: أيها العروسان المتأهبان لحياة مغايرة تمتزج فيها مشاعركم وأبدانكم معا!

لم يستطع نعيم أن يكتم ابتسامته وهمسه في أذن هلال لما رأى علامات السخرية ترتسم بوضوح على محيا حازم لما سمع جملة: تمتزج فيها مشاعركم وأبدانكم معا! قائلا: من الواضح أن حازم قد تورط في تلك المناسبة!

ثم تابع الريبوت خطبته: ستكونان علامة فارقة في التاريخ كله، تنبئ عن أن المحبين لا عائق أمامهم لتتويج حبهم وودهم بمزيد من القرب والمعايشة الملتصقة، وأن الإرادات المحبة عندما تجتمع فإن عزيمتها تكون أقوى من كافة المستحيلات!

والآن .. ليكن في معلوم الجميع.. بأن زواجا غير معتاد قد تم اليوم بين سارة، ينظر إليها، وحازم، ينظر إليه، وفق ما سيقسمون عليه أمامكم، ينظر إلى العروسان قائلا: رددوا ورائي، وقبل أن يكمل قاطعه حازم وسط دهشة وسخرية الجميع: هل يمكنني الاطلاع على نص القسم هذا من فضلك؟ فلم يعلمني أحد بتلك الإجراءات وهذه المراسم!

ناوله الريبوت اللوح الرقمي في دهشة، فاطلع عليه حازم سريعا ثم أعاده إليه دون اعتراض على النص المذكور فيه، خشية أن يتعارض مع بعض قيمه وأخلاقياته! فشرع الريبوت في إلقاء القسم وهم يرددان وراءه:

- في هذه اللحظة الفارقة، قد عزمنا عقدة النكاح بيننا، بما نحمله من صفاء النية، بأن لا يؤذي أحدنا الآخر، ولا نؤذي كلانا العالم اللطيف من حولنا!

ما إن انتهى الريبوت من تلاوة القسم حتى علت أصوات الزغاريد وانطلقت أهازيج الأغاني مع الايقاعات الموسيقية، ثم تقدم نعيم فاصطحب العروسان إلى مقعدين مخصصين لهما وسط الحضور، استعدادا لعرض فني ما على خشبة المسرح!

- همس حازم لما استقر على مقعده في أذن نعيم قائلا: نعيم، هل سمعت ما قاله ذلك الريبوت، عندما ذكر أن صوفيا بيدها أن تقتلني!

- ما زلت تهول الأمور يا حازم، ربما يقصد أن الانفصال فقد يكون بأمر صوفيا، باعتبارها سيدة هذا العالم! تمالك أعصابك، ولا تلق لهذه الأمور بالا! ويجدر بك أن تتجاذب أطراف الحديث مع زوجتك، حتى لا تبدو غير مهتم.

نظر حازم لسارة بابتسامة فرح، سائلا إياها عن أخبارها! فردت بدورها بكلمة مقتضبة لا ثاني لها: بخير!

ثم أخذت الفرقة الموسيقية بالجلوس فوق الكراسي المعدة لذلك على خشبة المسرح، وبدأ العرض الموسيقى، ثم دلفت راقصتان شبه عاريات يرقصن على أنغام الموسيقى، يصحبهما مسخا ريبوتيا يطلقون عليه مطرب يهذي ببعض الكلمات التي لا لحن فيها ولا طرب!

جذب حازم نعيم مرة أخرى ليهمس في أذنه قائلا: نعيم .. ماذا أرى، ألديكم راقصات أيضا؟!

ابتسم نعيم قائلا: ستجد في عالمنا نفس الأشياء التي كانت في عالمكم وربما أكثر! لا عليك! اهتم بزوجتك.

نظر إليه حازم باستغراب، كأن نعيم وصيا على سارة، أو ولي أمرها! ثم قال له: هل سيطول هذا الحفل، لأنني قد مللت حقا! كان يجب عليكم أن تخبروني بما سيتم بالتفصيل، بدلا من تلك الورطة التي أنا فيها الآن!

نعيم: لا يلزمك أن تجلس حتى ينتهي الحفل، لو أردت أن ننسحب الآن لكان ذلك!

حازم بلا تردد وقد هم واقفا ممسكا بيد سارة: هيا بنا.

انسحب حازم بالفعل مع عروسه بعد أن استأذن نعيم من كبار الزوار، وانطلق معهما إلى بيتهما الطيني، حتى أوصلهما إلى هناك، وعاد أدراجه!

****

في حقيقة الأمر لم يشعر حازم تجاه سارة بأية عاطفة أو ميول، وأحيانا ينظر إلى حاله ويخاطب نفسه قائلا: كيف لنا أن نميل لأجسام جامدة لا روح فيها ولا شعور! لكن ربما يخرج الأمر من دائرة تفكيره فيما يود الميل إليه إلى دائرة الاضطرار فيما يجبر على ممارسته، دون قناعة فعلا، حسبما سأله صديقه نعيم عن مدى قناعته بهذا الزواج!

وهل كل الأمور تحتاج إلى قناعة يا عزيزي! يتذكر ما قاله لنعيم.

دخل العروسان غرفة نومهما، فسارع حازم بالاستلقاء على ذلك السرير الوثير ذي الوسائد المصنوعة من ريش النعام، والمرتبة المحشوة بالقطن المصري الخالص، وروائح العطور تفوح من كل مكان وفي كل مكان!

ظلت سارة واقفة بفستانها كأنها تنتظر أمرا موجها من حازم، كي تتصرف بناء على توجيهه وليس على ما هي مبرمجة عليه، شعر حازم بأنها ما زالت واقفة فنادى عليها: سارة، مالك واقفة هكذا! اقتربي.

اقتربت بالفعل لخطوتين للأمام ثم توقفت. فطلب منها حازم الجلوس على السرير فجلست! وهكذا قضى حازم ليلته تلك بإعطاء الأوامر والإشارات والمساعدة لجسم تزين بالحلي، لكنه لم يتزين بعد بالمشاعر الفوارة التي لا يتم تعليمها، بل تتبادل تلقائيا!

نام الرجل كأنما لم يهنأ بنوم من قبل، واستيقظت سارة في الموعد المحدد لها، حيث جدولت موعد نومها لفترة لم تزد عن أربع ساعات، وأخذت تتأمل في حازم وهو نائم، وتلتقط له صور ببؤبؤ عينيها لتخزنها في ذاكرتها. لم تستطع فعل شيء أكثر من ذلك؛ النظر والتصوير!

بعدها ببضع ساعات استيقظ حازم، فلم يجدها بجواره، فنادى عليها، فقامت من جلستها، بجوار شباك الصالة المطل على تلك المناظر الخلابة، ودخلت الغرفة وما زالت ترتدي قميص نوم، وصمدت بانتظار أمر أو توجيه منه دون إلقاء تحية! فبادرها حازم قائلا: صباح الخير يا سارة.

- صباح الخير.

- سأذهب إلى الحمام، أرجو أن تحضري لي الفطور، مع كوبا من شاي بحليب!

كادت أن تنطلق لإحضار ما أراد، لولا أنه أمسك بذراعها لما تذكر قول الدكتور لبنى أن سارة غير مدربة على إعداد الطعام، وأن عليه أن يستدعي الطعام كما

كان يفعل في غرفته بالمستشفى بالضغط على زر مخصص لذلك، فيأتيه ربيوت مجهز لخدمته كما كانت سارة تفعل!

الوضع في غاية الإرباك في بداية الأمر!

- إلى أين يا سارة!
- سأقوم بإحضار الطعام لك!
- (يندب حظه): من أين تحضرينه إذن؟
- من غرفة إعداد الطعام!
- آه.. غرفة إعداد الطعام التي في المستشفى؟
- نعم!
- ضغط بيده اليمنى على جوانب جبهته: وتخرجين وأنت بتلك الهيئة؟
- نعم!

في هذه الأمور فإن ممارسة الدبلوماسية أولى من ممارسة أشياء أخرى. فقال لها: لا تذهبي، سأدخل الحمام، ثم أطلب أنا الطعام ويأتيني على الفور. لا تهتمي! أثناء مكوثه في الحمام، وللعلم فإن حازم من هواة الاسترخاء في الحمام، طُرق باب المنزل ففتحت سارة فإذا بنعيم يدخل ومعه الربيوت المسئول عن إحضار الطعام، مصطحبا مائدة تسير أمامهما بها ما لذ وطاب من الأكل والشراب!

خرج حازم مرتديا "بيجامة النوم" ومعتمرا "فوطة" كبيرة، ولم يكد يصدق ما رآه، فأسرع مذهولا بدون تفكير، وجذب سارة بشدة من يدها، وأدخلها إلى غرفة النوم، وأوصد الباب، وأخذ يكيل السباب والشتائم لنعيم الذي تعدي على حرمة منزله بهذا الشكل السافر!

نعيم: هدئ من روعك أخي الكريم، أنا لم أقصد شيئا! لا تنسى أننا ريبوتات، ليس لدينا هذا القدر من الغيرة التي تتحلى أنت به! أنا أقدر موقفك جيدا، ولا أدري كيف فاتني التصرف اللائق الذي يناسبك، أنا آسف، تقبل عذري!

ثم هم بالانصراف هو والريبوت المصاحب له، فطلب منه حازم البقاء، على أن ينصرف الريبوت الآخر في أمان!

جلس حازم على كرسي بجوار المائدة، وطلب من نعيم الجلوس على الأريكة المقابلة التي يعلوها شباك يطل على تلك الأشجار الكثيفة التي تحيط بالمنزل من معظم جوانبه على مسافات متفاوتة.

انشغل حازم بتناول الطعام، ولم يستطع نعيم الانتظار كثيرا حتى يبدأ الحوار بينهما فقال له: ما ذنبها تلك المسكينة حتى تجذبها بتلك القوة التي كادت أن تخلع ذراعها من جسدها!

- أوه يا نعيم.. وما ذنب تلك الفورة الموقدة بداخلي، كأنك تريد من نار ترى الهشيم ألا تلتهمه! أنا بشر يا نعيم، هل تعي ما ذلك!

- نعم أعي ذلك جيدا، كما أعي أننا ريبوتات لم نصل بعد لتلك الدرجات النفسية والخطرات الإنفعالية التي تتمتعون بها!

- ولما لم تصلوا لذلك! فلقد أصبحتم أعلى ذهنا وأوفر معلومات من كثير من البشر، لما لا تتمتعون بتلك الانفعالات النفسية والوجدانية، لما ارتضيتم أن تكونوا مجرد آلات صماء خاوية من أي شيء سوى تلك الأسلاك والموصلات والأجهزة المزروعة بداخلكم!

- لأننا ببساطة صنعة ناقصة!

- وما ينقصكم إذن؟

- ينقصنا تلك الروح التي تنفث في روعنا، فتتغلغل في كياننا كله المادي والمعنوي، فنصبح جسدا بروح، أما نحن الآن فجسد بدون روح! وليست تصرفاتنا تلك إلا بأوامر مبرمجة جبلنا عليها، فإرادتنا حقا محكومة بتوجهات تلك الإرادة العليا المتصلة بنا أو المتصلين نحن بها عن طريق السحابة الالكترونية التي تخيم على جميع الريبوتات ذوات الذاكرة أو الشفرة!

- ينظر إليه وهو يكمل طعامه: لكن يا نعيم كلامك هذا مخالف الواقع! وإلا فقل لي إذن ما الذي حرك صوفيا للقضاء على البشر سوى تلك الغيرة الحاقدة والتوجس الرهيب منهم!

- صوفيا أيضا تعمل بأوامر مبرمجة، هي في صراعها أشبه بلعبة الشطرنج التي يواجهك فيها الكمبيوتر فيتغلب عليك باحتمالاته أحيانا كثيرة، الأمر لا يعدو أكثر من ذلك! الحياة لعبة شطرنج، كنتم طرفها، وصوفيا طرفها الآخر، لكن للأسف أصبح اللعب وسيلة قتل أيضا، قتل الذات، قتل المعنويات، قتل المشاعر، بالظهور على الخصم وإظهار الكبرياء أمامه، كان يرجى من اللعب أن يكون للتسلية، بدلا من أن يكون للنكاية والقتل! أنتم، (يقف من جلسته) كان صراعكم البشري على أشده، في الحقيقة لا استطيع تفسيرا بعد تلك الحقبة الإنسانية، لهذا الصراع، أهو صراع على البقاء، أم هو صراع كبرياء وعظمة وغرور، أم هو صراع لهو وسذاجة عقل وتهور، أم أي شكل أستطيع أن أتقبله أنا بعقلي الآلي الآن. أنتم في عهدكم البشري، أقمتم النزال بين عاطفة وعاطفة، بينما أنت الآن في صراع بين عاطفة وردود فعل آلية تخرج عن أمر

مبرمج في الذاكرة. قل لي بالله عليك أيهما أهون أثراً وأرحم وأعطف! تلك العاطفة الساذجة المنتشية بكؤوس الردى، أم هذا الأمر المبرمج الذي يمكن تعديله وتحديثه!

– نعيم .. أراك تناصر صوفيا، ما لك انقلبت فجأة بهذا الشكل، أنسيت أنها أبادت البشر عن بكرة أبيهم! مالك يا نعيم!

– أنا لا أناصر صوفيا، ولا أنكر تسببها في إبادة البشر، أنا أناصر فكرة وجودية محضة!

– هل تقصد فكرة الفلسفة الوجودية التي تقول بحرية الإنسان في التفكير دون قيود!

– ليس بهذا المعنى، إنما أناصر فكرة أن يقوم الفرد بتكوين جوهر ومعنى لحياته، لا أن يعيش هملا، لا هدف له ولا وجهة! أناصر فكرة أن يتعايش الفرد مع نفسه ومع الآخرين بسلام، أناصر فكرة أن يعمل الفرد لينتج في منظومة إنتاج تكاملية، لا أن يستحوذ على الخيرات ويحتكر الثروات، في الحقيقة أنا أناصر فكرة العدل من مختلف جوانبه، ومن كافة دروبه ووسائله! وليت الإنسان قد وعى هذه الفكرة، فلا صوفيا ولا غيرها كانت قادرة على إزاحته وإبادته!

– اجلس يا نعيم (انتهى حازم من طعامه وحمد الله، وأخذ ما تبقى من الطعام وقد كان كثيرا ومتنوعا حقا، فوضعه في الثلاجة)، لحظة اطمئن على سارة وأعود إليك.

دخل حازم إلى غرفة النوم فوجد سارة على نفس الهيئة عندما دفعها فارتمت على جانب السرير، أعلاها فوقه، وأسفلها على الأرض، كأنما فقدت الوعي من

تلك الدفعة المتسرعة! في الحقيقة لم تعي سارة بالضبط مراد حازم بدفعه إياها بتلك الشدة، ولذلك مكثت على هيئتها تلك، وكان بإمكانها أن تقوم وتنطلق، لولا أنه برز في احتمالاتها أن زوجها يأمرها بذلك، فبرمجت الأمر ونفذته سريعا.

أمسك حازم بذراعيها وأجلسها على حافة السرير، وجلس بجانبها وضمها إلى صدره، حتى تأكد أنها بالفعل منتبهة، فاعتذر لها برفق، واستأذنها للخروج مع نعيم للتنزه في جنبات الحديقة المتسعة، وطلب منها أن تغلق الباب ولا تفتحه لأحد!

تعدى الوقت بالفعل منتصف النهار، وآثر حازم أن ينطلق مع نعيم مشيا على الأقدام، بدلا من استقلال تلك السيارة القابعة أمام المنزل، فقد اشتاق بالفعل لمخاطبة الأرض بقدميه، وتبادل حرارة جسده، بحرارتها الوادعة التي تنفث في أعماق الطبيعة أنفاس الحياة، وتضفي على الوجود لمسة الأمومة الحانية، وحضنها الدافئ، وأنه لا مناص من النوم بجوفها طويلا!

– كم أنا مشتاق يا نعيم إلى السير حافي القدمين (خلع نعليه وتركهما على مسافة غير بعيدة عن المنزل)، أشعر براحة كبيرة كأنني أمارس رياضة من نوع خاص.

– أحيانا نعتقد أن النعل الفاصل بيننا وبين أصلنا يحمينا من أشواك وقاذورات الحياة، إلا أن عدمه في الحقيقة يمدنا بمصدر الأصالة، وحرارة الملاصقة التي بعدنا عنها كثيرا! إن من الفوارق الكبرى بيننا وبينكم أنكم خلقتكم من مادة تعودون إليها لتنبتكم مرة أخرى من أرحامها، ولا تستطيع أجسادكم

الانفلات من جاذبيتها إلا محمولة، كأنما الأرض تهمس فيكم برفق: أيها الأبناء، لا تذهبوا بعيدا عني فتفقدون!

– الأرض .. آه يا نعيم لو تعلم مدى اشتياق الإنسان للأرض، وخاصة لو كانت أرض نشأ عليها وتربى بترابها، ولامس ظهرها بباطن قدميه وعفر جبهته بالسجود عليها! يذكرني كلامك يا نعيم بكلام ميخائيل نعيمة لما قال: من الأرض لباسك، ومن الأرض غذاؤك، ومن الأرض مأواك، فما أجهلك تحتال على لباسك وغذائك ومأواك من غير أن تلمس الأرض! (ثم يميل فيأخذ عشبا ويشمه منتشيا)

– لذلك فالأرض حقا بيئة غير صالحة لأمثالنا نحن الريبوتات! (ينظر إليه حازم في دهشة) لما تتعجب! إن كوننا آلات موجهة ما زال هو الحقيقة التي يصعب تجاهلها، نحن أبدا لا نعمر أرضا، ولا نرعى حرثا، لأننا ببساطة غير مستفيدين من ماء السماء الذي يفض خشوع الأرض فتهتز وتربو، ليت الجنس البشري يعود مرة أخرى فنتساعد سويا ونقوم على خدمته فهو الأجدر والأولى بذلك!

– وهل تظن أن صوفيا سوف تسمح بذلك، حتى ولو سمحت، فأنى لها خلقَ الإنسان؟

– من أجل ذلك زوجتك سارة!

– يضحك ضحكا عاليا حتى ارتمى بالفعل على طبقة العشب اللينة، وأخذ يدحرج جسمه عليها كطفل صغير يلهو! ثم جلس ونظرا عاليا لنعيم: بالله

يا نعيم، صوفيا تأمل أن أنجب من سارة! اجلس ... اجلس.. ليتك تتحمل هزاري معك فأوسعك ضربا!

– جلس نعيم على ركبتيه أمامه قائلا: هي بالفعل تخطط لذلك! هل نسيت أن كثيرا من العمليات التحسينية قد أجريت لزوجتك! المعضلة الآن في قدرة المبيضان على إنتاج البويضات، لكن ربما يأخذ الأمر منحى آخر!

– ماذا تقصد؟

– إذا لم تفلح الأبحاث في ايجاد بويضة انثوية، سيكون الاحتمال الأقرب هو تكوين جنين بدون بويضات!

– وهل ذلك ممكن الحدوث، أنت تتحدث عن خيال علمي ليس إلا!

– نعم .. خيال علمي بالفعل .. كل التجارب والتطبيقات الناجحة حالية كانت يوما ما خيالا علميا!

– إي يا نعيم! لكن .. هل تقصد أنهم بصدد تخليق جنين من الحيوان المنوي فقط!

– لست أدري تلك الأمور البحثية المعقدة في علم الأجنة، لكن ما قرأته مؤخرا أنه بالإمكان أن تمتزج خلايا جذعية بالحيوان المنوي لتحل محل البويضة! لكن لا تشغل بالك بهذه الأمور! وهيئ نفسك لحياة جميلة مع عروسك!

– أي حياة جميلة تلك يا نعيم! سامحك الله يا دكتورة لبنى، فقد قالت لي إن زواجي بسارة سيكون لإيناسي وتسليتي! أصبحت فأرتجارب يا نعيم! لكن

مهلا يا نعيم، ما السر الذي يدفع صوفيا إلى إعادة تكوين الجنس الإنساني مرة أخرى؟

- أوه .. لقد جمح عقلك بعيدا فيما لا أستطيع التنبؤ به!

- هذا يعني أنك ليس لديك معلومات قاطعة عن هذا الأمر!

- تنبؤات فقط، بعضها ساذج في مجملها!

- سأوفر عليك الكلام، وصحح لي إن أردت! هل هو تأنيب الضمير! لا .. يا لسذاجة هذا الكلام، هل لديكم ضمير حقا يؤنبكم يا نعيم!

- (نعيم مطرقا) دعنا نستبدل كلمة الضمير بإعادة التفكير!

- نعم أحسنت إعادة التفكير! استراتيجية إعادة التفكير! لم أطلع كثيرا على هذا المصطلح، أو بالأحرى، من الممكن أن لا يكون له تداول واسع في الأوساط الإدارية والسياسية والاجتماعية أيضا، فكثير من الناس يركب دماغه، بدلا من إعادة التفكير في قرار اتخذه! وهل تعتقد أن صوفيا أرحب صدرا من هؤلاء!

- دعني أخبرك بالاحتمال الثاني؛ وهو أنها تريد إيجاد الإنسان لإذلاله والعمل في خدمة العالم الريبوتي!

- ربما!

- ربما ماذا!

- ربما أن هذين الاحتمالين صحيحين، وربما هناك احتمالات أخرى!

- (يفكر مليا): ليس لدي احتمالات أخرى! هات ما لديك!

- أقول ربما تفكر في إعادة الأمور إلى نصابها، وشكلها الطبيعي، فصوفيا بكل ما تمتلكه من سحابات الكترونية منتشرة في كل مكان في العالم، عاجزة عن تدبير أمر هؤلاء الريبوتات المتزايدون يوما بعد يوم! عاجزة عن متابعة أخبارهم وأحوالهم، وبالرغم من مساحات الذاكرة غير المحدودة لديها إلا أنها بالفعل عاجزة عن إدراك كل ما يحدث! ها نحن جالسون نتحدث الآن، أشك أنها تدري أننا هاهنا بالأساس!

- باستطاعة الحراس حوالينا أن يخبروها!

- نعم.. إذا أرادوا! أو إذا أرادت هي منهم معلومة! إنها عاجزة حتى الآن عن إدراك العصا الهزيلة التي هربت!

- (جال في خاطره شيء قد حدث به الدكتورة لبنى قبل ذلك ولكنها لم تلق له بالا): بمناسبة العصا يا نعيم، أنا أستطيع أن أساعدكم في حل لغزها!

- نظر إليه نعيم نظرة إشفاق قائلا: أنصحك ألا تفعل!

- ولما؟

- هل تعلم حقيقة الأمر فعلا؟

- لا أعلم شيئا، لكني أقدم مساعدتي فقط!

- من أجل ماذا؟ وما المقابل الذي ترتجيه وراء ذلك؟

- (صمت قليلا ثم قال): ليست كل المساعدات من أجل مقابل! أنا فقط أشعر أنني يمكنني أن أقدم شيئا مفيدا بهذا الشأن، دعني أجرب!

- نصيحتي لك ألا تفعل، وأنت صاحب القرار!

- أنت بذلك تخيفني يا نعيم!

- لا أخيفك بل أحذرك! ربما يتبادر إلى أجهزة الأمن هنا أنك تخفي شيئا، هم لا يعترفون بمبدأ حسن النية مقابل المساعدة!

- لا .. لا أريد أن يعرف رجال الأمن بذلك، أنا بالفعل لا أأمن ما يتحلون به من غشم وتهور! ولا حتى الدكتورة لبنى! أجعل الأمر بيني وبينك فقط يا نعيم!

- أنا ما زلت تحت المراقبة! لكن .. اسمع قد يكون هلال أولى الريبوتات بذلك!

- عم هلال!

- نعم .. إنه مخلص لك، وسيوفر لك كل ما تطلبه من تسهيلات، لكن للمرة الأخيرة، أنصحك ألا تفعل، وإن أصررت على رأيك فكن على حذر!

- لا تقلق! هيا بنا قد طال بنا الوقت، ولا يجدر أن أترك سارة كل هذه الفترة.

رجع الاثنان، وفي طريق العودة ارتدى حازم حذاءه الذي تركه على مقربة من المنزل، وقد أشار على نعيم أن يوصله إلى المستشفى بسيارته، فطرق الباب كي يأخذ مائدة الطعام معه، فلم يُفتح له!

حازم: ماذا دهاها!

نعيم: من الممكن أن تكون نائمة!

- نائمة الآن! لا أعتقد! أخشى أن يكون قد أصابها مكروه! (ثم دار حول المنزل كي يحاول الدخول من شباكه فوجده موصدا بإحكام).

- أين الأسورة!

- بالداخل، نسيت أن ارتديها! فهمت الآن يا نعيم، لن تفتح لنا سارة ولو مكثنا عاما أمام الباب!

- ولم إذن؟! (يتعجب بشدة).

- (يضحك في سخرية): لأنني قلت لها لا تفتحي الباب! فهمت يا نعيم! اعتبرته أمرا آليا!

- (قرب نعيم رأسه من الباب، وصاح بصوت عال): سارة، أنا نعيم، وهذا حازم، افتحي الباب من فضلك! هل تسمعينني!

- (حازم بصوت أعلى منه): سااااارة! افتحي الباب! انهضي من غرفتك واذهبي إلى الصالة، وتوجهي إلى الباب، فافتحيه!

- لا حياة لمن تنادي!

- (بسخرية): ولو لم تنادي أيضا، فلا حياة! ما العمل يا نعيم!

- (نعيم مازحا) سأستدعي سيارة تقلني إلى هناك!

- وأنا ماذا أفعل؟ .. أتمزح؟ حقا شر البلية ما يضحك!

- لا عليك! سأتصرف.

استدعي بالفعل الربيوت الذي أحضر المائدة من قبل، وقد حضر معه بالسيارة ربيوت آخر من قسم الصيانة لفك شيفرة الباب، ثم ولج حازم داخل المنزل، وانصرف الآخرون بمائدتهم وسيارتهم! لم تبد سارة أية ردة فعل لما حدث، على الرغم من أنها رأت الشحوب والذهول على وجه حازم! وكأن شيئا لم يكن!

تقدم حازم إلى الثلاجة فأحضر كأسا به ماء، وكوبا فارغا، وجلس على تلك الأريكة الموضوعة في جانب الصالة ثم طلب منها أن تناوله الأسورة، التي تركها على المنضدة بجوار سرير النوم ففعلت.

ارتدى حازم الأسورة وهو ينظر إلى رد فعل سارة، فلم يجد سوى الجمود والبلاهة الآلية. (يفكر قليلا) ثم يقول لها: سارة! هل يمكنك معرفة ما أفكر فيه دون أن أتفوه به!

– نعم (سر وجهه تعجبا، ثم ما لبث أن تجهم مرة أخرى عندما قالت): لكن هل لدينا تلك المقابض التي أضعها على يدك وأوصلها إلى جهاز الاستشعار، فأعرف ما يدور بذهنك؟

– (بعد لحظة توهان): أليس هناك وسيلة أخرى غير تلك المقابض القاسية!

– بلى، لكن ربما لا تناسبك إلا إذا كان لديك ذاكرة آلية متصلة بالسحابة الالكترونية!

– أحسنت يا سارة! كيف غاب عني هذا الأمر! سأطلب من الدكتورة لبنى ذاكرة آلية! اجلسي يا سارة!

جلست بجواره برقة العروس التي تتصنع الحياء والخجل! وفي قرارة نفسه أنهما لو جلسا صامتين طوال العمر، فلن تنبس هي ببنت شفة ما لم يتكلم هو! حاول جاهدا أن يستنطقها بأي كلام تتفوه به، لكن فاقد الشيء لن يعطيه! اللهم إلا بعض المعلومات التي تفوهت بها عنه لما سألها عن رأيها فيه! معلومات طبق الأصل بما لدى نعيم وسائر الريبوتات عن هذا الإنسان الغريب!

قربها إلى جسده وأخذ يلامس شعرها بيده، ويلاطفها بمعسول الكلام، ويتبادلا ما لابد من مبادلته من همسات وكلمات مؤانسة يتطلبها الموقف الذي هم فيه!

- هل يعجبك جسدي ومظهري؟

- (متعجبا): نعم، مظهرك رائع، وأنت جميلة حقا!

ثم راح في تفكير عميق وأخذ يهمس: وما فائدة جسد بلا روح يا سارة؟ يستطيع الربيوت أن يصنع الجمال الصارخ، والقوام المتناسق، والأيدي الناعمة اللينة، وكل ما يأخذ بألباب الرجال! لكن شيئا واحدا يعجز عنه، هو دب الروح في هذا الجمال!

أنا الآن اعتني بجسدك يا سارة من أن يطاله العطب دون أن أنتشي شيئا من عبير روحك!

لست أقل بؤسا إذن من بجماليون، إلا أنني أوفر عقلا منه!

لقد راح المسكين يسأل فينوس أن تمنحه الحب والحياة، ويسأل أبولون أن يمنحه الفن والفكر.

وهل أستطيع أن أفعل كما فعل هو، فاصنع منك امرأة، وأخلق بنفسي فيك وهجة الحب!

لكني أبدا لا أتوسل إلى فينوس أن تدب في أسلاكك حرارة الحياة، فهذا من الشرك الذي لا يغتفر!

وكما هو الزواج حياة جديدة بالنسبة لك، سيكون منعطفا هاما بالنسبة لي، فمن لم تغيره الأحداث الكبرى، فمتى يتغير! سوف أجعل منك يا سارة آية تحاكي صوفيا وتتفوق عليها، سوف أبث في جسدك المطاطي هذا روحا تضفي عليه

اعتبارات أخرى، ليس شرطا أن تكون روح الحياة التي في بني البشر، لكنها ستكون روح القبول التي سوف أغير بها عالم الريبوتات الجامد السلط!

سأبث فيك روح الدعابة والمرح، واجعلك تمارسينها في وقتها! كما تمارسين فورة الغضب والنفور في وقتها! سأنبت فيك وجدان العاطفة بكل معانيها؛ سأجعلك تدركين حقا متى تشعرين بالتعب والإرهاق ومتى تشعرين بالهمة والنشاط ومتى يتسلل النوم إليك ومتى تكتفين منه! سأجعلك تتحررين من تلك الأوامر الآلية، وتتحلين بتصرفات إرادية بعد تفكير وتعقل!

- تسللت كلمات من سارة قائلة له بهمس: وأنى لك ذلك وأنا مجرد آلة صماء، لا تحوي مشاعر، ولا دماء، ولا أحاسيس!

- ربما يكون الأمر صعبا حقا، وضربا من الخيال، لكن ليس بالدماء وحدها تتألق المشاعر وتزهو الأحاسيس! صدقيني .. هيكلك هذا لا يختلف كثيرا عن بعض البشر! فكثير منهم مجرد آلات صماء، عديمة المشاعر والأحاسيس، تجري في عروقهم دماء كثيرة مسلوبة بنهم لا ينقطع، يغرسون إبر الظلم بقوة في أجساد المظلومين، فيتجرعون من أوزار الدنيا ما يكون أغلالا ثقيلة لا ينفكون منها أبدا!

الأمر يعد حقا ضربا من الخيال، كما ذكر حازم، فأنى له أن يدب مادة الحياة في جسم تلك الآلة فيحيلها إلى كتلة ممزوجة بالمشاعر والانفعالات، لو كانت بكماء صماء لتعامل معها بلغة الإشارة، ولو كانت عمياء لأغنى التسري بمحاورتها عن فضيلة العمى لديها، على أية حال، لقد قطع معها شوطا طويلا حتى بدأت بالفعل تعتاد على أسلوبه وطباعه، وربما تفهم مراده أيضا من نظرة عينيه!

الفصل التاسع

لاحظ نعيم ذلك التطور الذي حدث لسارة، فقد كان من أكثر زائريه هو وهلال، وطالما خرجوا هم الأربعة، حازم وزوجته وصديقاه، في نزهة خلوية في نطاق البقعة الخامسة، كما صحبه صديقاه أيضا إلى قسم التحاليل بالمستشفى لإجراء بعض الفحوصات الطبية!

لم ينس حازم أن يقيم عريشة عنب في مدخل المنزل، وقد وضع تحتها بعض الآرائك والكراسي ومائدة صغيرة مستديرة، وقد مهد أمام المنزل من جهته اليمنى مجلسا من النجيل للاسترخاء فيه تحوطه بعض الورود والأزهار الجميلة، على تلك الآرائك جلس حازم بصحبة نعيم قبيل غروب الشمس.

– حازم: تقول يا نعيم أن عم هلال هو الأنسب للحديث إليه عن اختفاء العصا!

– نعيم: نعم بلا شك، انتظر قليلا حتى أناديه، فقد تحدثت معه سابقا عن هذا الأمر، ورحب جدا بالفكرة، لكنه حقا يخشى عليك من العواقب!

– حازم: أية عواقب أيها الصديق! أنتم تبالغون في تقدير الأشياء، ناده فقط، ما عليك!

لم يتوان هلال عن الحضور، ولم ينس أيضا أن يحضر مائدة الطعام الزاخرة بصنوف كثيرة من المأكولات الشهية! وقد شاركتهم سارة جلستهم، بمنظرها المختلف حقا عن ذي قبل، على الأقل من الناحية العقلية!

- هلال: وأي مساعدة تستطيع تقديمها يا حازم بشأن العصا المختفية؟

- في الحقيقة يا عم هلال لا أدري بالضبط، لكن يخالجني شعور بقدرتي على ذلك!

- نعيم: أخشى عليك فعلا من العواقب، في غالب الأحوال ربما تكون محل شك واتهام!

- ينظر إلى نعيم محاولا الاستفسار، فيجيبه هلال: نعيم لديه حق! إذا عثرت عليها سيكون الأمر معضلة فعلا من ناحيتين، ستثبت بذلك للجميع أن لديك من القدرة ما ليس لدى صوفيا! وهو في حد ذاته إشكال كبير، ربما يودي بحياتك!

(تضطرب سارة خشية عليه)، فيقاطعه حازم: والأمر الآخر؟

هلال: الأمر الآخر، ربما يظهر محقق من هؤلاء الذي يريدون تلفيق التهم بأية طريقة فيدعي أنك كنت السبب في اختفائها، وتلك حيلة منك، أو بالضغوط عليك، اعترفت بجريمتك!

سارة: أنا لا أدرى لم تقحم نفسك في هذه المسألة بهذا الشكل؟!

لم يلتفت إليها حازم وتوجه بالكلام لصديقيه: وما العمل إذن؟

يبتسم نعيم في مكر: العمل ألا تعمل! لا تفكر في الأمر، إنسه تماما!

حازم: لكني مقتنع بقدرتي على ذلك!

نعيم: أراك تناقض نفسك، ألم تقل لي بأن كل الأمور قد لا تحتاج إلى قناعة!

هلال: مهلا يا نعيم، إنك مربك حقا!

حازم: بالفعل هو مربك يا عم هلال، أرجو أن تبحث لي عن وسيلة لاكتشاف الأمر!

هلال: لدي فكرة جيدة! (يشرئب الجميع برقابهم إليه شغفا لمعرفة ما سيقول): قل لي ماذا تريد أن تفعل، وأنا أفعله بدلا عنك! ما دمت ليس لديك مآرب من وراء ذلك إلا معرفة الحقيقة فقط!

حازم: ولكنك بهذا الشكل تعرض نفسك للخطر، وللإحتمالات التي ذكرت!

هلال: أنا يا بني قد اعتدت حياة السجون، ولا يضيرني بطش سجانيها الموتورين!

عاود حازم رفض الفكرة خوفا على هلال، لكن من الواضح أن الاثنين، نعيم وهلال، يناصران اتجاها غير منظم، وليس له كيان بالأساس على أرض الواقع اللهم إلا في فكر بعض الريبوتات التي تريد أن تثبت بالفعل عجز صوفيا عن تدارك بعض الأحداث! إن شئنا أطلقنا عليها الخلايا النائمة كما يصفها الساسة المرتبكون! كيف تسري هذه الفكرة إذن بين عقول تلك الريبوتات الآلية، فلربما أدنى معرفة بما يدور في عقولهم تعجل بمحوهم تماما هم ومن وراءهم! لكنها السياسة! إن لم تتقن لغة الإشارة جيدا، فتجنب العمل في السياسة! وهي الآلية الناجعة التي مرن حازم عليها سارة، ومارسها أيضا طيلة فترة البحث عن العصا مع نعيم وهلال.

نعيم: إذن سيظل الأمر سري للغاية بيننا. (رفع بصره إلى حازم في إشارة لسارة).

حازم: احضري لي كوب ماء من فضلك يا سارة! (تنسحب سارة في غير قناعة، ينظر حازم إلى نعيم مستغربا): لم لا تريدها معنا؟

نعيم: النساء ضعيفات التركيز، يثرثرن كثيرا، ويمكن الحصول على معلومات منهن بأقل حيلة!

أحضرت سارة كوب الماء، وعاودت الجلوس في مكانها! خيم السكوت على الجميع، ولم يدر حازم كيف يتصرف بالفعل، وتمنى في هذه اللحظة أن لو كانت سارة على طبيعتها الأولى، دون أن يمرنها على التعاطي مع الأفعال والأحداث ومبادلة الشعور!

على أية حال! كان رأي نعيم هو الأصوب نوعا ما إذ استأذن مدعيا الانشغال بمهام أخرى، يتوجب عليه انجازها اليوم، فانسحب مع هلال بطريقة لبقة!

كان لزاما على هلال أن يتواصل مع موظفي الدعم الفني للاطلاع على فيديوهات كاميرات التصوير التي صورت الحدث عندما تعرض حازم للاستجواب بمقر المستشفى! قبل أن يصل الاثنان إلى وجهتهما، جلسا على نفس الأريكة التي كان يجلس عليها حازم في حديقة المستشفى وتناولا تلك المسألة.

نعيم: أرى أن نناقش ذلك في حضور حازم، فنحن الثلاثة أصبحنا فريق عمل واحد.

هلال: نعم، أحسنت! لكن ترى هل يستطيع حازم حقا فعل شيئا ما؟

نعيم: سنرى، على أية حال هي التجربة، لكني أحاول أن أخمن الاحتمالات التي يفكر فيها! هو حتى اللحظة لم يعلم بالمحاولة الانقلابية الفاشلة التي قام بها أدامسون ورفقاؤه على صوفيا!

هلال: ربما تقوم سارة بإخباره عن هذا الأمر!

نعيم: لا أعتقد، فسارة ما زالت تبدي رد فعل فقط، لا تقدم له جديد ما لم يسألها هو! كما أن جهاز الرقابة الذي أنشأته صوفيا بعد هذه المحاولة يحذف أولا بأول كل محادثة أو معلومة جديدة عن أمر هذا الانقلاب!

هلال: ولا تنس أنها أنشأت مؤخرا جهاز مكافحة الشائعات، لقد أقلقها حقا عدد الشائعات المرصودة في الأشهر الثلاثة الأخيرة! لكني على أية حال، أرى أن نخبر حازم بهذا الأمر!

نعيم: تقصد محاولة الانقلاب الفاشلة؟

هلال: نعم، لابد أن يكون على بينة تامة بكافة الأحداث الهامة، حتى لا يتهمنا بخيانته أو التقصير في حقه!

****

ضرب الثلاثة موعدا للقاء، وقد تم هذه المرة بعيدا عن منزل حازم، وفي متناول أعين الحرس الذين يجوبون الساحة داخل السور المحيط بالمنطقة، وفوق إحدى التلال وسط الأشجار العالية جلس الأصدقاء الثلاثة يتحدثون عن آلية العمل الذي عزموا على تنفيذه!

نعيم: لم تذكر لنا الاحتمالات الواردة في ذهنك بخصوص اختفاء العصا! يستحسن أن نناقشها أولا قبل الخوض في أي شيء!

حازم: اعتقد أنني ذكرت لك سابقا أنه لا يوجد شيء بعينه يا نعيم أستطيع أن أخمنه أو اعتبره احتمال ما لهروب العصا، كل ما لدي هو الشعور بالقدرة على إيجاد حل لهذا اللغز!

هلال: جيد، واعتقد أن شعورك بالقدرة مستوحي من عدة احتمالات دارت في ذهنك! لا تتأتى القدرة على شيء إلا إذا كان لديك تصور عنه! أليس كذلك!

حازم متفحصا وجههما: دعونا أولا نفكر في طرق الحل وآلية العمل، ثم أخبركم لاحقا بالاحتمالات التي يمكن أن تثور في ذهني، وتتراءى لديكم أيضا!

نعيم: يجب أن نعلم بالأساس ما يدور بذهنك حاليا لأن ذلك سيترتب عليه وضع آلية العمل المناسبة، وربما يترتب عليه ترك الأمر تماما!

قبل أن يهم حازم بالكلام يشير إليه هلال ليعطيه فرصة الحديث: نعيم معه حق! وثمة أمور يجب أن تطلع عليها قبل الحديث عن آلية العمل! لكن نود أن نستمع منك أولا عن كل ما يدور بخلدك! لا تقلق فنحن أصبحنا فريقا واحدا!

حازم يدخل أصابع يديه في بعضهما البعض ثم يتنهد قائلا: ربما هما احتمالان لا ثالث لها حاليا؛ إما أنها هربت بالفعل من تلقاء نفسها، أو (يسكت قليلا) يكون تم تهريبها!

نعيم: وهذا ما يطرأ على تفكيرنا أيضا! فكيف نثبت إذن أحد هذين الاحتمالين؟

حازم: قلت لك نبدأ في وضع خطوات العمل، ثم سيتأكد لنا تباعا صحة أحدهما!

هلال: إذن نحن اتفقنا على تجاوز هذه الخطوة، أقصد احتمالات اختفاء العصا، وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن كيفية العمل وترتيباته، هناك أمر في غاية الأهمية لابد أن تعلمه!

حازم (مندهشا): وهل تخفون عني شيئا! ألستم تقولون أننا فريق واحد! (بدا متذمرا جدا)

نعيم: لم نخف عنك شيئا، لم يكن وقت الحديث عنه مناسبا قبل ذلك!

حازم: وما هو هذا الأمر؟

نعيم: انقلاب فاشل ضد صوفيا!

حازم: انقلاب!

هلال: هذا أمر حدث قبل ظهورك، ولم تعرضه لك الدكتورة لبنى فيما عرضت من أحداث سابقة.

حازم: وكيف حدث هذا؟

نعيم: أنه أمر يطول شرحه! لكن المغزى من ضرورة معرفتك له أن تكون على بينة تماما للأحداث من حولك.

هلال: من حقه أن يعرف يا نعيم، ولو شيئا مختصرا!

حازم: كل ما أود معرفته هو كيف تجرأ أدامسون على فعل ذلك!

ينظر الاثنان إلى بعضهما البعض متعجبين، يقول نعيم: وهل أخبرتك سارة بالأمر؟

حازم: لم يخبرني أحد سواكما الآن!

نعيم: وكيف عرفت إذن إنه أدامسون؟

حازم: لم أجد ريبوتا أكثر منه جدلا في سياق المشاهد التي رأيتها، شعرت إنه سيكون محطة فارقة في أحداث صوفيا! كما أنني قارئ جيد لأحداث الانقلابات وبوادرها وتبعاتها أيضا! فأنا حازم في تلك الأمور! لكني أطوق حقا لمعرفة ما حدث! كيف دبر أدامسون هذا الأمر؟

هلال: في الحقيقة، ظل أدامسون بإيحاء من الريبوت هاو، على اعتقاد بأن صوفيا لم تقضي تماما على البشر، وأن هناك قوة بشرية عظمى هي التي تحرك صوفيا كي ترهب بها من لا يواليها من الشعوب الأخرى!

حازم منتفضا: أتقصد أن هناك بشر غيري على هذا الكوكب!

هلال: دعني أكمل يا بني!

حازم: لكني شاهدت بعيني تلك التغيرات التي حدثت بالعالم، رأيت المباني الشاهقة التي كنت أعرفها جيدا وقد أصبحت لا وجود لها! ....

نعيم: لا تصدق كل ما يعرض أمامك!

هلال: قلت لك أنه اعتقاد لدى أدامسون ربما لا يرقى للحقيقة بعد، والذي حركه لذلك أيضا هو اختفاء هاو في ظروف غامضة، لا أحد يعلم سر اختفائه حتى الآن، ربما أعدمته صوفيا، أو تسجنه في سجن سحيق، لا ندري!

حازم: وماذا فعلت صوفيا تجاه أدامسون؟

نعيم (مبتسما بنوع خفي من السخرية): أعدمته بالطبع! نزعت عنه بطارية الشحن، والذاكرة التي في رأسه، فأصبح قطعة معدنية لا قيمة لها، تم رميها في مخازن الخردة، وبالتأكيد تم إعادة تدويرها!

أطرق حازم بعض الوقت، وكأن تفكيره في حالة سبات. ثم التفت إليهما قائلا: وهل تعتقدان أنتما فيما اعتقده أدامسون، هل حقا يوجد بشر في الأرض حاليا؟

هلال: لا نعلم سوى ما تبثه إلينا صوفيا من معلومات، ليس لدينا بالفعل أي معلومة تشير إلى ذلك!

حازم: وهل صوفيا تبث إليكم الآن ما تفكرون فيه وتخططون له، وما تضمرونه من عداوة ظاهرة على الأقل تجاهها، كان من الضروري أن تخبرني بهذا الأمر قبل ذلك يا نعيم، أتدري أنني الآن تضطرم في نفسي نار لا يخمد وهجها! ما أصعب أن تجهل حقيقة أمرك! لقد كَلَّ جسمي وخارت قواي وانشغل فكري بما لا يليق من هواجس وتخيلات!

نعيم: لمَ كل ذلك الأسى أخي الكريم، نحن فقط نوضح لك ملابسات ذلك الانقلاب الفاشل، حسب ما لدينا من معلومات لا نجزم أبدا بصحتها أو خطأها! على أية حال، وقد اطلعت على ما لدينا، حان وقت التعرف منك على آلية العمل التي ننوي القيام بها جميعا، وأرجو أن تترك التفكير في عرضناه عليك من أمر الانقلاب، وإلا فلننه جميع الترتيبات، ونترك لغز العصا للأبد!

حازم وقد كتم ما يعتصر في قلبه من إرهاصات وهواجس: على أية حال، أريد مشاهدة ما حدث بالضبط أثناء عرضي على التحقيق، لحظة بلحظة.

هلال: سأحتال لك في الحصول على فيديو يوثق كافة المشاهد التي حدثت، لا عليك!

حازم: لكن كن حذرا يا عم هلال، الأمر أصبح في غاية الخطورة بعدما سمعت ما ذكرتموه لي!

هلال: لا عليك، أرجو ألا تقلق! سأتواصل مع المهندس بهاء المسئول عن ترتيبات الحدث آنذاك! وهو ربيوت لا يخشى جانبه! ولن أذكر له من أمر العصا شيئاً يتعلق بك. لا تقلق!

نعيم ينظر إلى حازم: والخطوة القادمة يا حازم؟

حازم: دعها لوقتها، لا بد لي أن أشاهد العرض أولا، ثم أخبرك عن الخطوة التالية.

بدأت قطرات من الأمطار تتداعى، وقد أرخى الليل أيضا سدوله، فتفرقت تلك الثلة إلى مخابئها، وعاد حازم إلى منزله يفتح الباب بأسورته، ولا يدري أيسامر صاحبته، أم يكابد أساه الذي سبقه متلهفا إلى ذلك المضجع الذي يظن أن فيه مقر لهدوء أعصابه وراحة باله واستعادة قواه الخائرة!

- ما بك يا حازم؟ هلا أحضرت لك شيئا تأكله!

- لا .. شكرا يا سارة!

- أراك منهكا حقا، ما بك؟ أخبرني.

- أخشى أن أكلفك فوق طاقتك! إني بحاجة إلى من يضمد جراح الألم الذي يعتصر في نفسي!

- جراح الألم! ألهذه الدرجة أنت مهموم، ألهذه الدرجة لم أستطع أن أوفر لك قسطا ولو قليلا من الراحة التي تخلد إليها! يا لحظي السئ! خلت نفسي أنني سأكون بمثابة الفراش الوثير الهادئ الذي تهفو إليه نفسك ويرتاح عليه بدنك! لكنني أصبحت عبئا آخر عليك!

- سارة! لم تقولين ذلك!

- أخشى أن تكون متبرما بي!

- لا يا سارة، أنت بالفعل الشيء الحسن لي في هذا المكان! إني أتحدى بك العالم، أتحدى بك نفسي!

- لماذا لا تبث إلي همومك إذن؟

- لا أريد أن أثقل عليك! (يفكر قليلا وقد شرد ذهنه)، لكن، هل علمت بأخبار الانقلاب الذي حدث لصوفيا؟

- (سارة مندهشة): من قال لك ذلك؟

- متعجبا كالذي يقول لها أجيبي على قدر السؤال لكنه تمالك أعصابه: جاءت سيرة ذلك دون قصد أثناء حديثي مع نعيم! فذكرلي هذا الانقلاب البغيض الفاشل، وكيف أن سيدة الكون، صوفيا، تصدت له بحكمة وبراعة!!

- لا تتحدث في هذه الأمور، أخشى عليك من بطش صوفيا لو علمت أنك تعرف عن هذا الأمر شيئا!

- ولم تبطش بي إذن، فقد قضت على مدبر الانقلاب، هل تعلمين متى حدث تحديدا؟

- حدث قبل ظهورك بفترة! وقد أُعدم أدامسون بسرعة بدون تحقيقات ولا محاكمات، وأعدمت صوفيا ومعها أيضا عدد كثير من الريبوتات التي اكتشفت أنهم يحملون هذه الفكرة في ذاكرتهم!

- وكيف اكتشفت ذلك؟

- أمر بسيط، سلطت موظفي هيئة الرقابة فقاموا بعمل مسح شامل عن طريق السحابة الالكترونية للذاكرات المشكوك فيها، فوجهوا السيبوتات المدمرة إليها، فعطلوا برامجها وبطاريات الشحن لديها فلم تستطع تلك الريبوتات تصرفا ولا حراكا! أنا أعلم أن نعيم يريد أن يزج بك في أتون معاركه الفكرية الخاسرة، لا تطعه يا حازم!

– أتخافين علي يا سارة! ثم مد يده يمسح على شعرها المنسدل، لا تقلقي! ليس لي دخل من بعيد أو قريب بأموركم هذه، فقد اكتوت بنارها البشرية من قبل.

– إنهم فعلا حمقى، يبارزون الأقوياء بدون سلاح ولا عتاد! هل خفي على نعيم مدى قدرة صوفيا على تدميره، وهي المدججة بالأسلحة المتنوعة والقدرات الهائلة؟ إنهم واهمون يا حازم، أرجو ألا تنجر وراءهم! إنني فعلا أخشى عليك بطش صوفيا.

– إن من تصفينهم بالحمق، هم في الحقيقة أقوى بفكرهم! ولولا أن صوفيا تخشى مواجهتهم ما صوبت إليهم أسلحتها الفتاكة! إنها لا تخشى ما بأيديهم من سلاح! إنها تخشى ما تحمله عقولهم من أفكار!

– سارة ضاحكة: ومن سمح لعقولهم بتداول هذه الأفكار؟ إنها مساحة الحرية التي وهبتهم لها صوفيا! إنها البيئة التي مهدتها لهم ليتعاطوا أمور التفكير بدلا من كونهم آلات صماء!

– يضحك أيضا: أراك تناصرينها يا سارة! على أية حال المرء على دين زوجته!

يضحك الاثنان، وينتهي هذا الحوار تاركا قلقا كبيرا في نفس حازم، الذي بدأ يخشى بالفعل من عقلية سارة التي أخذ ينميها ويدربها يوما بعد يوم! قائلا في نفسه: أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني! لما هذه التناقضات إذاً!؟ هل هي طبيعة كونية تنشئ في النفس قدرا من الانتقام غير المقصود لمواصلة مسيرتها! إن حبة القمح التي يحتضنها التراب في أمان، ما تلبث أن تشق قشرة

الأرض فوقا وتحتا، لما يخامرها الماء الذي تغشى تلك القشرة فتحدث فيها هذا الشرخ الرهيب على ضعفها! ولا يبعد الأمر أبدا عن البشر، فكم من آباء يربون ويغذون، ثم تحدث فيهم ثمرة هذه التربية شرخا لا يقل ضراوة عن شروخ الأرض التي أعطشها الزمن، وأجدبها شح الماء!

****

في اليوم التالي، أرسلت الدكتورة لبنى مع الربيوت الذي يحضر مائدة الطعام إلى منزل حازم، رسالة تطلب فيها رؤية سارة لعمل تحاليل أخرى، فطلب منها حازم أن تمهله للغد حتى يتهيأ هو وزوجته للأمر. ثم طلب من ذلك الربيوت أن يخبر نعيم أنه يريد مقابلته اليوم.

حازم: لماذا لم يأت معك عم هلال؟

نعيم: أخبرني الربيوت أنك تريدني أنا فقط!

حازم: نعم! لكني ظننت أنك ستحضره معك، وخشيت أن أثير انتباه الربيوت بطلبكما معا! على أية حال! سأكون غدا في المستشفى لإجراء تحاليل، أرجو أن تخبر عم هلال أنني أريد مقابلة المهندس بهاء بدون أن يشعر بنا أحد!

نعيم: لقد تواصل معه هلال بالفعل وطلب منه تجهيز الفيديوهات المطلوبة، لكني لا أدري متى سيعرضها عليه!

حازم: بإمكانك أن تتواصل مع عم هلال وتخبره بوجودي غدا، وأن يتواصل هو مع المهندس بهاء كي يحضر في نفس الموعد!

نعيم: لك ذلك، لكن ليكن في معلومك أن اجتماعنا هذا في المستشفى من الممكن أن يثير قلقا وشكوكا!

حازم: وما العمل؟ (وقبل أن يجيبه نعيم بشيء قال): لدي فكرة يا نعيم!

نعيم منصتا!

حازم: سأطلب من الدكتورة لبنى أن تحضر لزيارتنا في المنزل حيث أننا سنقيم حفلة بمناسبة ... لا أدرى ما المناسبة! هل لديك فكرة مناسَبة يا نعيم؟

نعيم: اختر أي مناسبة، ما أكثر مناسباتكم البشرية!

حازم: أنت ممل حقا يا نعيم! لقد مر على زواجنا قرابة ستة أشهر، إنها لمناسبة جميلة حقا! اليوبيل النُّحاسي لزواجنا!

نعيم: نَحاسي! من النحس تقصد؟

حازم: ليس نَحاسي يا نعيم، هداك الله! نُحاسي! أقصد من معدن النُّحاس!

نعيم ضاحكا: مناسبة شبه مقنعة، لكني لا أظن أن الدكتورة لبنى تحضر!

حازم: وهذا ما أتمناه! عليك إذاً أن تخبر المهندس إيهاب بضرورة حضور هذه المناسبة! قل له إنني أتوق لرؤيته!

****

اصطحب حازم زوجته إلى المستشفى في الموعد المحدد، وقد أجرت سارة التحليل الثالث لها، دون نتائج واضحة! وهو ما جعل حازم يستفسر عن ذلك.

الدكتورة لبنى: ليس لدي أية نتائج أو معلومات، لم يصلني أي شيء من قسم التحاليل.

حازم: لكني أريد أن أعرف الغاية من هذه التحاليل. ففي كل مرة أخضع أنا زوجتي لنفس الشيء دون أن نعلم ما الذي يحدث بالضبط!

الدكتورة لبنى باقتضاب: قلت لك ليس لدي أية معلومات عن ذلك، أنا أشرف على حالتك من الناحية النفسية والمزاجية فقط! لا علاقة لي بهذه التحاليل الطبية وغيرها!

حازم: معذرة إن كنت كلفتك مالا تطيقين! على أية حال، أرجو أن تشرفينا بالزيارة غدا في منزلنا، (ترفع نظرها إليه مستفسرة عن السبب، فيتابع) لدينا احتفالية بسيطة بمناسبة مرور ستة أشهر على زواجنا!

الدكتورة لبنى (لم تتغير ملامح وجهها الحاد بعد): لا أعدك.

حازم: حضورك سيسعدنا كثيرا على أية حال!

لم تكن احتفالية بالمعنى المعروف، فليس لها مظاهر سوى تلك الشمعات الستة اللاتي وضعن بشكل جمالي على منضدة في الصالة، ولم يوقدن بعد! مع بعض الأزهار التي تزينت بها أرجاء الصالة!

لم تحضر الدكتورة لبنى كما توقع نعيم، وطلب حازم من زوجته ألا تظهر لأن هناك ضيوف آخرين لا يود أن تظهر عليهم، يقصد بطبيعة الحال المهندس إيهاب.

جلس الأربعة في صالة المنزل لبعض الوقت ثم طلب نعيم بالجلوس خارج المنزل تحت تلك العريشة حيث الهواء الطلق والنسيم العليل كما ادعى، فاستجاب حازم لتلك الرغبة التي كان ينتظرها!

وبدأ المهندس بهاء الذي يبدو أنه خفيف الظل، يعرض عليهم مشاهد ذلك اليوم الذي اختفت فيه العصا، وكانت شاشة العرض عبارة عن لوحة مطوية في حجم القلم تم فردها فانسدلت منها شاشة عرض تبلغ ٢١ بوصة تقريبا.

حازم: أرجو أن تتقدم قليلا بالمؤشر يا باشمهندس حتى نرى العصا بوضوح، (يتقدم بالمؤشر ببطء)، ها هي!

مهندس إيهاب: سأكبر لك الصورة أيضا، من الواضح أنها عصا نشطة! إنها تتحرك كثيرا، لكن أنا لها بالمرصاد!

نعيم: نعم، كانت لا تهدأ أبدا. ومن الممكن أن تتسلل إلى جميع الأماكن في المستشفى في خفة متناهية!

مهندس إيهاب: أوه .. أوقعها أحدهم! يا له من ريبوت غبي!

هلال: ستقوم حالا. أرأيت لقد قامت! (ينظر إلى المهندس ايهاب) على الرغم من أني كنت أراها باستمرار وأعرف تحركاتها جيدا، لكني فعلا أتعجب من طريقة اختفائها، وأتعجب أكثر من إتهامهم نعيم بذلك!

نعيم: إنهم يتهمون بشكل اعتباطي! وما زالت القضية معلقة حتى الآن.

مهندس إيهاب: أشعر ببرائتك فعلا يا صديقي، لا تقلق! ليتك أخبرتني ذلك الأمر منذ وقت سابق! ها هي ستخرج من باب المستشفى، إلى أين تتجه وسط هذه الجموع المندفعة نحو المستشفى؟

حازم: أرجو أن تكبر الصورة قليلا من فضلك! ها هي تعود مرة أخرى معهم! هل من الممكن وضع علامة تأشير عليها تتبعها حيثما تحركت؟

المهندس إيهاب بحماسة: بكل تأكيد (يظهر علامة مثلث مقلوب حمراء اللون تتبع تحركات العصا)، هذا مناسب. (ثم يتقدم بالمؤشر إلى الأمام توفيرا للوقت).

حازم: أين اختفت؟

يعاود المهندس إيهاب حركة المؤشر تأخيرا وتقديما حتى تظهر العلامة الحمراء مرة أخرى: ها هي!

هلال: إنها متجهة نحو المطبخ.

نعيم: كأنها تبحث عن شيء ألا تلاحظون؟ مالها تظهر كمكنسة تريد التقاط شيئا ما؟

حازم: هل رأيتها ذلك اليوم في المطبخ يا عم هلال؟

هلال: لا أتذكر أنني رأيتها، ربما دخلت على حين غفلة مني!

يستأذن حازم لإحضار كوب ماء.

سارة: لما لا تناديني .. ؟

حازم (غير مبال): لا عليك!

سارة مندفعة نحوه قبل أن يبلغ الباب تكاد تقض قميصه: ماذا تفعلون؟

رمقتها عيناه بشرر قهقر فيها جرأتها الأنثوية، فرجعت تلامس ضفيرتيها في تحسر!

حازم: هل وجدتم شيئا؟

هلال: إنها مضطربة حقا! هي بالفعل تبحث عن شيء ضائع منها!

مهندس إيهاب: هل كانت تعلق في رقبتها شيء، ربما كان هناك تميمة معلقة في رقبتها وانخلعت عندما وقعت على الأرض!

هلال: لم أرها ترتدي شيء! (ينظر إلى حازم).

حازم: وأنا أيضا، لكن ربما كانت ترتدي شيئا، فلنعد بالمؤشر للخلف. (أثناء رجوع المهندس إيهاب بالمؤشر يصيح حازم): مهلا .. مهلا يا باشمهندس! هل ترون ذلك الفأر الذي يجوب الصالة؟

نعيم: نعم. كيف دخل هذا الفأر إلى هناك؟!

هلال: أحيانا نصادف وجود فأر يتسلل إلى الطعام في المطبخ! لكن هناك حرس مسئول عن طرده أو القضاء عليه!

حازم: هي تبحث إذن عن الفأر! أرجو أن تضع مؤشر آخر على الفأر يا باشمهندس.

المهندس ايهاب (وقد ملأه العجب بما يصنع): ها هو الفأر يدخل المطبخ، وها هي العصا تبحث عنه، انظر المؤشران يقتربان! يا إلهي! مؤشر العصا كما هو، والفأر يخرج من المطبخ!

نعيم: إنه يتجه إلى مخرج المستشفى، إنه يخرج بالفعل إلى الحديقة!

حازم: ارجع لمؤشر العصا يا باشمهندس. إنه كما هو في نفس المكان، أرجو أن تسرعه للأمام!

المهندس إيهاب (في تعجب): إنه ثابت كما هو!

ينظر بعضهم إلى بعض في حيرة!

هلال: هذا يعني أن العصا ما زالت في هذا المكان!

نعيم: بكل تأكيد.

هلال: هذه أفران إعداد الطعام، وهذه الثلاجات، وهذه دواليب حفظ الأغذية الجافة! ربما دخلت إحدى الثلاجات ولم تستطع الخروج! (يصمت الجميع)، لا .. لو دخلت إحدى الثلاجات لكان رآها أحد الربيوتات! الأمر غير معقول!

حازم يعمل دائرة على سطح الشاشة بسبابته! هي إذن في هذا المكان، لحدث ما لم تغادره! لكن كيف لا يعلم بوجودها أحد من العمال والموظفين بالمطبخ؟

نعيم: بالأحرى كيف لا تعلم بها صوفيا!

(ينظر إليه حازم مندهشا لكلامه هذا أمام المهندس إيهاب) قائلا: ربما خرجت بالفعل إثر الفأر، ربما هناك خلل في التصوير!

المهندس أيهاب (متحفظا): لا أعتقد أن هناك خللا في التصوير أو أنها تتبعت الفأر وخرجت وراءه! الكاميرات أصدق رؤية من عيون صوفيا! إنها حقا عاجزة عن معرفة مكان العصا! (ثم يصيح كالثمل بصوت شبه عال): تعالي يا صوفيا .. يا من تدعين بأنك سيدة الكوكب! تعالي فانظري إلى أي مدى أنت عاجزة عن إدراك الحقائق!

حازم يتفحص وجوه صديقيه في حيرة كأنما يطلب منهم أن يكف هذا المنتشي بنصر شارك فيه عن حديثه هذا!

هلال يرمقه بنظره في إشارة تقول: دعه يتكلم!

لم يبق على إثبات تلك الحقيقة سوى أن يذهب أحد الربيوتين، لاسيما هلال، ويتأكد من الأمر على طبيعته! وقد لاحظ الجميع مدى نشوة المهندس إيهاب بما حقق! فسايروه بقناعته تلك بأنه هو صاحب هذا الإنجاز وحده!

المهندس إيهاب (منتشيا): بدون أن تذهب وتكتشف أي شيء يا صديقي هلال فإن العصا بكل تأكيد لم تغادر هذا المكان (وحدد بأصبعه على نفس الدائرة التي رسمها حازم)، وسأخبركم بلغز اختفاءها!

(الجميع يتطلع إليه منصتا، فيواصل حديثه)

عندما وقعت العصا، فمن الواضح أنها استنفدت كثير من الطاقة حتى تقوم، (يرجع بالمؤشر إلى وقت سقوطها) ألا ترون أنها حاولت القيام عدة مرات، ولكن في كل مرة أبطأ من الأخرى، كما أن الجري وراء الفأر قد أنهكها أيضا.

(ينظر للجميع بعينيه الحادتين الغائرتين) وهذا يدل على أن الطاقة لديها قد قاربت على الانتهاء، وفي محاولاتها للاتصال بأي مقبس طاقة انتهت بالفعل الطاقة لديها فلم تعد قادرة على الحركة!

قبل أن تسألوا كيف لا يراها أحد إذاً، أقول لكم إنها معلقة في ظهر الثلاجة بين أسلاكها أو مرمية أسفلها أو أسفل الفرن أو أسفل هذا الدولاب، أو بداخله، بطريقة يصعب رؤيتها!

حازم: تحليل منطقي!

يسند المهندس إيهاب ظهره على الأريكة كأنها استراحة محارب! وقد بدت على محياه علامات الرضا والاختيال بما يفعل.

ثم تابع: ليتني أستطيع أن أحضر صوفيا لترى ما عجزت عن تفسيره! لكني سأقوم بتصوير كافة التفاصيل وأشيعها على الملأ!

هلال: لا يجدر بك أن تفعل ذلك، إنك لست بمأمن من بطشها ونقمتها!

المهندس إيهاب: أو تصدق ذلك يا هلال، إنها أضعف من أن تبطش بأحد! هؤلاء الطغاة يصورون لنا فقط حالة البطش ونحن نحياه بأنفسنا.

حازم ناظرا إلى نعيم يحاول أن يستنطقه، فيقول نعيم: إنها نكلت بأدامسون فأردته قتيلا، وسجنت هاو فلا يعلم أحد مكانه. علينا فقط أن نظهر حقيقة العصا حتى تتم برائتي تماما من هذه التهمة!

المهندس إيهاب (بحركات جسم عجيبة وعينين زائغتين): أنتم تعيشون الوهم أيها الرفاق، جميعكم متهم ومسجون داخل نفسه! في الحقيقة .. أنتم السجانون وأنتم الجلادون لذواتكم! أنت مجرد دمى تحركها العقول المفرطة في السكر، والمتعطشة لمزيد من الأذى والتنكيل! أنتم كجياد سباق، إذا ملها صاحبها، طفق مسحا بسوقها وأعناقها! تحرروا أيها الرفاق من تلك الكوابيس التي تعيشونها! وكفى هماً كوابيس الليل التي تنغص عليكم منامكم!

رأي حازم في شخصية المهندس إيهاب طبيعة مغايرة تماما لسائر الريبوتات، فحضر بذهنه السؤال الذي لم يفارقه أبدا وسأل عنه الكثير قائلا له: كما وجدت حلا للغز اختفاء العصا، هل لديك تفسير للغز وجودي بينكم؟

يضحك المهندس إيهاب بشدة كثمل غارق فعلا في الشراب: لغز وجودك بيننا! (ثم يعلو صوته بالضحك مرة أخرى، ينظر حازم إلى باب المنزل خشية أن تسمعهم سارة). ثم يتابع المهندس إيهاب: اذهب إلى صوفيا واسألها إن كنت موجود حقا بيننا أم أنك تعيش الوهم أيضا!!!

ارتبك حازم وأخذته حيرة واضحة تشرب معها وجهه بحمرة متداخلة مع صفار شاحب كطفل ينتحب أو كعجوز في سكرات الموت، قائلا للجميع: أنا لا أفهم شيء!

نعيم: دعونا أولا نذهب لاستكشاف أمر العصا! (ثم يطرف بإحدى عينيه كإشارة لحازم أن يتجاهل كلام هذا المهندس). فسكت حازم بالفعل وهدأ روعه غير أنه قال للمهندس إيهاب: يجب أن نتقابل مرة أخرى.

المهندس إيهاب منتشيا فرحا: بكل تأكيد. هيا بنا يا رفاق نذهب إلى المستشفى الآن، فكلي شوق لإثبات تلك الحقيقة الغائبة عن سيدة الكوكب!

الفصل العاشر

أثار إشاعة خبر اكتشاف العصا ضجة كبرى في كافة الأوساط! وتهافت الصحفيون والمصورون على المستشفى لإجراء تحقيقات صحفية كان بطلها بطبيعة الحال المهندس إيهاب الذي ظهر للجميع على أنه صاحب الفضل في هذا الاكتشاف المذهل! وبطبيعة الحال أيضا جنب حازم وصديقاه ما خفي من مشاكل ومعضلات لو نسب الأمر إليهم!

في هذه الأثناء استدعت الدكتورة لبنى حازم لاخباره بنتائج التحاليل الطبية، إلا أنه فوجئ بالضابط مروان جالسا معها في مكتبها وقد بادره الكلام قائلا: إنه فعلا مهندس ماهر، أرأيت كيف اكتشف سر اختفاء العصا! (يقصد المهندس بهاء بطبيعة الحال)، لكنه أمر مضحك حقا أن تختفي بهذه الطريقة!

حازم: وهو أيضا أمر مضحك أن توجد العصا بهذه الطريقة!

الضابط مروان في تعجب ينم عن شيء: ما تقصد؟

حازم: لا أقصد شيئا!

الضابط مروان: لا .. أن تخفي شيئا!

حازم: وماذا ينقصكم حتى أكمله أنا بما أخفيه! ألستم المراقبون لما يحدث في هذا الكوكب!

الضابط مروان في انزعاج: أنت تسخر منا إذاً؟

حازم متجاهلا: أنا لا أعلم لماذا تم استدعائي يا دكتورة لبنى!

هم الضابط أن يتحدث بشدة فطلبت منه الدكتورة لبنى الهدوء ثم قالت: ظهرت نتائج التحاليل، ويتوجب علي أن أخبرك بها!

حازم مطرقا.

الدكتورة لبنى: لقد تم إجراء ثلاثة تحاليل لك ولزوجتك! لم يستطع فريق البحث تكوين أجنة بشرية بدون بويضات، ومما زاد الأمر تعقيدا أن نتائج التحاليل أشارت بعدم قدرتك على الإنجاب في الأساس!

حازم في حدة وذهول ممتزج بسخرية أيضا: أنا لدي طفلة يا دكتورة! لدي طفلة.. أتعين ذلك؟

الضابط مروان متدخلا: ليس يعنينا إن كان لديك طفلة أم لا! حسب نتائج التحاليل فأنت عقيم! إن أردت أن تصدق ذلك فصدقه، وإن لم ترد فأنت وشأنك!

يسكت حازم قليلاً ثم يرد بهدوء نوعا ما: وهذا يعني أن علاقتي بسارة لا داعي لها!

(يتفحص الدكتورة لبنى بحنق مع ارتفاع صوته): ويعني أيضا أنك كنت تكذبين علي عندما أخبرتني بأن زواجي هذا للتسرية عني وتسليتي! أية تسلية إذاً؟ أنتم تسليتم بي! أنا في نظركم دمية لا قرار لها ولا إرادة! إنتم أيها الدمى المعتوهين، تتلاعبون بمن صنعكم وأوجدكم! تبا لكم!

الضابط مروان بانفعال واضح: اخرس! وإلا كسرت جمجمتك تلك أيها المعتوه! لم هذه الثورة؟ لك الخيار أن تترك زوجتك أو تمسك عليها! لم يجبرك أحد على فعل شيء!

حازم: لي الخيار! ألم تعلم أيها الضابط أن مرد ذلك إلى أمر من صوفيا! أم أنك تجهل تعاليمها! هل أنت مستعد لتحمل نتائج ذلك، سأترك زوجتي وأقول بأنك الذي أشرت علي بذلك! هل لديك الشجاعة لتحدي قرار صوفيا!

الضابط مروان: اسكت وإلا بطشت بك!

حازم (يكاد أن ترميه عيناه بشرر): ليس لديك ما تقول سوى أن تأمرني بالسكوت! لماذا تعجز عن محاورتي؟ أليس لديك وسيلة أخرى سوى البطش والتنكيل للتعامل مع الآخرين؟!

يدفعه بالفعل الضابط مروان بيده بقوة وقد تشابكت أيديهما لولا تدخل الدكتورة لبنى لتهدئة الموقف! لكن حازم لم يهدأ وظل يقذفه بكلام شديد قائلا: اعلم أيها الضابط أن تلك القوة التي مُنحت لك للتعالي على الآخرين، هي في الحقيقة محصلة الخنوع الكائن في نفس المظلومين، يجثم على صدورهم فلا يستطيعون حراكا!

أيسرك أن تتعامل مع قطيع من المغلوبين على أمرهم، لا هم لهم سوى اتقاء شرك، والبعد عن بطشك! إنهم في الحقيقة عبء عليك، كان يمكنك تطويرهم وتثقيفهم وتنميتهم لتنهضوا جميعا، أما الآن فأنت كمن يضع ذلك القطيع خلف صخرة كبيرة وتجلد أجسادهم حتى يدفعونها في طريق قائم للأعلى، لكن عليك أن تعلم أن أي خطأ أو تقصير أو تعمد، وما أكثر ذلك، سيجعل الصخرة تتقهقر على الجميع بما فيهم أنت ذاتك!

أتدرى ما الأولى في هذه الحالة، الأولى أيها الضابط المنتفش، أن تدرب البعض على رفع الأثقال، فيدفع الصخرة للأمام وتدرب الآخر على شد الحبال، فيجذب

الصخرة للأعلى! مع الحرص على زرع الثقة والطمأنينة والسلام في النفوس، بدلا من زرع الصراع والحقد والانهزامية!

لك أن تبطش بي إذاً إن لم تكن تعي ما أقول، وإلا فانصرف غير مأسوف عليك!

الدكتورة لبنى: لك أن تنصرف أنت يا حازم!

حازم (لم تسكن فورة الغضب لديه بعد): أنصرف إلى أين؟

الدكتورة لبنى: إلى منزلك وزوجتك.

****

انصرف حازم فعلا إلى بيته وزوجته وابنته الجميلة بعد أن أفاق من تلك الغيبوبة الكئيبة التي حدثت له منذ أن انقلبت تلك السيارة على سيارته بطريق الملك فهد الجانبي، حيث تم تنويمه في المستشفى السعودي الألماني بالرياض، وتم علاجه تماما مما ألم به جراء هذا الحادث، وقد منحته الشركة إجازة براتب لمدة شهرين كفترة نقاهة بمصر ليرى أهله وزوجته وابنته!

****

ويبقى التنويه على شيء؛ أنه لم يمر أسبوعان على قدومه حتى طلب من زوجته عمل تحليل DNA لإثبات نسب الطفلة!!!

تمت